

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

نشأة الحضارة

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

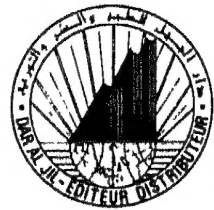
تقديم
الدكتور محي الدين صابر

الجزء الأول من المجلد الأول

١



تونس



بيروت

نشأته الحضارة

” أحب أن أعلم الخطرات التي سارها
الإنسان في طريقه من الممجية إلى المذنية “
فولتير^(١)

الباب الاول

عوامل الحضارة(*)

تمريف - العوامل الجيولوجية - والجغرافية - والاقتصادية
- النفسية - والتفسيية - أسباب انحلال الحضارات

الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها .

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هي التي تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وأولها العوامل الجيولوجية ، ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد ، فتتأخر الجليد قد يعاود الأرض في أي وقت فيغمرها من جديد ، بحيث يطمس منشآت الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ، ويحصر الحياة في نطاق ضيق من سطح هذه الأرض ، وشيطان الزلازل الذي نبى حواضرنا في غفوته ، ربما تحرك حركة خفيفة بكتفيه فاشلعلنا في جوفه غير أنه .

وثانيها العوامل الجغرافية ، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يحتاج تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهى للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خول وأمراض ، وما تُعرف به من نقوج مبكر وانحلال

(*) سيجد القارئ في نهاية هذا الكتاب بياناً بالمراجع التي تشير إليها الأرقام التي يصادفها أثناء القراءة في أعالي الكلمات .

وسنستخدم في هذا الكتاب كلمتي « مدنية » و « حضارة » بمعنى واحد . (المعرب)

مبكر ، من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التي هي قوام المدنية ، ويستنفدها جميعاً في إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تدّر للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه في ميدان الفنون وجمال التفكير ؛ والمطر كذلك عامل ضروري إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان وال عمران ، مثل فينوى وبابل ؛ أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هي - فيما يبدو للعين - بعيدة عن الطريق الرئيسي للنقل والاتصال ، مثل المدن في بريطانيا العظمى أو خليج ^١بوجيت (*) Puget Sound وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن ، وإذا كانت أنهاره تهيء له طريقاً هينة للتبادل مع غيره ، وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التي تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجاري ، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسية للتجارة العالمية ، كما كانت حال أثينا وقرطاجنة وفلورنسة والبندقية - إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً ، إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها ، وتهيئ سبيل ازدهارها .

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك ، فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقى رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هي الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظلَّ في مرحلة الصيّد البدائية ، واعتمد في وجوده على ما عسى أن يصادفه من قناتص ، فإنه يستحيل أن يتحول من الجمعية إلى المدنية تحولا تاماً ؛ قد تكون قبيلة البدو - كبندو بلاد العرب - على درجة نادرة من القوة والذكاء ، وقد تبسدى من ألوان الخلق أسماها كالشجاعة والكرم والشهم ، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذي لا بد منه ، وبغير اطراد موارد القوات ، ستنفقه في مخاطر الصيد ومقتضيات

(*) خليج عربي الولايات المتحدة . (المغرب)

التجارة ، بحيث لا يبقى لها منه شيء لو شئى المدنية وهُدَّأَها ولَطَّأَها وملحقاتها وفنونها وترفها ؛ وأول صورة تَبَدَّأتْ فيها الثقافة هى الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ؛ فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة - وأعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام - ترى الإنسان يبني لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلم كيف يعمل فى نظام واطراد ، ويحتفظ بحياته أمدأ أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة(*) كما ترتبط المدنية بالمدينة ؛ إن المدنية فى وجه من وجوها هى رقة المعاملة(**) ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهدب الذى هو فى رأى أهل المدن - وهم الذين صاغوا حكمة المدينة - من خصائص المدينة وحدها(†) ، ذلك لأنه تتجمع فى المدينة - حقاً أو باطلاً - ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوايغ العقول ؛ وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ؛ وفى المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار ؛ وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول ، يَرْهَفُ الذكاء وتُسْتَنَارُ فيه قوته على الخَلْقِ والإبداع ، وكذلك فى المدينة يُسْتَعْنَى عن فئة من الناس فلا يُطْلَبُ إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، لكنها لا تزدهر إلا فى المدن .

(*) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط اللفظى بين الكلمتين فى الإنجائزية وها

Agriculture & Culture

(**) هنا كذلك بيان لعلاقة لفظية بين كلمتى Civilisation ومعناها مدنية ، وكلمة

Civility ، ومعناها رقة المعاملة . (المعرب)

(†) كلمة مدينة حديثة الاستعمال نسبياً ، ففى الرغم مما اقترحه « بوزول » على

« جونسن » لإدخالها فى قاموسه سنة ١٧٧٢ ، فقد رفض « جونسن » أن يدخلها ، وآثر عليها الكلمة التى معناها « رقة المعاملة » Civility .

ولست تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ؛ قد تنهض مدنيّة في بكين أو دلهي ، في ممفيس أو بابل ، في راغنا (†) أو لندن ، في بيرو أو يوقطان . فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنيّة بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه . ليست المدنيّة البريطانية وليدة الرجل الإنجليزي ولكنه هو صنيعتها ، فإذا ما رأيته يحملها معه أينما ذهب ويرتدى حلّة العشاء وهو في « تمبكتو » ؛ فليس معنى ذلك أنه يخلق مدنيّته هناك خلقاً جديداً ، بل معناه أنه يبيّن حتى في الأصقاع النائية مدى سلطانها على نفسه . فلو تهيات لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية ، ألفت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هي ذى اليابان في القرن العشرين تعيد تاريخ إنجلترا في القرن التاسع عشر ، وإذن فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجيء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطيء بين شتى العناصر ، ذلك التزاوج الذي ينتهي تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبياً(*) .

وما هذه العوامل المادية والبيولوجية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنيّة ولا تنشأ من عدم ، إذ لا بد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلا بد أن يسود الناس نظام سياسي مها يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من الفوضى ، كما كانت الحال في فلورنسة وروما أيام النهضة . ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في طريق حياتهم ، ولا مندوحة كذلك

(†) مدينة على الساحل في الشمال الشرق من إيطاليا . (المغرب)

(*) قد يؤثر الدم - لا الجنس - في المدنية بمعنى أن الأمة قد يعوتها أو يدفعها إلى الأمام كونها تنشأ عن عناصر من الناس أدنى أو أعلى من سواها ، وإنما تكون تلك العناصر أدنى أو أعلى من الوجهة البيولوجية (لا الجنسية) .

عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار . ثم لا منلوحة أيضاً عن قانون خلقى يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها ، حتى تكون هناك فى لعبة الحياة قاعدة يراها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها ، وبهذا يطرد سلوك الناس بعض الشيء وينظم ، ويتخذ له هدفاً وحافزاً . وربما كان من الضرورى كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود ، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدنا قبل أن يخطفها الموت . وأخيراً لابد من تربية — وأعنى بها وسيلة تتخذ — مهما تكن بدائية — لكى تنتقل الثقافة على مرّ الأجيال ، فلا بد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فنورثهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها ، سواء كان ذلك التورث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين ، وسواء فى ذلك أن يكون المربى هو الأب أو الأم أو المعلم أو القسيس ، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تمحوّل هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

ولو انعدمت هذه العوامل — بل ربما لو انعدم واحد منها — لحاز للمدينة أن يتقوّض أساسها . فانقلاب جيولوجى خطير ، أو تغيير مناخى شديد ، أو وباء يقلت من الناس زبامه كالوباء الذى قضى على نصف سكان الإمبراطورية الرومانية فى عهد « الأناطنة » (جمع أنطون) ، و « الموت الأسود » (*) الذى جاء حاملاً على زوال العهد الإقطاعى ، أو زوال الحصوبة من الأرض ، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف ، بحيث ينتهى الأمر إلى اعتماد الناس فى أقواتهم على ما يرد إليهم متقطعاً من بلاد

(*) وباء تلى فى أوروبا فى القرن الرابع عشر . (المغرب)

أخرى ، أو استنفاد الموارد الطبيعية في الوقود أو المواد الخامة ، أو تغيير طرق التجارة تغيراً يبعد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم ، أو انحلال "عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهمد القواعد التقليدية التى كان النظام الاجتماعى يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها أو انهيار قوة الأضلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو بسبب ما يسود الناس من فلسفة أبيقورية متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدياد الكفاح ، أو ضعف الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء وبسبب القلة النسبية في أفراد الأسرات التى كان في مقدورها أن تورث العزف تراث الجماعة الفكرى كاملاً غير منقوص ، أو تركيز الثروة تركزاً مخزناً ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالى . هذه هى بعض الوسائل التى قد تؤدى إلى فناء المدنية ، إذ المدنية ليست شيئاً مجولاً في فطرة الإنسان ، كلا ولا هى شيء يستعصى على الفناء ؛ إنما هى شيء لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصادية أو في طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملاً على فناءها . إن الإنسان ليختلف عن الحيوان في شيء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل :

والمدنيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التى تنقل تراث الآباء للأبناء ، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التى تربط الصلات بين الناس ، قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتهما ، فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق بنا الموت ، لنسلمه إلى أبنائنا .

الباب الثاني

العناصر الاقتصادية في الحضارة (*)

« الهمجي » هو أيضاً متمدن بمعنى هام من معاني المدنية ، لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه — وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والحلقية ، التي هذبها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل في هذا الصدد أن نلتزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم « الهمج » أو « المتوحشين » فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر بها عن حبنا العارم لأنفسنا لا أكثر ، وعن انقباض نفوسنا وانكماشها إذا ما ألقينا أنفسنا لإزاء ضروب من السلوك تختلف عما ألفناه ، فلا شك أننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب الساذجة التي تستطيع أن نعلمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق ، فلو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العُريانة قد أنشأتها أو أدركتها جميعاً إلا شيئاً واحداً ، ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقومات واستثنيها فن الكتابة ، ومن يدري فلعلهم كذلك كانوا يوماً متحضرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوه فيها من شقاء للنفس ، وعلى ذلك فينبغي أن نكون على حذر حين

(*) عل الرغم من الاتجاه الحديث الذي يخالف رأينا مخالفة شديدة (١) فنستخدم كلمة « مدنية » أو « حضارة » في هذا الكتاب لتدل على النظام الاجتماعي والشرع الخلق والنشاط الثقافي ؛ ونستخدم كلمة « ثقافة » لتدل إما على ما يمارسه الناس فعلاً من ألوان السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وفنون ، وسيدل السياق على أي المعنيين هو المقصود ؛ فإذا ما كانت الإشارة في الحديث إلى المجتمعات البدائية أو جماعات ما قبل التاريخ فإن المعنى للكلمة « ثقافة » هو المقصود .

تستعمل ألفاظا مثل « همجى » و « متوحش » في إشارتنا إلى « أسلافنا الذين يعاصروننا اليوم » ؛ ولقد آثرنا أن نستعمل كلمة « بدائى » لنبدأ على كل القبائل التى لا تتخذ الحيطه ، أو لا تكاد تتخذها ، بحيث تدّخر القوت للأيام العجاف ، والتى لا تستخدم الكتابة أو لا تكاد تستخدمها ؛ وفى مقابل ذلك ، سنطلق لفظ التمدن على الأقوام التى فى وسعها أن تكتب ، وأن تدّخر فى أيام يسرها لأيام عسرها .

الفضل الأول

من الصيد إلى الحرث

ما للشعوب البدائية من قصر النظر - بداية الحيلة - الصيد والسمكة - الرعى - استئناس الحيوان - الزراعة - القوت - الطهى - أكل اللحوم البشرية

« إن نظام الوجبات الثلاث في كل يوم نظام اجتماعي غاية في الرقي ، أما الأقوام الهمجية فهي إما أن تتخمد نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن الطعام »^(٢) ، وإنك لتري أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون على من يدخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق^(٣) ، وكذلك ترى أهل استراليا الأصبيين لا يستطيعون العمل كائن ما كان ما دام جزاء العمل لا يبيحهم فور أدائه ؛ وكل فرد من قبائل « الهوتنتوت » Hottentot هو بمثابة السيد الذي يعيش عيش الفراغ ، والحياة عند قبيلة « البوشمن » Bushmen في أفريقيا « إما وليمة وإما مجاعة »^(٤) . وإن في قصر النظر هذا لحكمة صامتة ، كما هي الحال في كثير من أساليب الحياة عند « الهمج » ، ذلك أن الإنسان إذا ما بدأ يفكر في غده فقد خرج بذلك من جنة عدن إلى وادي الهموم ، وحلّت به صُفرة الغم ، وها هنا يشتد فيه الجشع ، ويبدأ البيلكية ، ويزول عنه البشر المتهلل الذي يعرفه الإنسان الأول « الخلى » من كل تفكير ؛ إن الزنحى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة من مراحل الانتقال ، فقد سأل « پرى » أحد أدلائه من الإسكيمو قائلاً « فم تفكر ؟ » فكان جوابه : « ليس لدى ما يدعو إلى التفكير لأن لدى مقداراً كافياً من اللحم » فكون الإنسان لا يفكر إلا إذا اضطر إلى ذلك ، قد يكون جُماع الحكمة ، وقد يكون لهذا رأى سند قوى يدعمه .

ومع ذلك فتلك الحياة التي نلت من الهموم ، كانت لها صعباتها ؛ والأحياء

التي استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة في تطورها ، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدها في تنازع البقاء ؛ فالكلب الذي اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته ، ولأنها لشهية الكلاب ، والسنجاب الذي ادّخَرَ البندق لوجبة أخرى في يوم مقبل ، والنحل الذي ملأ خليته بالعسل ، والفمل الذي خزن زاده أكداً انتقاء يوم مطير - هذه جميعاً كانت أول منشئ للمدنية ، فقد كانت هي وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علّم أجدادنا فن ادخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد . أو اتخذ الأهبة للشتاء في أيام الصيف الخصبية بخيراتهما .

فيا لها من مهارة تلك التي استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعاماً كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة ! لقد كانوا ينتزعون بأيديهم الجردة انتزاعاً ما يستطيعون أكله مما يبديه سطح الأرض من أشياء ، وكنت نراهم يقادون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشباك والمصائد والقفاخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عدداً لا يحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء ؛ لقد كان لأهل بولينزيا شباكٌ طوله ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جنباً إلى جنب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس في تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدواة ، انظر إلى السمّاك من قبيلة « ثلينجيت » Thlingit إذ كان يضع على رأسه غطاء يشبه رأس عجل البحر ، ثم يخفي نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان ، فتأتيه عجول البحر ، فيقطعنها بسنان رحمه ، لا يجد في ذلك ما يؤنبه عليه ضميره ، لأنه يتم على أوضاع يرضاها القتال في صورته البدائية ، وكان من عادة كثير من القبائل أن يُلْقَى سَمّاكوها مادة مخدرة في مجرى الماء ليمون عليهم استغلال السمك بعد تخديره ؛ فأهل تاهيتي - مثلاً - كانوا يلقيون في الماء سائلاً مسكراً يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

لديهم من النبات ، فتسكّر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تتحذر الخطر ، فيمسك منها السمك ما أراد ؛ والاستراليون الوطنيون يمسحون تحت سطح الماء ، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب ، فيتاح لهم أن يجذبوا البطّ السابح من سوقه إلى جوف الماء ، ويظنون ممسكين به هناك في رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة ؛ وأبناء قبيلة « تاراهيومارا » كانوا يسكنون الطير بأن يلقوا لباب البندق على ألياف قوية ويربطوه بتلك الألياف التي يغرسونها إلى نصفها في التراب ، فيقتات الطير من اللباب ، ثم يقتات « التاراهيوماريون » من الطير (٥) .

إن الصيد عند كثرنا الغالبة اليوم ضرب من اللهو ، نستمد فيه اللذة — فيما أظن — من بعض الذكريات الغامضة الراسخة في دماغنا والتي تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائدين والمصيد كليهما أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً إلى طاب القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حرباً لو قرّنت إليها كل ما عرفه التاريخ المدوّن من حروب ، ألفت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغز اليسير . وما يزال الإنسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياة ، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهاجم مختاراً إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الخوف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهرباً يلوذ به ، فليس في الغابة قوت يكفي الجميع ، وأحياناً لا يظفر بطعامه إلا المقاتل أو الذي يستخدم لنفسه حيواناً مقاتلاً ، وها هي ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التي نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية ، إذ تعرض أمامنا الممدّتى والمراوات والرماح والقسى وحبال الصيد والأفمخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التي استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض ، ويمهد السبيل أمام خَلْفٍ لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة آمنة من كل حيوان إلا الإنسان . وحتى في يومنا هذا ، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقى على القادر ، انظر كم من صنوف

الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى ! لقد يحدث أحياناً إذا مامشى الإنسان خلال الغابة متريضاً ، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما سمع هناك من لغات ، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وآكلة اللحوم والطير . إن الإنسان ليحسُّ عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا الشهد بما فيه من زحمة الأحياء ، وأنه يخوف يخشاه الحيوان جميعاً ويمقتة الحيوان جميعاً مقتاً لا ينتهى . ومن يدرى فلعل يوماً يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع في دمدمة أصواتها ، وهذه الحشرات التي كأنما هي اليوم تستدر عليها عطف الإنسان، وهذه الجراثيم الضئيلة التي تنوّه بما عساها أن تصنعه ، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتهم الإنسان التهاماً بكل ما صنعتُهُ يدها وأنشأتْ ، فتنقلد الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يحول ناهباً سالباً ، وهذه الأسلحة العجيبة المصطنعة ، وهذه الأقدام التي تجوس في غير حذر !

لم يكن الصيْدُ والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادي ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر . لقد كانا ذات يوم مركز الحياة ، وهما الآن بمثابة أساسيّتها الخبيثين ، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ، فكأنما نوّدى اليوم صيْدنا بوساطة غبرنا نُنْيِيه عنا ، إذ تعوزنا جرأة القلب التي تقتل بها طرائدنا علناً في الفضاء المشكوف ؛ لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار ، بل لأنها تعاودنا في ألعاب أطفالنا — حتى الكلمة التي نطلقها اليوم على اللعب هي نفسها التي تدل على الصيد(*) وإذن فآخر ما نصل إليه في تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه فإن رأيت فخامة الفن في الكاتدرائية

(*) لفظة Game بالإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعب أيضاً . (المهرب)

أو مبنى الكابيتول ، وإن شهدت متحفاً للفن أو حفلة موسيقية ، وإن صادفت مكتبة أو جامعة ، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التي تخفى وراءها أشلاء القتال .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده في نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالاً واطراداً ، وأعنى بها حياة الرعى ، التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . إننا لانعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ - فربما كان ذلك حين أبقي الصائدون على صغار الحيوان القليل في حلبة الصيد ، حين لم يروا لها نيك الصغار حولا ولا قوة ، فساقوها إلى مقرّ سكنهم ليتخذها أطفالهم لعباً يلهون بها (٦) ، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذي يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ، وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه في مجتمعه الإنساني كأنما هو منهم ، فهو زميل ، وهو شريك في العمل والإقامة ، ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزه التناسل بين صنوف حيوانه ، فأخضعها لإشرافه ، استطاع بعدئذ من ذكر وأنثى يمسك بهما أن ينشئ لنفسه قطيعاً كاملاً ، كذلك خفّ عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة ، بأن استعملن لأطفالهن ابن الحيوان بعد سنٍ معينة ، وبهذا قلّت نسبة الوفيات في الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام ، أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطراداً ، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحدث الوجيل ، أعنى الإنسان ، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً .

وكانت المرأة أثناء ذلك في طريقها إلى أكبر كشف اقتصادي بين تلك الكشوف جميعاً ، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات ؛ فبينما

كان الرجل في صيده كانت هي تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ للتلقيط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول ؛ ففي استراليا كان العرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج في رحلات صيده ، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبندق من الشجر ، وتجمع العسل والفطر والحب والغلال التي تنبت الطيبة^(٧) ؛ ولا تزال بعض القبائل في استراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التي تنبت بالطبيعة دون أن تحاول درّس الحبوب وبذرهما ؛ ولبت هنود وادي نهر ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً^(٨) وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بذرهما في الأرض ، فهذه البدايات هي أسرار التاريخ التي سنظل نضرب حولها بمجرد الإيمان والتخمين ، لكننا نستحيل أن نعلم عنها علم اليقين ، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان في جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسقط منها حبّات وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنبتته أخبراً إلى السر العظيم الكامن في نمو النبات ، فألقى الناس من قبيلة « جوانج » البذور في الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها إلى الفضاء ، وأما أهالي « بورنيو » فكانوا يضعون الحب في حفرات يحفرونها بعصاة مدببة إذ هم سائرون عبّر الحقول^(٩) ، فكانت هذه العصاة أو « الحافرة » أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض ، وقد كان الرحالة في مدغشقر منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتشقن هذه العصى المدببة ، ووقفن في صف كأنهن الجنود ، ثم تصدر لهن إشارة البدء فيأخذن في حفر الأرض بعصيتهن ، وتقلب التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعدئذ يمضين إلى خط آخر من خطوط الحقل^(١٠) ، والمرحلة التي تلت ذلك في تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استعملت فيها الفأس في الحرث ، وذلك بأن ركّب الإنسان عظمة في طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة

لضغطها بالقدم ، فلما وصل « كونيكيوستادورس » إلى المكسيك ووجدت الأزارقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استوتتس الحيوان وطُرقت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل ، فكبرت الفأس حتى أصبحت محراثاً يضرب في الأرض أعمق مما كانت تضرب الفأس ، فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة ، بحيث تغيرت سيرة الإنسان تغيراً كاملاً ، فزَرَعَ أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل ، واستئنت أنواعاً أخرى ، وأصلح الأنواع التي كان يزرعها قبل ذاك .

وأخيراً تعلم الإنسان عن الطبيعة فن التحوط للمستقبل ، وفضيلة التبصر في العواقب(*) كما تعلم فكرة الزمن ؛ فلما لاحظ الإنسان الطيور النقارة تخزن البندق في الشجر ولاحظ النحل تخزن العسل في الخلايا ، أدرك - وربما جاء لإدراكه هذا بعد ألوف من سنين قضائها في همجية لا تعرف للحبيطة معنى - أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ؛ وكشف عن بعض السبل التي تمكنه من حفظ اللحم ، بتدخينها وبتعليقها وتبريدها ؛ وخير من ذلك في سبيل التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات واللصوص ، فكان يحتفظ في تلك الأهراء بطعام يأكله في أشهر السنة العجاف ؛ وهكذا تبين على مر الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت أجود نوعاً وأثبت اطراداً من الصيد ، فلما أن تحقق الإنسان من هذا ، سخطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التي نقلته من الحيوانية إلى المدنية - وتلك الخطوات هي الكلام والزراعة والكتابة .

ولأيجوز لك أن تتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، فكثير من القبائل - مثل الهنود الأمريكيين - جملوا في مرحلة

(*) تلاحظ الملاقة اللغوية بين الألفاظ الثلاثة التي معناها على التناوب « حيلة للمستقبل »

و « تدبير » و « تبصر » وهي بالإنجليزية Prudence و Providence و Provision

الانتقال لا يتحولون عنها ، فلبث الصيد مهنة الرجال والحراث مهنة النساء ؛
لا بل لا يكفي أن تقول عن هذا التحول إنه تم بخطواط متدرجة ، إنما يلبغى
أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه ، ولك أن تقول إن الإنسان بحرفته
للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة
القديمة ، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام
المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية ، ويمكننا أن نصور لأنفسنا
الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التي تخرجها
له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى في سبيل ذلك ما عانى من ضيق
ألمٍّ بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث
يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب في مزج
هذه الصنوف بالفاكهة والنثر واللحم والسّمك اللذين اعتادهما من قبل ؛
لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقاً لأكل غنائم الصيد ؛ وإنك
لترى الشعوب البدائية محبة للحم في طعامها إلى حد الافتراس ، حتى وإن كان
طعامهم الرئيسى في الواقع هو الغلال والخُضَر واللبن^(١١) فإذا ما صادفهم
حيوان ميّت لم يَطلُ أمد موته ، فالأرجح أن يهجموا عليه في نهم
فظيع ، وكثيرا ما يستغنون في ذلك عن عملية الطهى حتى لا يضيعوا من
وقتهم شيئاً ، فيأكلوا فريستهم نيئة ، مسرعين في ذلك ما أسعفتهم
أسنانهم القوية في تمزيقها والتهامها ، وسرعان ما تنظر فإذا الباقى أمامهم
كومة عن عظام ؛ وإننا نسمع عن قبائل بأسرها تفرح في طعامها
أسبوعاً كاملاً على حوت يلقيه البحر على الشاطئ^(١٢) ؛ وعلى الرغم
من معرفة الفوجيين للطهى فإنهم يفضلون اللحم نيئاً ، وإذا أمسكوا
بسمكة قتلوها ببعضها خلف خياشيمها ، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها ،
لا يقومون بإزائها بشيء من الإعداد إطلاقاً^(١٣) : إن الشك في أطراد موارد
الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفي
تقريباً ؛ يأكلون السمك وقنافد البحر والضفادع البحرية والبرية والفئران

كبيرها وصغيرها والعناكب والديدان والعقارب والعثة والحشرات والجراد والأساريع والضبّ والثعابين بأنواعها والكلاب والخيل و جذور النبات والقمل والبرقات وبعض الزواحف والطيور — ليس بين هذه الأنواع نوع إلا وكان في مكان ما لوناً من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية^(١٤) ، وبين القبائل فريق مَهَرّ في صيد النمل ، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات في الشمس ويخزنها لتؤكل في وليمة ، وقوم آخرون يلتقطون القمل بعضهم من رموس بعض ويأكلونه مستمتعين بما يأكلون ، وإذا ما تجمع من القمل عدد كبير أقبلوا عليه يلتهمونهم وهم يصيحون صيحات الفرح باعتباره عدواً للإنسان^(١٥) ، إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف في شيء عنها عند القرود العليا^(١٦) وجاء الكشف عن النار فحدد هذا الشهم الذي لا يفرّق بين طعام وطعام ، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد ، فطهى الطعام أذاب للإنسان مادي « السليلوز » والنشاء الموجودتين في آلاف الأصناف من النبات فتجعلانها غير قابلة للهضم إذا ما تركت فجّة على حالتها ، وأخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسي ، ولو أن الطهي بتليينه لمواد الطعام الصلبة ، قلّل من الحاجة إلى المضغ ، فبدأ فساد الأسنان الذي هو من وصمات المدنية .

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التي أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها — وهو زمي له الإنسان ، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندة وإبيريا وجماعة الهكّيت ، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادى عشر^(١٧) ؛ كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز ؛ بل قد كان الأحياء في الكنفى الأعلى يُباعون ويُشترى رجالاً ونساء وأطفالاً ، كانوا يباعون ويُشترى

علنا على اعتبار أنهم من مواد الطعام^(١٨) ، وأما في جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يباع في دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم ؛ وكذلك في بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من يقع في أيديهم من الضحايا البشرية — وخصوصاً النساء — ليولوا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير^(١٩) ؛ وكان الفويجيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن « الكلاب كان مذاقها رديئاً » كما كانوا يقولون ؛ ولما مرَّ « پير لوتى » بجزيرة تاهيتى ، أخذ رئيس كهل من رؤساء البوليزيين يشرح له طعامه فقال : « إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أُحْسِنَ شواؤه كذا مذاق الموز الناضج » ، أما الفيجيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد في ملحه عما ينبغى ، وقوى الألياف ، فالبَحَار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد في رأيهم ألا يصاح للطعام ، وعندهم أن الرجل من پولينزيا ألد طعاماً^(٢٠) .

فأصل هذه العادة ؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت — كما ظن الناس من قبل — بسبب قلة في أنواع الطعام الأخرى ، ولو كان ذلك كذلك إذن فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط في مواد الطعام الأخرى ، لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل^(٢١) وهما هى ذى الطبيعة ، أُرْسِلَ فيها البصر تَبَرَّ الدم البشرى طعاماً شهيئاً لا يُقدَّم عليه اللاعق في جزع قط ، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه يشغف عظيم ؛ ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان ، مع أنهم يكونون في غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس — يشربونه تارة باعتباره دواء ، وطوراً باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد ، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى الشارب القوة الحيوية التى كانت للمأكل^(٢٢) . ولم يكن أحد ليشعر بشيء من الخجل في إثارة للحم البشرى ، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون في حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان ، بل إنه لمُدعاة للفخار في ميلانيزيا أن يدعو

الرئيس أصدقاه إلى أكلة يُقدَّمُ فيها إنسان مشوى ، وفي ذلك قال رئيس برازيلي فيلسوف : « ما دمتُ قد قتلْتُ عدوِّي ، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارة لا يفيد منها أحد . . . ليس أسوأ الحالات أن يوكل الإنسان ، لكن أسوأها أن يموت ، فإذا ما قُتِلْتُ فسواء لَدَيَّ أأكلني عدو القبيلة أم تركني ؛ على أنني لا أجِدُ بين صنوف الصيد جميعاً ما هو ألد مذاقا من طعم الإنسان . والحق أنكم أيها البَيْض قد بلغتُم الغاية في حسن المذاق » (٢٣)

ومما لا يب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة ؛ فقد سبقت إلى الوجود الخطة التي اقترحها « سَوَفْت » في شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجة ، ثم أفسحت أمام الكهول مجالا وهو أن يموتوا موتا فيه نفع للآخرين ؛ أضف إلى ذلك وجهة النظر التي لا ترى في الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة ؛ ولقد كان من رأى « مونتييني » أن تعذيب الإنسان حتى يُسلم الروح تحت قناع من الورع والتقوى - كما كانت الحال في عصره - أفظع وحشية من طهيهِ وأكله بعد موته ؛ إنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر .

الفصل الثانى

أسس الصناعة

النار - الآلات البدائية - النسيج وصناعة
الخزف - البناء والنقل - التجارة وشئون المال

لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنية بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار التى لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق أو باندماج شأته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان فى ذلك إلا الذكاء الذى يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالاً ؛ ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار استخدمها على ألف صورة ، وأولها فيما نظن أن اتخذ منها شعلة يقهر بها عدوه الخفيف ، ألا وهو الظلام ، ثم استعملها بعد ذلك للتدفئة ، وبذلك استطاع أن يتحرك مبعداً عن مناطق الاستوائية إلى مناطق أقل منها إرهاباً للقوى ، وبهذا الانتقال أخذ شيئاً فشيئاً يعمر الكوكب الأرضى فيجعله مسكناً للإنسان ، ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار فى المعادن فيلينها ويطرقها ويمزجها فى هيئة أشد صلابة وأكثر مرونة مما وجدها عليه أول ما وجدها ؛ لقد بلغت النار فى أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حداً جعلها لديه إحدى المعجزات التى تستحق أن تُتخذ إلهاً وتُعبَد ، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبدية ، وجعل منها مركزاً لحياته وبيته ؛ وكان كلما انتقل من مكان إلى مكان ، حملها معه معنيّاً بها ، لا يرضى لها قط أن تخمد ؛ بل إن الرومان أنفسهم أعدموا العذراء الظاهرة عقاباً لها على إهمالها الذى كان من شأنه أن تنطق النار المقدسة .

على أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والوعى والزراعة ، ما انفك

مخترعاً ، فكان الإنسان البدائي يشحذ زناده لعله يحجب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية في وجهه من مسائل ؛ فقد كان الإنسان بادئ ذي بدء راضياً — في ظاهر الأمر — بما تقدمه له الطبيعة — كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف في سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ، فيما نظن (فبعظم التاريخ ظنٌ وبقية من إملاء الهوى) أن أخذ في تقليد آلات الحيوان وصناعاته ؛ فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمخار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبني لنفسها السدود والطيور تبني الأعشاش والعرائش ، والشمبانزي تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ؛ فحسدها على ما لها من قوة في مخالبا وأسنانها وأنيابها وقرونها ، وعلى صلابة جلودها ، فأخذ من فوره يُعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها ، بل تفوقها ، فالإنسان — كما قال فرانكلن — حيوان صانع للآلات (٢٤) لكن هذه الميزة أيضاً — كسائر ما نُضيفه على الإنسان من ميزات تُزهى بها ونفخر — إن هي إلا تفوق على الحيوان في الدرجة وحدها لا في النوع .

وكان النبات الذي يحيط بالإنسان البدائي مصدراً لكثير من الآلات ، فن الخيزران صنع الإنسان السهام والمدى والإبر والقوارير ؛ ومن فروع الشجر صنع الملاقط والماسك ؛ ومن لحاء الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب في صنوف شتى ؛ وفوق هذا كله صنع الإنسان لنفسه العصا ؛ ألا ما أبسطها اختراعاً لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزاً للقوة والسلطان ، من العصا السحرية عند عرائس الجمن وعكازة الراعي إلى عصا موسى أو هارون ، والعصا العاجية التي كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان ، والقضيب الذي يلوح به المنبتون بالغيب ثم الصولجان يمسك به القاضي أو الملك ؛ ولقد انقلبت العصا في الزراعة فأساً ، أما في الحروب فقد أصبحت حربة أو سهماً أو رمحاً أو سيفاً

أو سُئِكِيًّا^(٢٥) . وكذلك استغلَّ الإنسان المعادن وصاغ الصخر أسلحة وأدوات هي اليوم تحفة المعارض ، فصنع منها المطرقة والسندان والوعاء يغلَى فيه الماء ، والسكين ، ورأس الرمح ، والمنشار ، والصفائح ، والخوابير ، والروافع ، والفئوس ، والمثاقب ؛ وكذلك من دنيا الحيوان صنع أدواته ، فصنع المغارف ، والملاعق ، والأواني والأطباق ، والأقداح ، والمواسي ، والمشابك ؛ صنع هذا كله من قواقع الشاطئ ، كما صنع غير ذلك من الأدوات الغليظة والدقيقة من قرون الحيوان وأنيابه وأسنانه وعظامه وشعره وجلده ؛ وكان لمعظم هذه الأدوات المصنوعة مقابض من خشب شُدَّت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها ، فقد كانوا يربطون هاتيك المقابض بصفائر من الألياف أو الحبال أو عصب الحيوان ، وأحياناً كانوا يلبصقونها بغراء مصنوع من مزيج عجيب من الدماء ؛ إن مهارة الإنسان البدائي توازى على الأرجح - بل ربما تفوق - مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث ، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين ، فما ذاك إلا بفضل ما تجمع لدينا من معارف وأدوات ومواد ، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوق فكري امتازت به طبائعنا من دونهم ؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقفٍ اعترضهم ، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة ؛ فبين وسائل اللهو المحببة إلى الاسكيمو أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة ، ثم يتسابقون هناك في ابتكار الوسائل التي يواجهون بها ضرورات الحياة التي ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات^(٢٦) .

وتبدت مهارة الإنسان البدائي في فن النسيج على صورة جديرة منه بالفخر ، وهاهنا أيضاً اهتمدى الإنسان بالحيوان في طريق السير ، فنسيج العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الألياف والأوراق وتقاطعها في النسيج الطبيعي الذي تراه في الغابة ، كل ذلك أقام للإنسان نموذجاً بارزاً يحتذيه ، وإنه لنموذج بلغ من الوضوح خدأً يجعلنا نرجح أن قد كان النسيج من أول الفنون التي اصطنعها الجنس البشري ،

فنسج اللحاء والأوراق والألياف والحشائش ليصنع منها ثياباً وبُسْطاً وأغطية
لحدرانها ، ولقد أتقن صنعها في بعض المواضع بحيث لا تجد من صناعة
اليوم ما يفوقها بكل ما للصناعة اليوم من مُعِينات وآلات ؛ فذساء « ألوشيا »
قد ينفقن عاماً كاملاً في نسج ثوب واحد ؛ والهنود في أمريكا الشمالية
يصنعون البطاطين والأردية فيزخر فونها بالنهْدَّاب ويوشونها بالشعر وخيوط
القصب المصبوغة بناصع الألوان التي استقطروها من التوت ، حتى لقد قال
عنها « الأب ثيودى » Father Théodot : « إنها من النصوص بحيث
لا أظن أن ألواننا تدنومنها » (٢٧) ؛ فقد بدأ الفن حيث انتهت الطبيعة ؛
فهذه هي عظام الطيور والأسماك ، وهذه هي قصبات الخيزران الدقيقة ،
قد تناولها الإنسان بالصقل حتى جعل منها إبراً ، ثم هذه أعصاب الحيوان
قد شدّت خيوطاً بلغت من الرقة حداً تنفذ به من سمّ الخياط مهما بلغ
هذا من دقته وضيقه ؛ وكذلك جعل الإنسان من اللحاء فراشاً وقماشاً ،
وجفف جلود الحيوان ليصنع منها رداء وحذاء ، وضفر الألياف نسيجاً
قوياً ، ونسج الغصون اللينة والألباف الملونة سلالاً أجمل مما ينتجه العصر
الحديث في هذا الباب (٢٨)

وصناعة الخزف فربية الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة
عنها ، فهم يصنعون العجينة على إطار من أغصان الصنصاف المجذولة حتى
لا تحترق هذه الأغصان ، وبذلك يتصلّب الطين غلافاً لا يقبل الاشتعال ،
ويحتفظ بهيئته بعد أن يزال عنه إطار الصنصاف (٢٩) ، ربما كان هذا أول مرحلة
من مراحل طريق أخذ يتطور حتى بلغ القمة في الصناعة الخزفية المثلث المعروفة باسم
« البورسلان » أو « بورسلان » جففت أشعة الشمس قطعاً من الطين ألقيت فيها ؛ فكان
ذلك منها الإنسان إلى فن الخزف ؛ فما عليه بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة
واحدة ، وهي أن يستبدل بالشمس ناراً ، ثم يصنع لنفسه من تربة الأرض آنية
مختلفة الصور يستخدمها في شتى جوانب العيش - يستخدمها للطهي ، وللخزن ،

وللنقل ، وأخيراً يستخدمها للآبهة والزينة ، والزخارف التي كان يطبعها بأظفاره أوبالاته على الطينة وهي بعدُ عجينة طرية ، كانت إحدى صور الفن في أول نشأته ، وربما كانت كذلك في إحدى مصادر الكتابة الأولى . ومن الطين الذي جففته الشمس صنعت القبائل البدائية الآجر وأقامت الدُور ، ثم سكنت فيما يصح أن نسميه بيوتا من خزف ، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء ، التي أخذت تتطور في رقبها من الكوخ الطيني الذي سكنه « الهمجى » إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية في مباني نينوى وبابل ؛ ولقد تسلسل هذا التطور حلقة بعد حلقة يتأسس بعضها ببعض بحيث تؤدى الواحدة إلى التي تليها ؛ فبعض الشعوب البدائية — مثل الفيداويين في جزيرة سيلان — لم يكن لهم دُور للسكنى ، واکتفوا بالأرض وطاء ، والسما غطاء ؛ وبعضها — مثل أهل تسمانيا — أووا إلى جذوع الشجر الخاوية ؛ وبعضها — مثل سكان جنوبي ويلز الجديدة — اتخذوا الكهوف مسكناً ؛ وبعضها — مثل البوشمن — كانوا يتقون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر ، وأحياناً نادرة كانوا يغرزون في الأرض أحجاراً ثم يغطونها بالطحلب وفروع الشجر ؛ ومن هذه الحواجز التي أقيمت لانتقاء الريح ، خرجت الأكواخ حين أضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها ، وإنك لترى الكوخ في كل مراحل تطوره مائلاً بين سكان استراليا الأصليين ، تراه من بدايته حيث كان يقام صغيراً من الغصون والأعشاب والتراب ، ولايسع إلا شخصين أو ثلاثة ، إلى الأكواخ الكبيرة التي تؤوى ثلاثين شخصاً أو يزيد . وأما البدوى ، صائداً كان أو راعياً ، فقد آثر لنفسه خيمة في استطاعه حلها معه أينما انتهى به طرادُه لصيْدِه ؛ لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية ، مثل الهنود الأمريكيين ، استخدمت الخشب في بنائها ؛ وكذلك كانت قبيلة « إراكواه » تبني من الحطب الذي لايزال مغطى بقشوره ، أبنيه فسيحة طولها خمسمائة قدم ،

وتووى عدداً كبيراً من الأسر ؛ وأخيراً ترى أهل « أوقيانوسيا » يشيدون دُوراً حقيقية من ألواح الخشب التى اتقن قَطْعُهَا وبهذه الدُور وصل التطور فى المساكن الخشبية أكمل مراتبه (٣٠) .

لم يبق أمام الإنسان البدائى إلا ثلاث خطوات فى طريق التطور لتمام له ضرورات المدنية الاقتصادية كلها : آلات النقل ، وعمليات التجارة ، ووسائل التبادل ، إنك إذا أبصرت بالحمال يحمل المتاع من طيارة حديثة لينزله على الأرض ، فقد رأيت صورة النقل فى أول مراحلها وفى آخر مراحلها معا ؛ فلا شك أن قد كان الرجل فى بداية الأمر يحمل أثقال نفسه بنفسه ، اللهم إلا إذا تزوج (فتكون الزوجة حاملة أثقاله) بل إن الإنسان إلى يومنا هذا ، فى آسيا الجنوبية والشرقية ، تراه فى الأعم الأغلب عربة وحملاً أو كل شيء ؛ ثم اخترع الإنسان الجبال والروافع وبكترات الحجر ؛ سيطر على الحيوان واستخدمه ناقلاً لأحماله ؛ ثم صنع أول ما شهد التاريخ من جرارات حين جعل ماشيته تجر على الأرض غصونا طويلة وضع عليها متاعه (*) ؛ ثم وضع جذوعاً من الشجر تحت الحرارة كأنها عجالات ؛ ثم قطع الجذوع شرائح مستعرضة وابتكر بذلك أعظم اختراع آلى ، وهو العجلة ، لأنه وضع العجلات تحت الحرارة وصنع بذلك عربة ؛ ومن جذوع الشجر كذلك صنع الأطواف يربط الجذوع بعضها ببعض ، كما صنع الزوارق بحفر الجذوع وتفريغ أجوافها ، ولما تم له ذلك أصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل ؛ وأما على اليابس فقد شق لنفسه الطريق بادية ذى بدء عبر المروج والتلال التى لم يكن فيها طريق ؛ ثم عبث لنفسه سِكَّةً ثم رصف آخر الأمر طريقاً ، ودرس النجوم وأخذ يعدل يسير بقوافله عبر الجبال والصحراوات مهتدياً إلى طريقه بالنظر إلى السماء ؛ وطفق الإنسان يسبح بزورقه دافعاً إياه بالمجداف والشرع حتى عبر البحر فى شجاعة من جزيرة إلى جزيرة ، وأخيراً قطع

(*) الهنود الأمريكيون قد اكتفوا بهذه المرحلة ولم يستخدموا العجلات .

المحيطات لينشر ثقافته المتواضعة من قارة إلى قارة ؛ ففي هذا الصدد أيضا حُلَّتْ المشكلات الرئيسية قبل أن يبدأ التاريخ المدوّن .

ولما كانت الكفايات البشرية والموارد الطبيعية موزعة على الأرض في غير مساواة ، فقد ترى شعبا من الشعوب قادراً بفضل ما تطور لديه من استعدادات خاصة ، أو بفضل قُرْبِهِ من المواد المطلوبة ، تراه قادراً على إنتاج أشياء معينة لا يكلفه إنتاجها ما يكلف جيرانه ؛ فيمضى في صنع هذه الأشياء حتى يصنع منها أكثر من حاجته ، وعندئذ يقدم فائض إنتاجه لجيرانه في مقابل ما ينتجونه هم ، وهذا التبادل هو أصل التجارة ؛ فهنود شيبشا في كولومبيا كانوا يصدرون صخور الملح التي تكثر في بلادهم ، ويستوردون مقابل ذلك الغلال التي يستحيل استنتاجها في أرضهم القاحلة ؛ وبعض القرى التي يسكنها الهنود الأمريكيون كاد أن يتخصص في صناعة رعوس الرماح ، بينما يتخصص بعض القرى في غانة الحديد في صنع الأواني الخزفية ؛ كذلك في أفريقيا ترى من هذه القبائل ما يجعل الحدادة صناعته ، ومنها ما يجعل صناعته الزوارق أو الرماح ؛ ومثل هذا التخصيص في القبائل أو القرى كثيراً ما أكسبها اسم صناعتها ، (فيطلق عليها الحدّاد ، أو السّمّاك أو الخزّاف ...) ، ثم انتقلت هذه الأسماء مع الزمن إلى الاسر التي اختصت نفسها بهذه الصناعة أو تلك (١٣٠) ؛ والتجارة بفائض الإنتاج كانت في أول أمرها تبادلاً بالهدايا ، بل إنك لترى في أيامنا هذه التي تحسب كل شيء بالأرقام أنه قد تكون الهدية (حتى ولو كانت دعوة على طعام) مقدّمة لصفقة تجارية أو خاتمة لها ؛ ومما ييسّر التبادل الحروب والسرقات والجزية والغرامات والتعويض ، فكل هذه وسائل عملت على انتقال السلع من مكان إلى مكان ، إذ لم يكن للإنسان مندوحة عن ذلك ؛ ثم أخذ نظام للتبادل ينشأ رويداً رويداً ، فأقيمت مراكز التجارة والأسواق والمتاجر — أقيمت أول الأمر آنأ بعد آن في غير نظام ، ثم أقيمت على فترات معلومة ، ثم أصبحت دائمة — وفي هذه الأماكن جعلَ مَنْ يملك

سلعة فائضة عن حاجته يعرضها مقابل سلعة هو بحاجة إليها (٣١) .

لبثت التجارة أمداً طويلاً وهي لا تزيد عن هذا التبادل ، ومضت قرون قبل أن تخترع وسيلة متداولة ذات قيمة فتعمل على سرعة الحركة التجارية ؛ فقد كان الرجل من قبيلة « دياك » يجوز له أن يظل جائلاً في أنحاء السوق ممسكاً بيده كرة من شمع العسل ، وباحثاً عن زبون في مستطاعه أن يقبلها منه مقابل شيء يمكن أن يكون أنفع له (٣٢) ؛ وأول وسائل التبادل كانت سلعة يطلبها كل إنسان ويقبلها كل بائع ثمناً لبضاعته : كالبلح والملح والجلود والفراء والحلى والآلات والأسلحة ؛ وفي مثل هذا التبادل كانت المدّيتان تساويان زوجاً من الجوارب ، والثلاثة معاً تساوى بطانية ، والأربعة كلها تساوى بندقية ، والخمسة جميعاً تساوى جواداً ؛ كذلك كان أيّبلان صغيران يساويان مُهَرّاً ، وثمانية أمهَرٍ تساوى زوجة (٣٣) ؛ إنك لا تكاد تجد شيئاً لم يستعمله الناس استعمالهم للنقود هنا أو هناك ، وفي هذا الزمن أو ذاك : النمل وشص السمك والقواقع والؤلؤ والخرز وجوز الهند والحب والنشأ والفلفل ، وأخيراً الأغنام والخنازير والأبقار والعبيد ؛ وكانت الماشية معياراً مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة ، فهي تبيع بالبرية وهي سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها ؛ فتجد الناس الأشياء حتى عهد هومر يقومون بالماشية : فدرع « ديومديز » قيمتها تسعة رعوس من الماشية ، وعبدٌ ماهر يساوى أربعة ؛ واللفظتان اللتان استعمالهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان ، فلأولى استعمالوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia ؛ وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة ؛ بل إن الكلمة التي تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهي Capital ترد في تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها ملك ، وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التي تعنى « رأس » والمقصود رأس من الماشية ، فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل سائر الأشياء في استعمالها معياراً للقيمة ، مثال ذلك النحاس والبرونز والحديد ، وأخيراً الذهب

والفضة لأنهما يمثلان قيمة كبيرة في حيز صغير ووزن قليل ، فأصبحت وسيلة التعامل للإنسان كافة ، وهذا الانتقال من السلع المعيارية في التبادل إلى العملة المعدنية لم يتم على أيدي البدائيين في أرجح الظن ، إنما هي خطوة خطاها الناس لإبان التاريخ المدون ، فاخترعوا العملة وابتكروا الدين ، وهكذا زادوا ثروة الإنسان ورخاءه حين يسروا تبادل فيض ما ينتجون(٢٤) .

الفصل الثالث

التنظيم الاقتصادي

الشيوعية البدائية - أسباب زوالها -
أصول الملكية الخاصة - الرق - الطبقات

كانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائي ، لأنه لم يكن هناك ملك ، وبالتالي لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل في حياة الناس وتجروا وراءها ذيلها من أموال وأرباح ، ففي المراحل الأولى من التطور الاقتصادي كانت الملكية محصورة - في الأعم الأغلب - في حدود الأشياء التي يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالباً ما دفنت معه في قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التي لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوي ، فلا يكفي أن تقول إن فكرة الملكية ليست فطرية في الإنسان ، إنما يجب أن تضيف إلى ذلك أنها في مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف في أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر .

فتكاد تجد الأرض في كل الشعوب البدائية ملكاً للمجتمع بأسره ، فالهنود في أمريكا الشمالية ، وأهالي بيرو ، وقبائل الهنود التي على تل تشيتاجونج ، وأهل بورنيو ، وسكان الجزر في البحر الجنوبي ، مثل هؤلاء - فيما نرجح - كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرقونها جماعة ويقتسمون الثمار جماعة ، وفي ذلك قال هنود أوماها : « إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع » ، وكذلك لم يكن يباع الأرض معروفاً في ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض ، ولقد وجد الأستاذ ريفرز

شيوعية الأرض لا تزال قائمة في ماليزيا وپولينزيا ، ويمكنك أن تلحظها اليوم قائمة في داخل لپيريا (٣٥) ۝

وأما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشاراً ، فن المألوف عند « الهمج » أن من يملك طعاما يقتسمه مع من لا يملك منه شيئاً ؛ كما كان من المألوف كذلك للمسافرين إذا ما أرادوا طعاما أن يقفوا عند أى دار يشاءون فى طريقهم ، بل كان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها (٣٦) ، وكان إذا ما جلس إنسان فى الغابة ليأكل وجبته ، توقع منه الناس أن يصيح لمن أراد أن يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو فى تناوله ، وبغير ذاك لا يكون الصواب فى جانبه (٣٧) ؛ فلما قص « تيرنر » على رجل من « ساموا » قصة فقير فى لندن ، سأله « الهمجى » فى دهشة : « وكيف هذا ؟ أليس هناك طعام ؟ أليس له أصدقاء ؟ أليس فى المكان بيت للسكنى ؟ أين إذن نشأ هذا الفقير ؟ أليس لأصدقائه منازل » (٣٨) ؟ والجائع من الهنود ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء ، فهما يكن مورد الطعام ضئيلا عند المعطى ، فإنه لا بد أن يعطى منه هذا السائل ما دام محتاجا ؛ « فيستحيل أن تجد إنسانا يعوزه القوت مادامت الغلال موجودة فى مكان بالمدينة » (٣٩) ؛ وكانت العادة عند الهونتوت أن يقتسم من يملك أكثر من سواه هذه الزيادة حتى يتساوى الجميع ؛ وقد لاحظ الرحالة البيض أثناء رحلاتهم فى أفريقيا قبل أن تدخلها المدنية ، لاحظوا أن « الرجل الأسود » إذا ما قدمت له هدية من طعام أو غيره من الأشياء ذوات القيمة ، فإنه يقسمها بين ذويه فوراً ؛ وإذا ما أعطى المسافر بدلة لأحد هؤلاء السود ، فسرعان ما يرى الموهوب يلبس من الهبة جزءا كالقبعة مثلا ، ثم يرى صديقا له يلبس السراويل وصدبقا آخر يرتدى السترة ، وكذلك الإسكيمولا يرون للمصائد حقا شخصا فى امتلاك صيده ، بل يلزم توزيعه على أهل القرية جميعاً ، وكانت الآلات والخزون من الطعام ملكا مشاعا بين الجميع وقد وصف « كايبن كارفر » Captain Carver

هنود أمريكا الشمالية فقال « إنهم لا يعرفون من فوارق الملكية شيئاً سوى الأدوات المنزلية ... وهم أنبياء بعضهم لبعض غاية السخاء ، وإذا ما فاض عند أحدهم فيض ونقص عند الآخر ما يحتاج إليه ، فلا بد أن يسد الأول بفيضه نقص زميله » وكذلك كتب مبشر ديني يقول : « إن ما يثير الدهشة العميقة أن تراهم يعاملون بعضهم بعضاً برقة وبمعاملة قل أن تراهما عند أكثر الأمم تحضراً ؛ وذلك بغير شك يرجع إلى أن لفظي « ملكي » و « ملكك » اللتين قال عنهما القديس كريسوستم Chrysostom إنهما تخمدان في قلوبنا شعلة الإحسان وتشعلان نار الجشع ، لا يعرفهما هؤلاء الهمج » ويقول شاهد آخر : « لقد رأيتهم يقتسمون الصيد إذا كان لديهم ما يُقَسَّم ، لكني لا أذكر مثلاً واحداً لتنازعهم أو لتوجيههم النقد لطريقة التقسيم كأن يقولوا إنه غير عادل أو غير ذلك من أوجه الاعتراض ؛ إن الواحد منهم ليؤثر أن يرقد على معدته الخاوية ، على أن يُتَّهم بأنه أبي أن يعين المحتاج ... إنهم يعلنون أنفسهم أبناء أسرة واحدة كبيرة »^(١٠) .

لماذا اختفت الشيوعية البدائية حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه في شيء من التحيز 'سم المدنية' ؟ يعتقد « سَمْنَر » Sumner أنها دلت على أنها ليست بيولوجية في اتجاهها لأنها عقبة في سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفي لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوى بين الكفايات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات^(١١) ، وكتب « لوسكيل » Laskiel عن بعض القبائل الهندية في الشمال الشرقي يقول : « إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه في إنتاجه ؛ ولما كان النشيط لا يتمتع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الخامل ، فإن إنتاجهم يتل عاماً بعد عام »^(١٢) ؛ ومن رأى دارون أن المساواة التامة بين الفويجيين تقضى على كل أمل في تحضرهم^(١٣) أو ربما قال الفويجيون في ذلك إن المدنية

إذا ما اتهم فإنها ستقضى على المساواة القائمة بينهم ؛ نعم إن الشيوعية طمأنت هؤلاء الذين خلصوا بحياتهم من حوادث الفقر والجهل وما يترتب عليهما من مرض في المجتمع البدائي ، لكنها لم تنتشلهم من ذلك الفقر انتشاراً ، وأما الفردية فقد جاءت بالثراء ، لكنها كذلك جرّت معها القلق والرق ، نعم إن الفردية حركت في الممتازين من الرجال قواهم الكامنة ، لكنها كذلك نفخت نار التنافس في الحياة فأشعلتها ، وجعلت الناس يحسون الفقر إحساساً مريباً ، مع أن هذا الفقر لم يكن ليؤذى أحداً حين استوى فيه الجميع (*) .

(*) ربما كان من الأسباب التي تميل بالشيوعية إلى الظهور في بداية المدنية أنها تزدهر ازدهاراً سريعاً في أوقات الفصح التي يندمج فيها الفرد في جماعته مدفوعاً بعامل الخطر المشترك الذي يهدد الجميع بالموت جوعاً ؛ أما إذا كثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعي بين الأفراد تقل شدته ، بمقدار ما تزداد الفردية ، فكأنما تنتهي الشيوعية حين يبدأ الترف ؛ وإذا ما ازدادت حياة المجتمع تعقداً ، وأخذ تقسيم العمل بين الناس يقسمهم في أعمال مختلفة وصناعات مختلفة ، يصبح من المعتذر - وتزداد الصعوبة شيئاً فشيئاً - أن تكون كل هاتيك الخدمات التي يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع ؛ وإذن فلا مناص من أن الفريق الذي يمكنه زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التي هي أكثر أهمية ، سيأخذ من الثروة التي تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التبادل في التقسيم ؛ فكل مدنية نامية إن هي إلا متهد تتكاثر فيه رجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة في الفرص السانحة ، فنتجتان فوارق أخرى صناعية في الثروة والقوة ؛ فإذا لم يكن هناك قوانين ، أو إذا لم يكن هناك طاعة ، يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تفضل آخر الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء في أيديهم ما يخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان فتهب الثورة بغوضها التي تسعى بين الناس من جديد في فقر شامل .

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً في كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آبائهم الأولين حيث الحياة أبسط من حياتنا وأقرب إلى المساواة ؛ فإذا ما وجد الناس أنفسهم في تفاوت يفرق بينهم وفي حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضي الذي يفيضون عليه من خيالاتهم بحالاً بأن يذكروا ما كان فيه من مساواة وينسوا ما كان يسوء من فقر ؛ لهذا كله ترى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام سواء بحكم التشريع أو بمناهضته ، سواء أتم هذا التقسيم الحديد بفضل « الجراشي » في روما أو اليقويين في فرنسا أو الشيوعيين في روسيا ؛ وكذلك ترى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك بمصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدي إلى المصادرة في نهاية الأمر ؛ وبعدئذ يبدأ السباق في سبيل «

تستطيع الشيوعية أن تعيش في سهولة أكثر في مجتمعات دائمة الانتقال ، لا يزول عنها الخطر والعوز ؛ فالصائدون والرعاة ليس بهم حاجة إلى ملك يحتفظون به ، لكن لما أصبحت الزراعة صورة الحياة المستقرة ، لم يلبث الناس أن تبينوا أن العناية بالأرض تبلغ أقصاها من حيث غزارة الثمر إذا ما عاد جزاء تلك العناية إلى الأسرة التي قامت بها ؛ فتتج عن ذلك بحكم الانتخاب الطبيعي الكائن بين النظم الاجتماعية والأفكار ، كما هو كائن بين الأفراد والجماعات ينتج أن الانتقال من الصيد إلى الزراعة استتبع تحولاً من الملكية القبلية إلى الملكية الأسرة ؛ وبذلك أصبحت أكثر الوحدات الاجتماعية اقتصاداً في نفقات الإنتاج ، هي كذلك وحدة الملكية ؛ فلما أخذت الأسرة شيئاً فشيئاً تتخذ الصورة الأبوية التي تركز السلطة كلها في أكبر الذكور سناً ، أخذت الملكية كذلك بزيادة تركزها شيئاً فشيئاً في أيدي أفراد ، ثم نشأ التوريث لشخص معين عن شخص معين ؛ ولما كان كثيراً ما يحدث لفرد مغامر أن يغادر مرفأ الأسرة الآمن ، ليضرب بمغامراته خارج الحدود التي وقف عندها ذويه ، ثم ينتهي به العمل المتصل الشاق أن يستولى على قطعة أرض من الغابة أو الحرج أو المستنقع ؛ فإنه يحرص عليها حرصاً شديداً لا يسمح لغيره بانتزاعها لأنها ملكه الخاص ، حتى لتضطرب الجماعة في النهاية أن تعترف بحقه فيها ، وهذا نشأ ضرب آخر من ضروب الملكية الفردية^(١٣) ، ومثل هذا الاستيلاء على الأراضي أخذ يزداد اتساعاً حين ازداد السكان واستنفدت قوة الأرض القديمة ، حتى وصل الأمر في المجتمعات

الثروة والمتاع والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة في هيئة الهرم مرة أخرى فهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلا بد للأند من الناس أن يظفروا بالتربة الأنخصب بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة الأعلى ويأخذوا نصيب الأسد ؛ وسرعان ما تبين لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة وأن يميذوا سن القوانين أو يعيدوا شرحها بحيث تتفق وهوام ، فيأتي يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان قبل ؛ فالتاريخ الاقتصادي كله - في هذا الصدد - إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعي ؛ هو انقباض لهذا القلب الكبير ثم انبساطه ، يتمثلان في تركيز الثروة تركزاً طبعياً ثم انفجار الثروة انفجاراً طبعياً كذلك .

الأكثر تعقيداً من سواها ، إلى أن باتت المِلْكِيَّة الفرديَّة هي النظام السائد ، ثم جاء اختراع المال فساعد هذه العوامل بتيسيره لجمع الثروة ونقلها وتحويلها ، واتخذت حقوق القبيلة القديمه وتقاليدها صورة المِلْكِيَّة بمعناها الدقيق ، وأما المالك عندئذ فهو أهل القرية جماعةً أو الملك ، ثم خضعت المِلْكِيَّة لإعادة التوزيع حيناً بعد حين ، ومضى هذا العصر الذى جعل أمر المِلْكِيَّة يتذبذب فيه على هذا النحو من طرف إلى طرف ، بين النظام القديم والنظام الجديد ، وبعدئذ استقرت المِلْكِيَّة الفرديَّة الخاصة استقراراً لا شُبُهَة فيه ، وأصبحت هي النظام الاقتصادى الأساسى الذى أخذت به المجتمعات فى العصور التى دَوَّن أخبارها التاريخ .

لكن بينما كانت الزراعة تُنشئُ المدنيَّة إنشاءً ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام المِلْكِيَّة ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذى لم يكن معروفاً فى الجماعات التى كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص . لأن زوجة الصائد وأبناءه كانوا يقومون بالأعمال الدنيَّة ، وكان فيهم الكفاية لذلك ، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب فى حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدَّعة بعد الإجهاد والعناء ؛ ولعل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ - فيما نظن - من هذه العادة ، عادة الاستجمام البطيء . بعد عناء القتال والصيد ؛ ولو أنها لم تكن عندئذ كسلاً بمقدار ما كانت راحة واستجماماً ؛ فلكي تشوِّل هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطَّرد ، لا بد لك من شيئين : العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وتنظيم العمل .

وأما تنظيم العمل فيظل مُسْحَلَّ العُرَى لَدُنَّيَّ النشاط ما دام الناس يعملون لأنفسهم ؛ لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد فى النهاية على القوة والإرغام ؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهى إلى استخدام الضعفاء اجتماعياً بواسطة الأقوياء اجتماعياً ، ولم يتنبه الظافر فى القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذى ينفعه هو الأسير الحى ، وبذلك قَلَّت

المجازر وقلّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض ، كلما زاد نظام الرق اتساعاً^(١) ،
ولإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيماً حين أُلغى عن قتل
زميله الإنسان أو أكله ، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ؛ وإنك لترى
تطوراً كهذا يتمُّ اليوم على نطاق واسع ، إذا أُلغيت الأمم الظافرة عن
القتل بالعدو المغلوب ، واكتفت باسترقاقه عن طريق التعويض الذى
تقتضيه إياه ؛ ولما استقر نظام الرق على أسسه وبرهن على نفعه ، أخذ
يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى ، فأضيف
إليهم المدينون الذين لا يؤفّون الديّن ، والمجرمون الذين يعادون
الإجرام ، هذا إلى إغارات تُشنُّ عمداً لاجتلاب الرقيق ؛ وهكذا كانت
الحرب بادئ الأمر عاملاً على نشأة الرق ، ثم أصبح الرق عاملاً على
شحنِّ الحروب .

ولعل نظام الرق حين امتدّت به القرون قد أكسب الجنس البشرى
تقاليده وعاداته من حيث العمل ، فلن تجد بيننا أحداً يقدم على عمل شاق
عسير إذا كان فى مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشيء من العقاب
البدنى أو الاقتصادى ، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به
الإنسان للقيام بالصناعة ، هذا فضلاً عن أنه عمل على تقدم المدنية بطريق
غير مباشر ، بأن زاد من الثروة فتخلّق الفراغ لفئة قليلة من الناس ، ولما
متّصّت قرون على هذا النظام ، جعل الناس ينظرون إليه كأنه نظام فطرى
لا غنى عنه ، بهذا قال أرسطو وكذلك برك القديس بولس هذا النظام
الاجتماعى الذى لا بد أن يكون قد بدا لعينيه فى عصره نظاماً قضى به الله .

هكذا أخذت الزراعة وأخذ نظام الرق ، كما أخذ تقسيم العمل وما يقتضيه
من اختلاف بين الناس ، أخذ كل هذا يستبدل شيئاً فشيئاً بالمساواة التى كانت
قائمة فى الجماعة الطبيعية تفاوتاً وانقساماً إلى طبقات « فى الجماعة البدائية لا ترى
— على وجه العموم — فارقاً بين حرّ وعبد ، ولا تجد فيها رقاً ولا طبقات ، ثم

لاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدراً ضئيلاً^(٥) . وبالتدريج ازدادت الآلات والصناعات تعقداً ، فعمل ذلك على إخضاع الضعيف العاجز إلى مشيئة القوى الماهر ، وكان كلما ظهر اختراع جديد ، أصبح سلاحاً جديداً في أيدي الأقوياء ، فزاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلاهم لهم^(*) ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز في الفرص السانحة امتيازاً في الأملاك ، فقتسمت المجتمعات التي كانت يوماً متجانسة إلى عدد لا يحصىه النظر من طبقات وأوساط ؛ وأحسّ الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم إحساساً يؤدي إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال عصور التاريخ كأنها خيط أحمر ، فاقضى هذا النزاع بين الطبقات قيام الدولة التي لم يعد عن قيامها محيص لتنظيم تلك الطبقات ولحماية الأملاك ولشنّ الحروب وتنظيم السلام .

(*) وكذلك في عصرنا أدى سيل الاختراعات الذي نسميه بالثورة الصناعية إلى توسيع التفاوت الطبقي بين الناس .

الباب الثالث

العناصر السياسية في الحضارة

الفصل الأول

أصول الحكومة

الفريزة الاجتماعية - الفوضى البدائية - القبيلة والعشيرة - الملك - الحرب

ليس الإنسان حيواناً سياسياً عن رضى وطوعية ، فالرجل من الناس لا يتحد مع زملائه مدفوعاً برغبته بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد والظروف القاهرة ؛ فهو لا يحب المجتمع بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك نواه يتحد مع غيره من الناس لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يَجُود أداؤها بالتعاون أكثر مما يَجُود بالانفراد ، وعلى ذلك فالرجل من الناس وحشٌ في صميمه يتصدى للعالم كله تصدى العدو لأعدائه بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ؛ فلو قد جرت الأمور على ما يشتهي الإنسان المتوسط لكان الأرجح ألا تقوم للدولة قائمة ؛ بل إنك لتراه في يومنا هذا يمتد الدولة مقتناً ، ولا يفرق بين الموت وجباية الضرائب ؛ ويتحرق شوقاً لحكومة لا تحكم من أموره إلا أقلها ؛ ولو رأته يطالب بزيادة في القوانين فما ذاك إلا لأنه يعتقد أن جاره لا بد له من تلك القوانين أما هو إذا ما ترك لهواه ، فينزع إلى الفوضى التي لا يضبطها تفكير فلسفى ، ويظن أن القوانين - فيما يختص بحالته - زائدة لا حاجة إليها .

ولو نظرت إلى أبسط المجتمعات تكويناً لأوشكت ألا ترى فيها حكومة على أية صورة من الصور ، فالصائدون البدائيون لا يميلون إلى قبول التقنين إلا حين

ينضمون إلى جماعة الصيد ويستعملون لدور النشاط ؛ أما في غير هذا فترى قبيلة البوشمن تعيش عادة في أسرات معزلة بعضها عن بعض ؛ وكذلك أقزام أفريقيا وأهل استراليا الفطريين لا يقبلون التنظيم السياسى إلا مؤقتاً ، حتى إذا ما فرغت مهمته انتشروا من جديد في أسرات كل منها قائم بذاته ؛ وليس لأهل تسمانيا رؤساء ولا قوانين ولا حكومة دائمة ، والفيلديون من سكان سيلان انقسموا جماعات على أساس الروابط العائلية ، لكن لم يكن عليهم حكومة ، والكوبيون في سومطره « يعيشون بغير سلطان » وتحكم كل أسرة نفسها ؛ وقلما تجد الفويجيين في جماعات تزيد عن اثني عشر ؛ وكذلك التنجيون يجتمعون اجتماعات متفرقة لا تزيد الجماعة منها عن عشر نجمات أو ما يقرب من ذلك ، ولا يزيد « الحشد » من الاستراليين عن ستين شخصاً إلا في القليل النادر (١) ، ولا تلتئم هذه الجماعة ولا تتعاون إلا لأغراض خاصة مثل الصيد ، دون أن تتحد في نظام سياسى دائم .

كانت القبيلة أول صورة للنظام الاجتماعى الدائم - ونقصد بالقبيلة جماعة من أسرات ترتبط باواصر القربى ، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوخ ولها طوطم مشترك وتحكمها حكومة بعينها وفق قوانين معينة ؛ فإذا ما انحلت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة ؛ فالعشيرة هى الخطوة الثانية نحو تكوين الدولة ؛ لكن التطور في هذه السبيل كان بطيئاً إذ كان كثير من الجماعات بغير رؤساء (٢) وجماعات أخرى كثيرة لم تقبل نظام الرئاسة - فيما نظن - إلا في وقت الحرب (٣) فالديمقراطية ليست من مزايا عصرنا التى يُزهى بها على العصور السوالف ، لأنها تظهر على خير وجوها في كثير من الجماعات البدائية حيث لا تكون الحكومة القائمة عليها سوى ما يشير به رؤساء الأسر في العشيرة - ولم يُسمح قط بقيام السلطة جزافاً (٤) فالهنود من قبائل « إراكوا » و « دلاوير » لم يعترفوا بشيء من القوانين أو الضوابط خارج نطاق النظام

الطبيعى الذى تقضى به الأسرة أو العشيرة ؛ ولم يتمتع رؤسائهم إلا بسلطة متواضعة فى مقدور شيوخ العشيرة أن ينسخوها فى أى وقت شاعوا ؛ وكان يقوم على هنود «أوماها» «مجلس السبعة» الذى يظل أعضاؤه يتشاورون فى الأمر حتى يصلوا إلى إجماع فى رأى ؛ فإذا أضفت إلى هذا جمعية الأراكوا المشهورة ، التى تم فيها الاتفاق بين قبائل كثيرة ، فارتبطت القبائل بما اتفقت عليه من عهود فى حفظ السلام ، لم تجد هوة محيقة تفصل بين هؤلاء «الهمنج» وبين الدول الحديثة التى تتعهد بنشر السلام فى جمعية الأمم تعهداً قد يخلّون به .

لكنها الحروب هى التى تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة ؛ كما أن هؤلاء جميعاً هم الذين يعودون فيخلقون الحروب ؛ ففى «ساموا» كانت للرئيس سلطة إبان الحرب ، أما فى غير ذلك فلم يكن يأبه له الناس كثيراً ؛ وقبيلة «دياك» لم تكن تعرف من الحكومة إلا ما ليرأس الأسرة على أسرته من سلطان ، فإن نشب القتال كانوا يختارون أشجع مقاتليهم فيؤاونه القيادة ويطيعونه طاعة غمياء ، حتى إذا ما فرغوا من قتالهم ، نزعوه وأرجعوه إلى عمله السابق بمعنى هذه العبارة الحرفية^(٥) ؛ وأما فى فترات السلم فقد كان أكثر الساطة والنفوذ للكهان أو رئيس السحرة ؛ فلما تطور نظام الحكم ، وأصبحت الملكية هى الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل ، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء ، وجمعت تلك الوظائف كلها فى يدها : وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن ؛ وإنك لترى الجماعات تحكمها قوتان : تحكمها الكلمة فى وقت السلم ، ويحكمها السيف إبان الشدائد ؛ وإذن فالقوة لا تعمل إلا حينما يفشل الإرشاد بالقول ؛ ولقد سبر القانون والعقائد الأسطورية جنباً إلى جنب خلال العصور ، يتعاونان معاً على حكم البشر ، أو يتعاقبان الواحد بعد الآخر ، ولم تجرؤ دولة من الدول حتى يومنا هذا أن تفصل بينهما ، ومن يدرى لعلهما يعبردان فيتحدان غدا .

ولكن كيف انتهت الحرب إلى قيام الدولة ؟ لم يكن ذلك لأن الإنسان ميال بفطرته للحروب ، فبعض الشعوب المتأخرة غاية في حب السلام ، ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوروبيون بعضهم بعضاً كأنهم الحيتان - مع أنهم يدينون جميعاً بعقيدة مسالمة واحدة - ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض ، ولذا قالوا في تمجيد أرضهم : « ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجاً وجليداً ! ما أجمل أن يكون الذهب والفضة اللذين إن كانا كامينين في صخورنا - الذهب والفضة اللذين يتكالب عليهما المسيحيون تكالبا جشعا - فإنهما يكونونان تحت غطاء كثيف من الثلج بحيث لا يستطيعون الوصول إليهما ! إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤثراً إلى سعادتنا ومنقذنا من اعتداء المعتدين » (٦) ومع ذلك فحياة البدائيين قد تخللتها حروب لا تنقطع ؛ فالصائدون كانوا يقاتلون من أجل المصائد التي لم تزل عامرة بصيدها ، كما كان الرعاة يقاتلون في سبيل المراعى الحديد من أجل قطعانهم ، والزارعون يقاتلون ليستولوا على التربة العذراء ؛ وكل هؤلاء وأولئك كانوا يقاتلون حيناً بعد حين ليثأروا لقتل ، أو لينشئوا ناشئتهم على الصلابة والنظام ، أو ليجددوا الحياة الرتيبة المملولة ، أو ليظفروا بغنيمة يسلبونها أو أسيرة يخطفونها ، وقليل ما حارب هؤلاء وأولئك من أجل الدين ؛ نعم لقد كان بينهم أنظمة وعادات تحدد القتل ، كما هي الحال بيننا - فعينوا ساعات بعينها أو أياماً أو أسابيع أو أشهراً لا يجوز للهمجي الكريم النفس أن يقتل أحداً خلاها ؛ كذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها ، وبعض الطرق لا ينبغي أن يُعتدى عليها ، وبعض الأسواق والمستشفيات لا ينشب فيها قتال ؛ ومن هذا القبيل أن عملت «جمعية الأراكوا» على قيام «السلم الأعظم» مدى ثلاثمائة عام (٧) ، لكن الحرب مع هذا كله كانت هي الأداة المختارة للاختيار الطبيعي بين الأمم والجماعات البدائية .

ولم يكن للنتائج المترتبة على الحروب نهاية تقف عندها فقد كانت عاملاً

لا يرحم في اقتلاع الشعوب الضعيفة والقضاء عليها ، ورفعت مستوى الإنسان من حيث الشجاعة والعنف والقسوة والذكاء والمهارة ؛ وحفزت الإنسان على الاختراع ، وأدّت إلى صنع آلات أصبحت فيما بعد أدوات نافعة ، وإلى اصطناع فنون للحرب سرعان ما انقلبت فنونا للسلام ؛ (فكم من السكك الحديدية اليوم تبدأ على أنها جزء من خطة القتال ، ثم تنتهى وسيلة من وسائل التجارة !) وفوق هذا كله عملت الحرب على انحلال الشيوعية والفوضى اللذين سادا الجماعات البدائية وأدخلت في الحياة نظاما وقانونا ، وأدت إلى استرقاق الأسرى وإخضاع الطبقات وقيام الحكومات ؛ فالدولة أمُّها المائكية وأبوها القتال .

الفصل الثاني

الدولة

باعتبارها تنظيماً للقوة - المجتمع للقوى - الأركان النفسية للدولة

يقول نيتشه : « إن جماعة من الوحوش الكوامر شقراء البشرة » جماعة من الغزاة السادة ، بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منطّمة ، تنقض بمخالبها الخفيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعد نظاماً يحدد أوضاعها ... ذلك هو أصل الدولة ^(٨) ، ويقول « لستير وورد » Lester Ward : « تبدأ الدولة - باعتبارها مختلفة عن النظام القبلي - بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر ^(٩) » ؛ ويقول « أوبنهايمر » Oppenheimer : « إنك ترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتال ، ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها ، ومؤسسة لها الدولة ^(١٠) » ؛ ويقول « راتسنهوفر » Tatzenhofer « العنف هو الأداة التي خلقت الدولة ^(١١) » ويقول « جيمبلوفش » Gumplawicz « إن الدولة نتيجة الغزو ، هي قيام الظافرين طبقة حاكمة على المهزومين ^(١٢) . ويقول « سمنر » Sumner « إن الدولة نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسند من القوة ^(١٣) » .

وهذا الإخضاع العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة ، من قبيلة من الصائدين والرعاة ^(١٤) لأن الزراعة تعلم الناس الأساليب المسالمة ، وتروضهم على حياة رتيبة لا يختلف يومها عن أمسها ، وتنهكهم بيوم طويل من عمل مجهد ؛ مثل هؤلاء الناس يجمعون ثروة ، لكنهم ينسون فنون الحرب ومشاعرها ؛ أما الصائد وأما الراعي ، وقد ألفا الخطر ومهّرا في القتل ، فإنهما ينظران إلى الحرب

كأنها ضرب آخر من مطاردة الصيد ، لا تكاد تزيد عن المطاردة في خطرها ؛ فإذا نصب معين الغابات ولم يتعد يدهم بما شتهون من صيد ، أو إذا ما قلّت قطعانهم بسبب إضمحلال المراعى : فإن رجال الصيد والرعى عندئذ ينظرون بعين الحسد إلى حقول القرية بما تحوى من ثمار ، وسرعان ما ينتحلون تبريراً للهجوم شأنهم في ذلك شأن المحدثين في استسهال هذا الانتحال ؛ ثم يغزون فيغلبون فيسترقون فيحكمون(*) الدولة مرحلة متأخرة في سلم التطور لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدوّن ، لأن قيام الدولة يقتضى تغيراً في مبدأ التنظيم الاجتماعى من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لدوى القرى كما كانت القاعدة السائدة في المجتمعات البدائية ، وإنما يكون نظام السيطرة في أنجح حالاته إذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة ، بعضها ببعض برباط يفيدها من نظام وتجارة ؛ وحتى وهو في هذه الحالة تراه لا يدوم طويلاً إلا في القليل النادر ، اللهم إلا إن كان التقدم في الاختراع قد زاد من قوة القوى بأن وضع في يديه أدوات وأسلحة تمكنه من كبت الثورة إذا اشتعلت ؛ وفي حالة السيطرة الدائمة ترى مبدأ التسلط يميل إلى إخفاء نفسه حتى ليكاد يدس نفسه في ثنايا اللاشعور ؛ فلما ثار الفرنسيون سنة ١٧٨٩ أوشكوا ألا يتبينوا — حتى ذكرهم بالحقيقة كاميل ديمولان Camille Desmolin — أن طبقة الأشراف كانت تحكمهم منذ ألف عام جاءتهم من ألمانيا وأخضعتهم لسلطانها بالقوة ؛ حقاً إن الزمن ليخلع على كل شيء مسحة من قدسية ، حتى أخبث السرقات حين أن يبدو في أيدي أحفاد اللص الذى سرق ، ملكاً مقدساً لا يجوز عليه

(*) هذا القانون ينطبق على الجماعة الأولى وحدها ، لأنه حين تعمق ظروف الحياة الاجتماعية ، يتدخل في الأمر عوامل أخرى هي التي تحدد الموقف : كازدياد الثروة وجودة السلاح والتفوق في الدكاء ، فصر لم ينفذها الهكسوس والآثيوبيون والعرب والأتراك فحسب موكلهم من البدو — بل غزتها كذلك مدنات مستقرة من أشور وفارس واليونان وروما وإنجلترا — وأران هذه الأمم لم تغزها إلى حين انقلبت صائدة بدوية على نطاق الاستعمار الواسع .

اعتداء ؛ إن كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعالم .

والمواطن في ذلك على صواب ، فهما تكن بداية الدولة فسرعان ما تصبح دعامة لا غنى عنها للنظام ، لأنه إذا ما ربطت التجارة طائفة من القبائل والعشائر ، نشأت بين الناس علاقات لا تعتمد على القرابة بل تعتمد على ما بين الناس من اتصال ، وإذن فلا بد . لمثل هذه العلاقة من أساس للتنظيم يُصطنع لها اصطناعا ، ونستطيع أن نسوق مجتمع القرية مثلا لذلك : فالقرية هي التي حلت محل القبيلة والعشيرة وأصبحت هي صورة التنظيم الاجتماعي الخلى ؛ فأقامت لنفسها حكومة بسيطة تكاد تكون ديمقراطية ، حكومة قوامها مناطق صغيرة يجتمع عندها رؤساء الأسر ؛ لكن مجرد وجود هذه الجماعات وكثرة عددها ، استلزم تدخل قوة خارجية تنظم ما بينها من علاقات ، وتنسجها جزءا من شبكة اقتصادية أوسع ، والدولة هي التي سَدَّت هذه الحاجة مهما يكن فيها مما يخيف ويُزعج أول أمرها ؛ لأنها لم تعد قوة منظّمة وكفى ، بل أصبحت كذلك أداة توائم بين مصالح مئات الجماعات المتضاربة التي منها يتألف المجتمع في صورته المركبة ، ولما تم للدولة ذلك مَدَّت حبالها من سلطان وقانون وأخذت توسع نطاقها شيئا فشيئا ؛ وعلى الرغم من أنها صيررت الحرب الخارجية أكثر تخريبا مما كانت قبل تكوينها ، إلا أنها استطاعت أن توسع السلام الداخلي وتثبت أركانها ؛ ولك أن تعرف الدولة بأنها سلام في الداخل استعدادا للحرب في الخارج ؛ ولم يلبث الناس أن يتبينوا أن دفع الضرائب للدولة خير لهم من القتال بعضهم مع بعض ، خير لهم أن يدفعوا الجزية للصالح العظيم من أن يدفعوا الرشوة للجميع ، وإذا أردت أن تعلم ماذا عسى أن يقع في مثل هذا المجتمع إذا خلا من الحاكم لفترة من الزمن ؛ فانظر ماذا تصنع جماعة « الباجندا » التي اضطرت كل رجل فيها حين مات الملك أن يسلم نفسه ،

لأن الخارجين على القانون أنشبو أظفار الفوضى والقتل والنهب أرجاء البلاد جميعاً^(١٥) ؛ وقد صدق « سينسر » حين قال : « إنه بغير حكم أوتوقراطي كان يستحيل على تطور المجتمع أن يبدأ مراحلها »^(١٦) .

على أن الدولة التي تعتمد على القوة وحدها سرعان ما يتقوض بناؤها ، لأن الناس وإن يكونوا بطبعهم أغراراً ، فهم كذلك بطبعهم ذوو عناد ، والقوة مثل الضرائب تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ، ومن هنا لجأت الدولة — لكي تبقى على نفسها — إلى أدوات كثيرة تستخدمها وتصطنعها في بث تعاليمها — كالأسرة والكنيسة والمدرسة — حتى تنبذ في نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ؛ ولقد أغناها هذا التنشيط عن مئات من رجال الشرطة ، وهياً الرأي العام للتماسك في طاعة وانصياع ، فمثل هذا التماسك لا بد منه في حالة الحرب ؛ وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحول سيادتها التي فرضتها على الناس فرضاً بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تُبَلِّغ سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام من جهة أخرى وهي تعترف بحقوق « الرعية »^(*) اعترافاً تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة .

(*) الكلمة بالإنجليزية Subject وفيها معنى الخضوع ، ولذلك كتب المؤلف هامشاً يقول : لاحظ كيف تكشف هذه الكلمة عن أصل الدولة . (المعرب)

الفصل الثالث

القانون

انعدام القانون - القانون والعادة - الثأر - النمرات

المحاكم - المحنة - المبارزة - العقاب الحرية البدائية

يأتى القانون مصاحباً للملكية والزواج والحكومة ؛ فأحط المجتمعات تُدبّر أمرها بغير قانون ؛ يقول « ألفرد رسل ولاس » : « لقد عشت مع جماعات الممج في أمريكا الجنوبية وفي الشرق ، ولم أجد بينهم قانون ولا محاكم سوى الرأى العام الذى يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً ، فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً ، فالاعتداء على هذه الحقوق ينذر وقوعه أو يستحيل ، إن الناس جميعاً فى مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً » (١٧) ؛ وكذلك كتب « هرمان ملفيل » Herman Melville شيئاً كهذا عن أهل جزيرة ماركساس Marquesas فقال : « أثناء وجودى بين قبيلة « التايبي » Types لم يُقدّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ؛ وسار كل شئ فى الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة لا تجد لها مثيلاً فى الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها خيرها وأصفها وأتقها ؛ وإن فى هذا القول منى لجرأة أستبيحها لأنه قول الصدق » (١٨) ؛ ولقد أقامت حكومة الروسيا القديمة دوراً للمحاكم فى جزر ألوشيا لكنها لم تصنع شيئاً قط مدى خمسين عاماً ، ويقول « برنتن » Printon : « كانت الجرائم والاعتداءات فى قبيلة إراكوا من القلة فى ظل نظامهم الاجتماعى بحيث تكاد لا تجد ما يبرر أن تقول إن لهم قانوناً للعقوبات » (١٩) ، هذه هى الظروف المثالية أو ربما كانت صورتها المثالية من خلقنا نحن - التى يتمنى الفوضويون عودتها

لكن هذه الصورة يجب أن تعدّل بعض التعديل ؛ فالجماعات الفطرية تتمتع بحرية نسبية من قيود القانون ، أولاً لأنها محكومة بعادات هي في صرامتها وفي استحالة الخروج عليها كأي قانون ، وثانياً لأن جراثيم العنف في أول الأمر تعتبر مسائل خاصة يُقتضى فيها بالتأثر الشخصى الذى تُسْفَح فيه الدماء .

إن التقاليد لتكون أساساً ثابتاً مكيناً تراه مستقراً تحت الظواهر الاجتماعية كلها ؛ فهي بمثابة الصخرة الراسخة في أسفل البناء ، وقوامها ألوان الفكر وضروب الفعل التى خلج عليها مرُّ الزمان هالة من تقديس ، وهي تُحمِدُ المجتمع بشيء من الثبات والنظام إذا ما انتفى القانون أو تغير أو اضطرب ؛ فالتقاليد فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيه من استقرار للنوع البشرى ، كما تشبه العادات بالقياس إلى الفرد الواحد ؛ والتقاليد هي الأطرَاد المكرور الذى يحفظ للناس عقولهم في رعو سهم لأنه إذا لم تكن لدى الإنسان هذه القنوات التى ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقاً لا شعورياً يسيراً ، لاضطر العقل أن يتردد لإزاء كل شيء وسرعان ما يلوذ بالحنون مهرباً ؛ والغرائز والعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية كلها تتحدد وفق قانون اقتصادى يستغنى بالقليل عن الكثير ، لأن العمل الآلى هو أنسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجى إذا تكرر ، أو للموقف المعين إذا تجدد حدوثه ؛ أما التفكير الأصيل والتجديد في السلوك فهو اضطراب في مجرى الأطرَاد ، ولا يستطيعه الإنسان إلا في الحالات التى يريد فيها أن يغيّر من سلوكه المألوف بحيث تلائم الموقف الذى يحيط به ، أو في الحالات التى يأمل فيها أن يكافأ على تجديده وتفكيره كسباً موفوراً .

فلذا أضيف إلى هذا الأساس الطبيعى وهو التقاليد ، تأمين يأتيه من السماء عن طريق الدين ، وأصبحت تقاليد أبائنا هي كذلك ما تريده لنا الآلهة من سلوك ، عندئذ تصبح التقاليد أقوى من القانون ، ويبعد الإنسان عن حريته البدائية بعداً جوهرياً ؛ إنك إذا جاوزت حدود القانون فقد كسبت إعجاب نصف

الناس الذين يحسدون في أعماق نفوسهم كل من يستطيع أن يتغلب بذكائه على هذا العدو القديم ؛ أما إذا تجاوزت حدود التقاليد فأنت حين أن تصطدم بمقت الجميع لأن التقاليد تنشأ من الناس أنفسهم ، بينما يفرض عليهم القانون فرضاً من أعلى ؛ القانون عادة مرسوم قضى به السلطان ، أما التقاليد فهي الانتخاب الطبيعي لألوان السلوك التي ثبتت صلاحيتها في خبرة المجتمع ، والقانون يأخذ في حلوله محل التقاليد حين تحل الدولة محل الأسرة والقبيلة والعشيرة والمجتمع القروى ، وكلها أنظمة طبيعية ؛ ثم يتم حلول القانون محل التقاليد حين تظهر الكتابة ، وتندرج القوانين في انتقائها من تشريع يهبط إلى الخلف عن طريق ذاكرات الشيوخ والكهنة ، إلى نظام تشريعى صريح مكتوب على ألواح ، لكن حلول القانون محل التقاليد لم يكمل في يوم من الأيام ، وستظل التقاليد حتى النهاية هي القوة الكامنة وراء القانون حين يقرر الإنسان أى نوع من السلوك ينبغي أن يسلك ، وحين يحكم على أنواع السلوك بالخير والشر ؛ ستظل التقاليد حتى النهاية هي القوة الكامنة وراء العرش ، « هي الحكم الأخير الذى يقضى في حياة الإنسان » .

وأول المراحل في تطور القانون أخذ الإنسان لنفسه بالتأثر فيقول الرجل من البدائيين : « إن الثأر ثأرى وسأردّ عن نفسى ما لحقّ بي » ، وكل فرد من القبائل الهندية التى تسكن « كاليفورنيا السفلى » هو لنفسه الشرطى وهو الذى يقيم لنفسه ميزان العدل بما تسعفه قوته من الثأر ؛ ففي مجتمعات بدائية كثيرة إذا حدث لشخص « ا » أن اغتال شخصاً آخر هو « ب » كانت النتيجة أن يُقتل « ا » على يد ابن « ب » أو صديقه . ولترمز له بالحرف « ح » ، ثم يُقتل هذا الابن أو الصديق على يد شخص رابع هو « د » يكون ابن « ا » أو صديقه وهكذا حتى تنتهى أحرف الهجاء ، وإنك ترى أمثلة للثأر في أئني العائلات الأمريكية دماً في يومنا هذا ، ولقد امتد الثأر ما امتد القانون نفسه في عصور

التاريخ ، وهو يظهر في « القصاص » المذكور في القانون الروماني ؛ والقصاص يلعب دوراً كبيراً في تشريع حمورابي ، وتراه في أمر « موسى » بأن تكون « العين بالعين والسن بالسن » وهو ما يزال كامناً وراء الكثرة الغالبة من العقوبات القضائية حتى اليوم .

والخطوة الثانية نحو القانون والمدنية من حيث التصرف لإزاء الجريمة ، هي الأخذ بالتعويض بدل الثأر ، فكثيراً جداً ما استعمل الرئيس سلطته أو نفوذه لكي يحافظ على حُسن العلاقات بين أفراد جماعته - ليحمل الأسرة الراغبة في الأخذ بالثأر على أن تستبدل بالدم المطلوب ذهباً أو متاعاً ؛ ثم ما هو إلا أن نشأت « تعزيفة » قانونية ، تحدّد كم من المال ينبغي أن يدفع ثمناً للعين وكم للسن وكم للذراع وكم للحياة ، وقد توسع حمورابي في تشريعه على هذا الأساس ؛ وقد كان أهل الحبشة غاية في الدقة في العقوبة بالقصاص بحيث إذا سقط صبي من أعلى الشجرة على زميله وقتله ، فإن القاضي يحكم بأن ترسل الأم النكلى ابناً آخر من أبنائها ليسقط من أعلى الشجرة على عنق الصبي الذي اقترف الذنب أول مرة (٢١) ، والعقوبات التي تُفدّر في حالة التعويض . قد تختلف باختلاف جنس المعتدى والمعتدى عليه ، وعمره ومنزلته ، فالفيجيون - مثلاً - يعتبرون السرقة الطفيفة بأنها إنسان من سواد الناس ، أشنع إجراماً من القتل يقتّره الرئيس (٢٢) وهذا ما حدث طوال تاريخ القانون ، ففداحة الجريمة كانت دائماً تقل بعلو منزلة المجرم (*) ولما كانت هذه الغرامات أو التعويضات التي تدفع اجتناباً للثأر ، تتطلب تقديراً للجريمة وللتعويض بحيث يتلاءمان ، اتخذت خطوة ثالثة نحو القانون ، وهي قيام المحاكم ، حيث كان الرؤساء أو الكهنة أو الشيوخ يجلسون مجلس القضاة ليقضوا فيما ينشب بين الناس من خلاف ، ولم تكن هذه المحاكم

(*) يجوز لنا أن نستثني من ذلك البراهما الذين اقتضاهم تشريع مانو أن تتحملوا عقوبة أصغر مما تنزل بأفراد الطبقات الدنيا على نفس الجريمة لكن هذا القانون لم يدخل به فعلاً .

دائماً مجالس تقضى كما يقضى القضاة ، بل كثيراً ما كانت مجالس لإصلاح ذات البين ، فكانت تصل بالمتخاصمين إلى حل يرضيهما معاً بصورة ودّية(*) ؛ ولبث الالتجاء إلى المحاكم اختياريًا لدى كثير من الشعوب منذ قرون طوال ، وكان المعتدى عليه إذا لم يرضه الحكم الصادر في شأنه ، يباح له أن يأخذ ثأره بيده (٢٢) .

وفي حالات كثيرة كان البتُّ في أمر الخصومات يتم في صورة عراك يجرى على رأى من الناس بين المتخاصمين ، وكان هذا العراك يختلف في مدى إراقة الدماء ، من مباراة في الملاكمة لا يترتب عليها شيء من الأذى - كما هي الحال بين الأسكيمو الحكماء - إلى مبارزة تنتهى بالموت ؛ وكثيراً ما لجأ البدائيون إلى اصطباع الخنة في فضِّ مشكلاتهم ، غير أنهم لم يقيموها على أساس النظرية التي سادت في القرون الوسطى بأن الله سيكشف عن الجرم عن طريق الخنة بقدر ما أقاموها على أساس من أمل بأن الخنة مهما بلغت من بعدها عن العدل ، ستختم نزاعاً قد تضطرب له القليلة أجيالاً عدة إذا لم يلجأ في فضِّه إلى الخنة ؛ ومن أمثلة ذلك أن المتهمَّ والمتهمَّ كليهما يطلب إليهما أن يختار كل منهما صحيفة طعام من بين صحفتين إحداهما مسمومة ، وقد ينتهى هذا الاختيار بأن يأخذ الصحيفة المسمومة من هو برىء (والعادة ألا يكون أثر السم مما يستحيل الخلاص منه) لكن الخصومة تنتهى بهذا ، ما دام الفريقان يعتقدان في غير إرغام بعدالة مبدأ الخنة ؛ وقد كانت العادة عند بعض القبائل أن المذنب إذا اعترف بذنبه منذ ساقه للمعتدى عليه ليطعنها برمح ؛ أو يُطلب إلى المتهمَّ أن يصمد للرمح يقذفه بها متهموه ، فإذا أخطأته الرماح جميعاً ، أعلنت براءته ، أما إذا أصابه ولورمح واحد ، حكم بإدانته وفُضَّ الخلاف (٢٣)

وهكذا هبط مبدأ الخنة خلال العصور ، بادئاً من تلك الصور البدائية إلى

(٢٢) بعض المدن الحديثة جداً تحاول اليوم أن تحيي هذا النظام القديم الذى يوفر الوقت .

قوانين موسى وحمورابي ثم إلى العصور الوسطى ؛ والمبارزة ضرب من ضروب المحنة ، وقد ظن المؤرخون أنها قد انقضى عهدها ، لكنها في طريقها إلى العودة من جديد في أيامنا هذه ، وهكذا ترى الفارق بين الإنسان البدائي والإنسان الحديث ضيقاً صغيراً في بعض جوانب الحياة ، وإن تاريخ المدنية لقصير .

ورابع الخطوات التي خطاها القانون في تطوره ، هي أن تعهد الرئيس أو تعهدت الدولة أن يحول دون الاعتداء وأن يُنزل العقاب بالمعتدى ؛ وليس بين فض النزاع وإنزال العقاب بالمعتدين وبين محاولة اتقاء وقوع النزاع إلا خطوة واحدة ؛ وهذا لم يَعهُدْ الرئيس قاضياً وكفى ، بل أصبح إلى جانب ذلك مشرعاً يسن القوانين ، وأضيفت إلى مجموعة القوانين العامة الشائعة بين الناس ، والتي استمدوها من تقاليدهم مجموعة أخرى من « القوانين الوضعية » التي مصدرها مراسيم الحكومية ؛ ففي الحالة الأولى تصعد القوانين من أسفل ، وفي الحالة الثانية تهبط على الناس من أعلى ؛ وفي كلتا الحالتين ترى القوانين مصطبغة بمسحة السلف الغابر ، وتشتم فيها رائحة الأخذ بالتأثر الذي جاءت تلك القوانين بديلاً له ؛ لقد كان العقاب في الجماعات البدائية قاسياً^(٢٤) لأن تلك الجماعات لم تكن آمنة على حياتها ، ولذلك ترى صرامة العقاب تقل كلما ازداد النظام الاجتماعي قراراً .

وتستطيع القول بصفة عامة إن « حقوق » الفرد في المجتمع الفطري أقل منها في حالة المدنية ؛ فأينما وجهت النظر وجدت الإنسان يولد مكبلاً بالأغلال : أغلال الوراثة والبيئة والتقاليد والقانون ، والفرد في الجماعة البدائية يتحرك في شبكة من القوانين التي تبلغ بصرامتها وتفصيلاتها حداً يجاوز المعقول ، فألف تحريم يحدد سلوكه وألف إرهاب يشل إرادته ؛ إن أهل زيلنده الجديدة كانوا فيما يبدو للعين يعيشون بغير قانون ، لكنهم في حقيقة أمرهم كانت التقاليد تتحكم في كل مظهر من مظاهر حياتهم ؛ كذلك أهل البنغال تسيرهم التقاليد التي لا قبل لهم بتغييرها أو معارضتها ، فحدد لهم طريقة الجلوس والقيام والوقوف والمشى والأكل والشرب (٥ - ج ١ - مجلد ١)

والنوم ؛ فالفرد أوشك ألا يكون في عرفهم كائناً مستقلاً بذاته في البيئة
القطرية ، ولم يكن يتمتع بالوجود الحق إلا الأسرة وإلا القبيلة والعشيرة
والمجتمع القروى ، فهذه الهيئات هي التي تملك الأرض أو تباشر السلطان ، ولم
يصبح للفرد وجود واقعى متميز من وجود مجموعته إلا بعد أن ظهرت الملكية
الخاصة التي هيأت له سلطاناً اقتصادياً ، وبعد أن ظهرت الدولة التي اعترفت
له بوجود قانونى وحقوق محددة (٢٥) ؛ إن الحقوق لا تأتينا من الطبيعة ،
لأن الطبيعة لا تعرف من الحقوق إلا الدهاء والقوة ؛ إنما الحقوق مزايا
منحتها الجماعة للأفراد على اعتبار أنها تؤدى إلى الخير العام ؛ ولذا فالحرية
تُعرفُ اقتضاه اطمئنان الحياة ، والفرد الحر ثمرة أنتجتها المدنية ،
وعلاوةً مُتميّزٌها .

الفصل الرابع

الأسرة

وظيفتها في المدفئة - موازنة القبيلة والأسرة - نمو العناية الأبوية -
عدم أهمية الوالد - انفصال الجنسين - حق الأمومة - منزلة المرأة
- وظائفها - أعمالها الاقتصادية - الأسرة الأبوية - إخضاع المرأة

لما كانت الحاجات الأساسية للإنسان هي الجوع والحب ، كانت الوظائف الرئيسية للتنظيم الاجتماعي هي تهيئة الموارد الاقتصادية ودوام البقاء من الوجهة البيولوجية ؛ فاقبال النسل في سلسلة من الأبناء حيوي كاتصال الطعام ؛ لهذا ترى المجتمع يضيف دائماً إلى الأنظمة الاجتماعية التي من شأنها أن تديم بقاء الإنسان في نسله ؛ ولقد لبثت القبيلة - حتى قيام الدولة قُرب بداية المدنية التاريخية بحيث أصبحت للنظام الاجتماعي مركزاً رئيسياً دائماً - لبثت القبيلة حتى ذلك العهد تتولى هذه المهمة الدقيقة ، مهمة تنظيم العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال المتعاقبة ؛ بل إنه حتى بعد قيام الدولة ، ظلت مقاليد حكومة الإنسان مستقرة في تلك الجماعة التي هي أعمق الأنظمة التاريخية جذوراً - وهي الأسرة ، إنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش في أسرات متفرقة ، حتى في مرحلة الصيد ؛ لأن ضعف الإنسان في أعضائه الفسيولوجية التي يدافع بها عن نفسه ، كان قبيهاً أن يجعل منه فريسة للكواسر التي لم تزل تجوس في مناكب الأرض ؛ فالعادة في الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوي ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء في عالم تمتلئ بجنباته بالأنياب والمخالب والجلود التي يستحيل ثقبها ، وأغلب الظن أن

قد كانت هذه هي حالة الإنسان أول أمره ، فأخذ نفسه بالتماسك في جماعة الصيد أولاً فالقبيلة ثانياً ؛ فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القربى كمبدأ للتنظيم الاجتماعي ، فقدت القبيلة مكانتها التي كانت تجعل منها قِوام المجتمع ؛ وحل محلها في أسفل البناء الأسرة ، كما حلت الدولة محلها في قمته ، وعندئذ تولت الحكومة مشكلة استتباب النظام ، بينما أخذت الأسرة على نفسها أن تعيد تنظيم الصناعة وأن تعمل على بقاء الجنس .

ليس من طبيعة الحيوانات الدنيا أن تعنى بنسلها ، لذلك كانت إنانها تقذف بيضها في كميات كبيرة ، فيعيش بعضها وينمو ، بينما كثرتها الغالبة تُلْتَهَم أو يصيبها الفساد ؛ إن معظم السمك يبيض مليون بيضة في العام ؛ وليس بين السمك إلا أنواع قليلة تبتدى شيئاً من العطف على صغارها ، ونرى في خمسين بيضة تبيضها الواحدة منها في العام عدداً يكفي أغراضها ؛ والطيور أكثر من السمك عناية بالصغار ، فيفقس الطائر كل عام من خمس بيضات إلى اثنتي عشرة كل عام ؛ وأما الحيوانات الثديية التي تدل باسمها على عنايتها بأبنائها ، فهي تسود الأرض بنسل لا يزيد عن ثلاثة أبناء في المتوسط لكل أنثى في العام الواحد^(٣٦) ؛ إن القاعدة العامة في عالم الحيوان كله هي أن خصوبة النسل وفناءه يقلان معاً كلما ازدادت عناية الأبوين بالصغار ؛ والقاعدة العامة في عالم الإنسان من أول نشأته هي أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدينة صعوداً ؛ إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسُنّت ، مكثّت النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر ، قبل أن يُقذف بهم ليعتمدوا على أنفسهم ، وكذلك قلّة المواليد تصرف الجهود البشرية إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله في عملية النسل .

ولما كان يُعهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات ، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها (ما استطعنا أن ننفيذ بأبصارنا خلال ضباب

التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل في الأسرة كانت نافهة وعارضة، بينما مهمة الأم فيها أساسية لا تعلوها مهمة أخرى ؛ والدور الفسيولوجي الذي يقوم به الذكر في التناسل ، لا يكاد يستوقف النظر في بعض القبائل الموجودة اليوم ، وربما كان الأمر كذلك في الجماعات البشرية الأولى ، شأن الرجل من الإنسان في ذلك شأن الذكر من صنوف الحيوان التي تنادى الطبيعة للتناسل فيطالب العشير عشيره ويتكاثر النسل دون أن يورق وعيهم أن يحلوا هذه العملية إلى أسباب ونتائج ؛ فسكان جزائر « تروبرياند » Trobriand لا يعززون حمل النساء إلى الاتصال بين الجنسين بل يعلونه بدخول شبح في جوف المرأة ، وإن هذا الشبح ليدخل جوفها عادة إذ هي تستحم ؛ فتقول الفتاة في ذلك « لقد عصّتي سمكة » ويقول مالمينوفسكى Malinowski : « سألت من يكون والد طفل ولدت سفاحاً ، أجابوني كلهم بجواب واحد : إنه طفل بغير والد لأن الفتاة لم تزوج ؛ فلما سألت في تعبير أصرح : من ذا اتصل بالمرأة اتصالاً فسيولوجياً فأنسكت ، لم يفهموا سؤالي . . . ولو أجابوا كان الجواب : إنه الشبح هو الذي وهبها طفلها » ؛ وكان لسكان تلك الجزيرة عقيدة غريبة وهي أن الشبح أسرع إلى دخوله امرأة أسلمت نفسها لكثير من الرجال في غير تحفظ ؛ ومع ذلك فإذا ما أراد النساء أن يجتنبن الحمل ، آثرن ألا يستحممن في البحر إذا علا مدّته ، على أن يمتنعن عن اتصالهن بالرجال (٢٧) وإنها لعقيدة ممتعة لا بد أن قد أراحت الناس من عناء كبير كلما أعقب استسلام المرأة للرجل نتيجة تسبب شيئاً من الحيرة ، وما كان ألدها عقيدة لو أنها انتحلت للأزواج كما انتحلت لعلماء الأجناس البشرية .

وأما أهل ماليزيا فقد عرفوا أن الحمل نتيجة الاتصال بين الجنسين ، لكن الفتيات اللاتي لم يتزوجن يُصررن على أن حملهن قد سببه لمن لون من الطعام أكلته (٢٨) وحتى بعد أن أدركوا وظيفة الذكر في التناسل ، كانت العلاقات الجنسية

من الاضطراب بحيث لم يكن يسيراً عليهم أن يحددوا لكل طفل أباه ؛ ونتيجة ذلك هي أن المرأة البدائية الأولى قلّما كانت تعنى بالبحث عن يكون والد طفلها ؛ إن الطفل طفلها هي ، وهي لا تنتمي إلى زوج بل إلى أبيها — أو أخيها — وإلى القبيلة ، لأنها إنما تعيش مع هؤلاء ، وهؤلاء هم كل الأقارب الذكور الذين يعرفهم الطفل^(٢٩) على أنهم ذوو قرباه ، لهذا كانت روابط العاطفة بين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفي كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ، لا يرى زوجته إلا زائراً متسراً ، وحتى في المدنية القديمة كان الأخ أعزّ عند المرأة من زوجها ، فزوجة « انتافرنيز » أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة « دارا » كذلك « انتجوننا » ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها^(٣٠) « فالفكرة القائلة بأن زوجة الرجل هي أقرب إنسان في الدنيا إلى قلبه ، فكرة حديثة نسبياً ، ثم هي فكوة لا تراها إلا في جزء صغير نسبياً من أجزاء الجنس البشري »^(٣١) .

إن العلاقة بين الوالد والأبناء في المجتمع البدائي هي من الضعيف بحيث يعيش الجنس إنسان منفصلين في عدد كبير من القبائل ؛ ففي اسراليا وغيانة البريطانية الجديدة ، وفي إفريقيا وميكرونيزنا ، وفي أسام وبورما ، وبين الأوشيين والإسكيمو والساموديين ، وهنا وهناك من أرجاء الأرض ، قد ترى إلى اليوم قبائل لا تجد فيها للحياة العائلية أثراً فالرجال يعيشون معترلين النساء ، ولا يزورونهن إلا للمما ، حتى الطعام ترى كلا من الفريقين يأكل بعيداً عن الآخر ؛ وفي شمالي پاپوا لا يجوز للرجل أن يُرى مجتمعاً بامرأة أمام الناس حتى وإن كانت تلك المرأة أم أبنائه ؛ والحياة العائلية ليست معروفة في « تاهيتي » على الإطلاق ، ومن انفصال الجنسين على هذا النحو تنشأ العلاقات السرية — عادة الاتصال بين الرجال والرجال — التي تراها في كل الأجناس البدائية ، وهي مهترّب يلوذ به الرجال في

كثير من الحالات فراراً من المرأة^(٣٢) ؛ وهذه العلاقات السرية لها شبهة في حياتنا الحاضرة وإن اختلفت في وجهها فهذه وإيدة تلك .

إذن فأبسط صور العائلة هي الأم وأبنائها تعيش بهم في كنف أمهم أو أخيها في القبيلة ؛ وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان ، التي تتكون من الأم وصغارها ، وهو كذلك نتيجة طبيعية للجهل البيولوجي الذي يتصف به الإنسان البدائي ؛ وكان لهذا النظام العائلي بديل آخر في العهد الأول ، وهو « الزواج الذي يضيف الزوج إلى أسرة زوجته » ، إذ يقضى هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرته ويعمل من أجلها أو معها في خدمة والديها ؛ فالأنساب في هذه الحالة يُقْتَسَى أثرها في جانب الإناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم ؛ حتى حق العرش أحياناً كان يهبط إلى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج^(٣٣) ؛ على أن هذا الحق الذي للأمومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل^(٣٤) ؛ لأنه حتى إن وَرَثَتِ الأم أبناءها فليس لها على ملكها هذا الذي تُورثه إلا قليل من السلطان ؛ وكل ما في الأمر أن الأم كانت وسية تعقب الأنساب ، لأنه لولا ذلك لأدّى إهمال الناس عندئذ في العلاقات الجنسية وإباحيتهم إلى انبهاام معالم الضرب^(٣٥) ، نعم إن للمرأة نفوذاً في أى نظام اجتماعي كائناً ما كان ولو إلى حد محدود ، هو نتيجة طبيعية لخطر مكانتها في المنزل ، ولأهمية وظيفتها في التصرف في الطعام ولاحتياج الرجل إليها وقدرتها على رفضه ؛ ولقد شهد التاريخ أحياناً حاكمات من النساء بين بعض قبائل أفريقيا الجنوبية ، ولم يكن في مستطاع الرئيس في جزر « بليو » أن ينجز شيئاً هاماً إلا إذا استشار مجلساً من عجائز النساء ، وكان للنساء في قبيلة « إراكوا » حق يعادل حق الرجال في إبداء الرأي وفي التصويت إذا اجتمع مجلس القبيلة^(٣٦) ؛ وكان للنساء بين هنود سنكا قوة عظيمة قد تباغ بهن حق اختيار الرئيس ، هذا كله صحيح ، لكنها حالات نادرة لا تقع إلا قليلاً ، أما في أكثر الحالات فنزلة المرأة في

المجتمعات البدائية كانت منزلة الخاضع التي تدنو من الرق ؛ فعجزها الذي يعاودها مع الحيض ، وعدم تدريبها على حمل السلاح ، واستنفاد قواها من الوجهة البيولوجية بسبب الحمل والرضاعة وتربية الأطفال ، كل ذلك عاقها في حرسها مع الرجال ، وقضى عليها أن تنزل منزلة دنيا في كل الجماعات إلا آدناها وأرقاها ؛ ولم يستتبع تقدم المدنية بالضرورة أن ترفع مكانة المرأة ، ففي اليونان أيام بركليز كتب عليها أن تكون مكانتها أقل من مكانتها بين هنود أمريكا الشمالية ؛ إن مكانة المرأة ترتفع أو تهبط تبعاً لاختلاف أهمية الرجل في القتال ، أكبر منها تبعاً لازدياد ثقافة الرجال وتقدم أخلاقهم .

كانت المرأة في مرحلة الصيد تكاد تؤدي الأعمال كلها ما عدا عملية الصيد نفسها ؛ وأما الرجل فكان يستريح مستريحاً معظم العام في شيء من الزهو بنفسه ، لقاء ما عرض نفسه لمصاعب الطراد وأخطاره ، كانت المرأة تلد الأطفال بكثرة وتربهم وتحفظ الكوخ أو الدار في حالة جيدة ، وتجمع الطعام من الغابات والحقول وتطهى وتنظف وتصنع الثياب والأحذية^(٢٧) ؛ فإذا انتقلت القبيلة من مكان لم يكن الرجل ليحمل سوى أسلحة لأنه كان مضطراً أن يكون على أهبة الاستعداد للملاقاة العدو إذا هجم ، وإذن فقد كان على النساء أن يحملن كل ما بقي من متاع ، والنساء من قبيلة « البوشمن » كن يُستخدمن خادماً وحاملات للأثقال ، فإذا تبين أنهن أضعف من أن يسايرن الركب في رحلته ، تُركبن في الطريق^(٢٨) ، وپروى أن سكان نهر ميري الأدنى حين رأوا قطعاً من الثيران ظنوا أنها زوجات الرجال البيض^(٢٩) ، وإن ما تراه بين الرجال والنساء اليوم من تفاوت في قوة البدن لم يكده يكون له وجود فيما مضى ، وهو الآن نتيجة البيئة وحدها أكثر منه أصيلاً في طبيعة المرأة والرجل : كانت المرأة إذ ذاك - لو استثنيت ما يقعدها أحياناً من عوامل بيولوجية - مساوية للرجل تقريباً في طول قامته ، وفي القدرة على الاحتمال وفي سعة الحيلة والشجاعة ؛

ولم تكن بعد قد أصبحت مجرد زينة وتحفة ، أو مجرد لعبة جنسية ، بل كانت حيواناً قوى البنية قادراً على أداء العمل الشاق مدى ساعات طويلة ، بل كانت لها القدرة - إذا دعت الضرورة - على المقاتلة حتى الموت في سبيل أبنائها وعشيرتها ؛ قال رئيس من رؤساء قبيلة « تَشِيْهَوَا » Chippewas « خلق النساء للعمل ، فالواحدة منهن في وسعها أن تَجْرَ من الأثقال أو تحمل منها ما لا يستطيعه إلا رجلان ، وهن كذلك يُقِمْنَ لنا الخيام ويصنعن الملابس ويُصْلِحْنَها ويُدْفِئُنَّنا في الليل . . . إنه ليستحيل علينا أن نرحل بغيرهن ، فهن يعملن كل شيء ولا يُكَلِّفُنَّ إلا قليلاً ؛ لأنهن ما دمن يقمن بالطهى دائماً ، فلنهن يُقَنَّعن في السنين العجاف بلعن أصابعهن » (٤٠)

إن معظم التقدم الذى أصاب الحياة الاقتصادية في المجتمع البدائى كان يُعزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل ؛ فبينما ظل الرجل قروناً مستمسكاً بأساليبه القديمة من صيد ورعى ، كانت هى تُطَوِّرُ الزراعة على مقربة من محال السكنى ، وتباشر تلك الفنون المنزلية التى أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات ؛ ومن « شجرة الصوف » - كما كان الإغريق يسمون نبات القطن - جعلت المرأة تغزل الخيط وتنسج الثياب القطنية (٤١) ؛ وهى التى - على أرجح الظن - تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء ، بل هى التى قامت بالتجارة في حالات كثيرة (٤٢) ؛ والمرأة هى التى طَوَّرَتِ الدار ، واستطاعت بالتدريج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من حيوان ، ودَرَّبته على أوضاع المجتمع وضروراته التى هى من المدنية أساسها النفسى ومِلَاطُها الذى يمسك أجزاء البناء ؛ لكن لما تقدمت الزراعة وزاد طرجه ، أخذ الجنس الأقوى يستولى على زمامها شيئاً فشيئاً (٤٣) ؛ وكذلك وجد الرجل في ازدياد تربية الماشية مصداً جديداً للقوة والثروة والاستقرار ؛ حتى الزراعة التى لا بد أن تكون قد بدتْ لعمالقة العصر القديم الأشداء عملاً بارداً ، أقبل عليها الرجل آخر الأمر بعد

أن كان يضرب جَوَّالاً في مناكب الأرض ، وبذلك انتزع الرجال من أيدي النساء زعامتهن الاقتصادية التي توفرت لهن حيناً من الدهر بسبب الزراعة ؛ وكانت المرأة قد استأنست بعض الحيوان ؛ فجاء الرجل واستخدم هذا الحيوان نفسه في الزراعة ، وبذلك تمكن من أن يحل محلها في الإشراف على زراعة الأرض ؛ هذا إلى أن استبدال المحراث بالمِعْرَقة قد تطلب شيئاً من القوة البدنية ، وبذلك مكّن للرجل أن يؤكد سيطرته على المرأة ؛ أضف إلى ذلك أن ازدياد ما يملكه الإنسان مما يمكن تحويله من مالك إلى مالك ، كالمماشية ومنتجات الأرض ، أدى إلى إخضاع المرأة للرجل إخضاعاً جنسياً ، لأن الرجل طالبها بالإخلاص له إخلاصاً يبرر له أن يورث ثروته المتجمعة إلى أبناء تزعم له المرأة أنهم أبناؤه ؛ وهكذا نفّذ الرجل بالتدريج خطته ، واعترف للأبوة في الأسرة ، وبدأت الملكية تهبط في التوريث عن طريق الرجل ، واندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة ، وأصبحت الأسرة الأبوية — أى التي يكون أكبر الرجال سناً على رأسها — هى الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والخلقية في المجتمع ؛ وانقلب الآلهة وقد كانوا قبلُ نساء في أغلبهم ، انقلبوا رجالاً ذوى لحى هم للناس بمثابة الآباء ، يحيط بهم من النساء « حريم » كالذى كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال في عزلتهم .

كان هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية — الأسرة التي يحكمها الوالد — ضربة قاضية على منزلة المرأة ؛ فقد باتت هى وأبناؤها ، فى أوجه الحياة الهامة جميعاً ، مملوكاً لآلئها أو لأخفيها الأكبر ، ثم مملوكاً لزوجها ، إنها اشترت في الزواج كما كان العبد يشترى في الأسواق سواء بسواء ؛ وهبطت ميراثا كما يهبط سائر المملك عند وفاة الزوج ، وفي بعض البلاد (مثل غاناه الجددتدة ، وهرديز الجددتدة ، وجزر سليمان ، وفيجي ، والهند وغيرها) كانت تشنق وتدفن مع زوجها الميت ، أو كان يطلب إليها أن تنحصر ، لكي تقوم على خدمته في الحياة الآخرة^(١١) ، وأصبح

للوالد الحق في أن يعامل زوجاته وبناته كما يشاء ويهوى إلى حد كبير جدا ،
فيهن ، ويبيعهن ، ويُعيرهن ، لا يحدّه في استعمال حقه هذا إلا الظروف
الاجتماعية التي تفسح المجال لآباء غيره في استعمال حقوق مثل حقه ، وبينما
احتفظ الرجل بحقه في الاتصال الجنسي خارج داره ، طولبت المرأة — في
ظل الأنظمة الأبوية — وبالعفة التامة قبل الزواج ، وبالإخلاص التام بعد
الزواج ، وهكذا نشأ لكل جنس معيار خاص يُحكم به على عمله .

إن خضوع المرأة بصفة عامة ، وقد كان موجودا في مرحلة الصيد ،
ثم ظل موجودا — في صورة أخف — خلال الفترة التي ساد فيها حق
الأمومة في الأسرة ازداد الآن صراحة وغلظة ؛ ففي روسيا القديمة ،
كان الوالد عند زواج ابنته يضربها ضربا رقيقا بسوط ، ثم يعطى السوط
للزواج (٤٥) ليبدل بذلك على أن ضربها قد نيطت به منذ اليوم يَدًا لا يزال
الشباب يجري في عروقها ؛ وحتى الهنود الأمريكيون الذين ظل حق الأمومة
سائدا فيهم لم يرتفع عنهم قط ، كانوا يعاملون نساءهم معاملة خشنة
ويكلفونهن بأقذر الأعمال ، وغالبا ما ينادونهن بلفظ الكلاب (٤٦) وحياة
المرأة في كل مكان على وجه الأرض كانت تقوّم بثمن أرخص من ثمن الرجل ،
وإذا ولدت الأمهات بنات ، فلا تقام الأفراح التي تقام عند ولادة البنين حتى
أن الأمهات أحيانا ليقتلن بناتهن الوليدات ليخلصن من الشقاء ؛ والزوجات
في فيجي يشتريهن الرجال كما يشاءون ، وغالبا ما يكون الثمن المدفوع بندقية (٤٧) ،
وفي بعض القبائل لا ينام الرجل وزوجته في مكان واحد خشية أن يُضعِفَ
نفسُ المرأة من قوة الرجل ، بل إن أهل فيجي لا يرون من المناسب أن ينام
الرجل في بيته كل ليلة ، وفي كاليدونيا الجديدة تنام المرأة في حظيرة بينما ينام
الرجل في الدار ، وفي فيجي كذلك يسمح للكلاب بالدخول في بعض المعابد ،
أما النساء فعُهرام عليهن دخول المعابد إطلاقا (٤٨) وهذا الإقصاء للمرأة
عن المجتمعات الدينية موجود في الإسلام حتى يومنا هذا ، نعم إن المرأة

بغير شك قد تمتعت في كل العصور بهذا الضرب من السيادة الذى ينشأ عن استمرار الحديث ، وقد تفلح المرأة في إختجال الرجل أو إرباكه أو هزيمته أحيانا(٤٩) لكن الرجل مع ذلك هو السيد والمرأة هى الخادمة ، فكان الرجل من قبيلة « الكفير » يشتري النساء كما يشتري الرقيق ، وإنما يشتريهن ليكنَّ له ضمان الحياة حتى مماته ، لأنه إذا حاز عدداً من الزوجات كافياً ، فسيظل ما بقي له في الحياة من سنين مستريحاً من عناء العمل ، وعليهن العمل كله ، ويعتَبِرُ بعض القبائل في الهند القديمة نساء الأسرة جزءاً من الأملاك التى تورث جنباً إلى جنب مع الحيوان الداجن(٥٠) ؛ حتى الوصية الأخيرة من وصايا « موسى » لم توضح الفرق في هذا الصدد توضيحاً ظاهراً ، وفي بلاد الزنوج الإفريقية كلها ، لا يكاد النساء يختلفن عن الرقيق إلا في كونهن مصدرأً للمتعة الجنسية إلى جانب النفع الاقتصادي ؛ ولقد كان الزواج في بدايته صورة من صور القوانين التى تضبط الملكية ، وجزءاً من التنظيم الاجتماعى الذى يدبُرُ أمر العبيد(٥١) .

الباب الرابع

العناصر الخلقية فى المدنية

لما كان المجتمع يستحيل قيامه بغير نظام ، والنظام لا يكون بغير قانون ، فلنا أن نعممها قاعدة من قواعد سير التاريخ ، بأن قوة التقاليد تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة القوانين ، كما أن قوة الغريزة تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة الأفكار ؛ وبعض القواعد لا بد منه حتى يعيش الناس بعضهم بعضاً ، وقد تختلف هذه القواعد فى الجماعات المختلفة ، لكنها ينبغى أن تكون فى جوهرها واحدة فى الجماعة الواحدة ؛ وقد تكون هذه القواعد مواضع اتفق عليها الناس أو تقاليد أو أخلاق أو قوانين ؛ فأما المواضع فهى صور من السلوك وجَدَّ الناس أنها نافعة لحياتهم ، والتقاليد مواضع قبلتها الأجيال المتعاقبة ؛ والأخلاق هى التقاليد التى ترى الجماعة ألاغنى عنها لسعادتهم وتقدمهم بعد أن تعلمت من الانتخاب الطبيعى الذى يُبقى على الصالح ويزيل الفاسد خلال ما يصادفه الناس من تحارب يُجرونها فى الحياة فيخطئون هنا وهناك ، هذه التقاليد الحيوية أو الأخلاق فى الجماعات البدائية التى لا تعرف قانوناً مكتوباً تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ؛ وتكسب النظام الاجتماعى اطراداً وثباتاً ؛ وهذه التقاليد إذا ما انقضى عليها الزمن وخلع عليها سحره شيئاً فشيئاً ، فإنها بطول تكرارها تصبح للفرد طبيعة ثانية ؛ إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار - وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقى الذى اختاره داروين ليكون أظهر فاصل يفرق بين الحيوان والإنسان^(١) والضمير فى مراحل تطوره العليا يصبح وعياً اجتماعياً - أى شعور الفرد بأنه ينتمى إلى جماعة معينة وأنه متدين لها بشيء من الولاء والاحترام ؛ وما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكل ، ثم تعادل كل جماعة مع كل أعظم فالمدنية ، بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق ؛

الفصل الأول

الزواج

معنى الزواج - أصوله البيولوجية - الشيوعية الجنسية
زواج التجربة - زواج الجماعة - زواج الفرد - تعدد
الزواج - قيمته في تحيين النسل - الزواج من غير
العشيرة - الزواج مقابل الخدمة - وبالأسر -
وبالشراء - الحب البدائي - وظيفة الزواج الاقتصادية

أول مهمة تؤديها التقاليد التي هي قوام التشريع الخلقى لجماعة من
الجماعات ، هي أن تنظم العلاقة بين الجنسين لأنها مصدر دائم للنزاع
والاعتداء وإمكان التدهور ؛ والصورة الأساسية لهذا التنظيم الجنسي هي
الزواج الذي يمكن تعريفه بأنه اتحاد العشيرين للعناية بالنسل ؛ وهو تنظيم
يختلف ويتغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى لقد اجتاز
خلال تاريخه كل صورة ممكنة وكل تجربة ممكنة ، من العناية التي كان
يبدىها البدائيون بالنسل دون أن يكون بين العشيرين اتحاد في المعيشة ، إلى
ما نراه في عصرنا الحديث من اتحاد العشيرين في المعيشة بغير نسل يعينان به .

كان الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان ؛ فبعض الطيور فيما يظهر يعيش
معيشة الأزواج التي تنسل في رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق ، وبين الغورلا
والأورانجوتان يدوم اتصال الوالدين حتى نهاية فصل الإنسال ، ولاتصالها هذا
علامات كثيرة تشبه فيه بنى الإنسان ، وكل محاولة تحاوها الأنثى في اتصالها بذكر
آخر ، يعاقبها عليها عشيرها عقابا صارما (٢) . ويقول « دى كرسپيني »
De Crespigny عن الأورانج في بورنيو « إنها تعيش في أسر : الذكر والأنثى
وصغيرهما » بقرالدكتور سافدج Dr. Savage عن الغورلا « إنه من المؤلف

أن ترى الوالدين جالسين تحت شجرة يتسليان بالفاكهة يأكلانها وبالسمر يستمران به ، بينما يأخذ أبناؤهما في القفز حولها والوثب من غصن إلى غصن في مزح وزناط ^(٣) ، ولإذن فالزواج أعمق في التاريخ من بنى الإنسان .

والمجتمعات التي تخلو من الزواج نادرة ، لكن الباحث الخبيث يستطيع أن يجد منها عدداً يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من القوضى الجنسية التي تسود الحيوان الأدنى إلى صنوف الزواج التي أخذ بها الإنسان البدائي ؛ ففي « فوتونا » Futuna و « هواي » معظم الناس لم يتزوجوا إطلاقاً ^(٤) ، وأهل « لوبو » Lubu تعاثروا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد ، ولم يكن في رموسهم فكرة الزواج ، وكذلك بعض القبائل في بورنيو كانت تعيش حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذي يربط الزوجين ، ولذلك كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالاً مما نراه بين الطيور ، ولدى بعض شعوب روسيا البدائية « كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز ، بحيث لم يكن لامرأة زوجٌ معلوم » .

ولقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا بأنهم لا يصطنعون أنظمة الزواج في حياتهم ، بل تراهم « يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملاً بغير ضابط ^(٥) » ؛ لكن هذا « التأميم للنساء » الذي يقابل الشيوعية البدائية في الأرض والطعام ، زال في مرحلة مبكرة بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا قليل ، ومع ذلك فقد لبثت بعض ذكرياته عالقة في الأذهان في صور مختلفة : في شعور كثير من الشعوب الفطرية بأن وحدانية الزوجة — التي يعرفونها بأنها احتكار رجل واحد لامرأة — يناقى الطبيعة ويخافى الأخلاق ^(٦) ، وفي الأعياد التي نقيمها على فترات معلومة ونتحلل فيها من القيود الجنسية مؤقتاً (ولا يزال هذا الشعور موجوداً بصورة ضعيفة في بعض أعيادنا) ، وفي مطالبة المرأة بأن تُسلم نفسها لأي رجل يطلبها قبل أن يُسمح لها بالزواج ^(*) — كما هي الحال في « معبد مايثلتا » Mylitta في بابل — ،

(*) راجع ذلك في الجزء الخاص ببابل في أجزاء هذا الكتاب .

وفي عادة إعاره الزوجة ، وهي عادة ضرورية بالنسبة إلى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون ، وفي حق الليلة الأولى ، وهو حق كان يتمتع به الشريف في أوائل العهد الإقطاعي في أوروبا ، وربما كان الشريف في ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو أنه يجوز للشريف أن ينفّض بكاره العروس قبل أن يؤذن للعريس بمباشرة الزواج (٦) .

ثم حلت بالتدريج محل هذه العلاقات التي لم تعرف التحديد ألوان من اتحاد الرجل والمرأة كانت بمثابة التجريب ، فعند قبيلة « أورانج ساكاي » Orang Sakai في ملقا ، كانت المرأة تعاشر كل رجل من رجال القبيلة حيناً ، حتى إذا ما أتممت الدورة بدأت من جديد (٧) ، وبين قبيلة « ياكوت » Yakuts في سيبيريا ، وقبيلة « بوتوكودو » Botocudos في جنوب أفريقيا ، والطبقات الدنيا في التبت ، وكثير غير هذه من الشعوب ، كان الزواج تجريبياً خالصاً بمعنى أن كلاً من الزوجين له الحق في فضّ العلاقة إذا شاء وبغير أن يبدي لذلك سبياً أو يطالب بالسبب ، وعند قبيلة « بوشمن » « يكنى أقل خلاف بين الزوجين لانحلال الزوجية ، ولا يلبث الزوجان أن يجد كل منهما زوجاً آخر » ، وعند قبيلة « داماترا » Damatras فيما يروى « سير فرانسز جولتسن » Sir Francis Galton — « يتبدل الزوج مرة كل أسبوع تقريباً ، وقلما استطعت أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث — من ذا كان زوجاً مؤقتاً لهذه السيدة أو تلك في وقت معين » وكذلك في قبيلة « بايلا » ينتقل النساء من رجل إلى رجل ويتتركن زوجاً لينتقلن إلى زوج آخر بمحض اختيارهن ، والفتيات اللاتي كدن لا يجاوزن العشرين ، تجد للواحدة منهن في كثير من الحالات أربعة أزواج أو خمسة كلهم أحياء (٨) وكلمة الزواج في هواي معناها في الأصل : « تجربة » (٩) ، وقد كان الزواج في تاهيتي منذ قرن حراً من القيود وبنحل لغير سبب ما دام الزوجان لم يتنسلا ، أما إن أنجبا طفلاً فلهما أن يقتلاه دون أن يقع عليهما لوم من المجتمع ،

أو هما يقومان على تربيته وبذلك يبدأ حياة دائمة الصلات ، بحيث يتعهد الرجل للمرأة أن يعوها في مقابل رعايتها للطفل ، التي أخذتها الآن على عاتقها^(١٠) .

وكتب «ماركوپولو» عن قبيلة في آسيا الوسطى ، كانت تسكن إقليم بين Peyn (وهي تعرف الآن باسم كيريا Keriya) في القرن الثالث عشر ، يقول : « إذا سافر رجل متزوج بحيث بُعداً عن بلده ليغيب في رحلته عشرين يوماً ، فلزوجته الحق - إذا شاءت - أن تزوج من رجل آخر ؛ والمبدأ صحيح كذلك بالنسبة للرجال ، فيتزوجون حيث أقاموا »^(١١) وهكذا ترى الأساليب الجديدة التي أدخلناها في زواجنا وأخلاقنا حديثاً قديمة في أصلها ؛ يقول « ليترنو » Letourneau عن الزواج : « لقد جُرِّبت كل صورة من صور الزواج ، مما يتفق مع طول بقاء المجتمعات الهمجية والوحشية ، ولا يزال بعضها اليوم قائماً لدى أجناس مختلفة ، دون أن يطوف بأذهان أهلها أية فكرة من الأفكار الخلقية التي تسود أوروبا عادة »^(١٢) ، فهناك تجارب أجريت في العلاقة بين الزوجين إلى جانب التجارب التي أجريت لاختبار مدة الزواج ؛ ففي حالات قليلة نرى « زواجاً جماعياً » بمعنى أن تزوج طائفة من رجال ينتمون إلى جماعة من طائفة من النساء تنتمين إلى جماعة أخرى ، بحيث يكون الزواج جماعياً بين الطائفتين^(١٣) ؛ وفي التبت مثلاً كانت العادة أن تزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة^(١٤) ؛ ولقد روى قيصر عادة شبيهة بهذه في بريطانيا القديمة^(١٥) وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته ، وقد شاعت عند اليهود الأقدمين وغيرهم من الشعوب القديمة^(١٦) ، وضاق لها صدر «أونان» ضيقاً شديداً .

فما الذي حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التي كان الزواج فيها أقرب شيء إلى القوضى ، زواجاً فردياً ؟

إنه مما لا شك فيه أن الشهوة الجسدية ليست هي التي دفعت الناس إلى نظام الزواج ، لأنك لا تجد في الكثرة الغالبة من الشعوب الفطرية إلا قليلاً — ذلك إن وجدت شيئاً على الإطلاق — من القيود المفروضة على العلاقات الجنسية قبل الزواج ؛ ولأن الزواج بكل ما يسببه من مضايقات نفسية وبكل ما فيه من قيود ، يستحيل عليه أن ينافس الشيوعية الجنسية في إشباعها للميول الجنسية عند الإنسان ؛ كلا وليس نظام الزواج الفردي بمهيئ في بدايته جواً لتربية الأطفال يبدو بالبداية أنه خير لتربيتهم من عناية الأم وأسرتها وعشيرتها ؛ إذن فلا بد أن يكون الدافع إلى الزواج وتطوره عوامل اقتصادية قوية الأثر ، وأرجح الظن (وهنا ينبغي أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلاً) أن هذه العوامل التي دفعت إلى نظام الزواج كانت مرتبطة بنشأة نظام الملكية .

جاء الزواج الفردي نتيجة لرغبة الرجل في أن يسترق لنفسه رقيقاً بشمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبته عن توريث ممتلكاته لأبناء غيره من الرجال ؛ وظهر من صور الزواج صورة تبيع للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فانخذلت صورة تعدد الأزواج للزوجة الواحدة — كما هي الحال في قبيلة «تودا» Todas وبعض قبائل التبت (١٧) ، وإنما تظهر هذه العادة حينما زاد عدد الرجال على عدد النساء زيادة كبيرة (١٨) ، لكنها عادة سرعان ما تنتفي على يد الرجل القوي الغلاب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشراء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه . ألا وهي تعدد الزوجات للزوج الواحد ؛ ولقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن تعدد الزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمد ابتكاراً لم يسبق إليه ، لكنه في الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال ، لأنه النظام الذي ساء العالم البدائي (١٩) وهناك من الأسباب عِدَّة عملت كلها على تعميم هذا النظام ونشره . أولها أن حياة الرجال في المجتمع الأوّل كانت أشد عنفاً وأكثر تعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت في الرجال عليه في النساء ، واطّراد

الزيادة في عدد النساء يضع أمام المرأة اختياراً بين حالتين : فلما تعددت الزوجات للرجل الواحد ، ولما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء ، لكن مثل هذه العزوبة للمرأة لا تنظر إليها بعين الرضى شعوباً تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية في الوفاة ، ولذا ترى أمثال تلك الشعوب تزدري المرأة العانس والمرأة العقيم ، وثانى هذه الأسباب أن الرجال يميلون إلى التنوع ، فالأمر كما عبر عنه زنوج أنجولا أنهم : « لم يكن في وسعهم أن يأكلوا دائماً طعاماً واحداً » ، كذلك يحب الرجال أن تكون عشيراتهم في سن الشباب ، والنساء يكتهن بسرعة في المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كنّ أحياناً يُحبّذن تعدد الزوجات ، حتى يباعدن بين فترات الولادة دون أن يُنقصنّ عند الرجل شهوته وحبّه للنسل ، وأحياناً ترى الزوجة الأولى ، وقد أهدتها عبء العمل ، تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل للأمرأة أطفالاً يزيدون من إنتاجها وراثتها^(٢٠) ، فالأبناء عند هؤلاء الناس كسب اقتصادى ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزوجة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح في رأس المال ؛ ففي الأسرة الأبوية ، لا تكون الزوجة وأبنائها إلا بمنزلة العبيد لرأس الأسرة وهو الرجل ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد ماله ؛ وقد كان الفقير يتزوج من زوجة واحدة ، لكنه كان ينظر إلى ذلك نظره إلى وصمة العار . وينتظر اليوم الذى يعلو فيه إلى المنزلة العالية التى ينزلها صاحب الزوجات الكثيرة في أعين الناس^(٢١)

ولا شك أن تعدد الزوجات لاعم حاجة المجتمع البدائى في ذلك الصدد أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال ؛ وقد كان لتعدد الزوجات فضل في تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الذى نأخذ به اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأحكمهم في العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا أقل عدد من الأبناء ، ترى العكس في ظل تعدد

الزوجات ، الذى يتيح لأقدر الرجال أن يظفروا - على الأرجح - بخير النساء ، أن ينسلوا أكثر الأبناء ، ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً ، بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ فى الزوال فى بلاد الشرق إلا فى عصرنا الحاضر ؛ لأنه قد تأمرت على زواله بعض العوامل ؛ فحياة الزراعة المستقرة حَدَّتْ من عنف الحياة التى كان يحياها الرجال وقلَّتْ من أخطارها ، فتقارب الجنسَان عدداً ؛ وفى هذه الحالة أصبح تعدد الزوجات المكشوف ، حتى فى الجماعات البدائية ، ميزة تتمتع بها الأقلية الغنية وحدها^(٢٢) أما سواد الناس فلا يجاوزون الزوجة الواحدة ؛ ثم يخففون وطأة ذلك على نفوسهم بالزنا ، بينما ترى أقلية أخرى آثرت العزوبة راضية أو كارهة ، فعادلت بهذا الامتناع ما يستولى عليه الأغنياء من زوجات كثيرات ، وكان عدد الجنسين كلما اقترب من التعادل زادت الغيرة فى الرجل على زوجته ، والحرص فى الزوجة على زوجها ؛ لأنه لما كان العدد قريباً من التساوى فى الجنسين تعذر على أقوىاء الرجال أن يعددوا زوجاتهم ، لأنهم فى مثل هذه الحالة لا يجدون كثرة من الزوجات إلا إذا اغتصبوا زوجات الآخرين أو مَنْ سيكن زوجات للآخرين ، وإلا إذا أساءوا (فى بعض الحالات) إلى زوجاتهم ؛ نقول إنه فى مثل هذه الحالة يتعذر تعدد الزوجات بحيث لا يستطيعه إلا أوسع الرجال حيلة ، هذا إلى أنه لما ازداد تراكم الثروة فى أيدي بعض الرجال ، وكره هؤلاء أن يبعثوا ثروتهم هذه فى توريث عدد كبير من الأبناء لا يصيب الواحد منهم إلا قدر ضئيل ، آثر هؤلاء أن يفرقوا بين الزوجات « فزوجة رئيسية » ومحظيات ، حتى لا يقتسم الإرث إلا أبناء الزوجة الرئيسية ، ولبت الزواج على هذه الحالة فى آسيا حتى عصرنا الذى عاصرناه بجيلنا ، ثم أصبحت الزوجة الرئيسية بالتدريج هى الزوجة الواحدة ، وأما المحظيات فقد تعرضن لإحدى حالتين ، فلما بقين خليلات وراء الستار ، وإما عدل عنهن إطلاقاً ، وذلك فضلاً عن أثر المسيحية حين دخلت

عاملاً جديداً ؛ فجعلت نظام الزوجة الواحدة في أوروبا — بدل تعدد الزوجات — هو النظام الذى يرتضيه القانون ، وهو الصورة التى تظهر فيها العلاقة الجنسية ؛ لكن نظام الزوجة الواحدة — شأنه شأن الكتابة ونظام الدولة — نظام صناعى نشأ والمدنية فى وسطى مراحلها ، وليس هو بالنظام الطبيعى الذى يتصل بالمدنية فى أصول نشأتها .

ومهما يكن أمر الصورة التى يتخذها الزواج فقد كان إجباراً بين الشعوب البدائية كلها تقريباً ، ولم يكن للرجل الأعزب منزلة فى المجتمع ، أو عهداً مساوياً لنصف رجل فحسب^(٢٣) . كذلك كان إجباراً على الرجل أن يتزوج من غير عشيرته . ولسنا ندرى إن كانت هذه العادة قد نشأت لأن العقل البدائى داخله الشك فيما يترتب على زواج الأقارب من سوء النتائج أو لأن التصاهر بين الجماعات أوجد تحالفاً سياسياً مفيداً بينها ، أو زاد هذا التحالف قوة إن كان موجوداً بالفعل ، وبهذا زاد التنظيم الاجتماعى تقدماً وقلل من أخطار الحروب ؛ أو لأن انتزاع زوجة من قبيلة أخرى قد أصبح معدوداً بين الناس من علامات الرجولة التى اكتمل نضوجها ؛ أو لأن نشأة الصبي بين قريباته يقلل من قيمته فى عينه ، وبُعْدَ القريبات عنه يزيد فى سحرهن ؛ وعلى كل حال فقد كان هذا التحديد فى اختيار الزوجة عامماً شاملاً لكل الجماعات الأولى تقريباً ؛ وعلى الرغم من أن الفراعنة والبطالسة والإنكا قد وثّقوا إلى تحطيمه بأن أقبلوا على زواج الأخ بأخته ، إلا أنه ظل قائماً بين الرومان كما يعترف به القانون الحديث ؛ وهذا التقليد لا يزال له أثره فى سلوكنا — عن شعور أو لا شعور — حتى يومنا هذا .

فكيف كان يتاح للرجل أن يظفر بزوجه من قبيلة أخرى ؟ لما كانت الأسرة التى ترأسها الأم هى النظام السائد ، كان يُطلب إلى الزوج فى كثير من الحالات أن يعيش مع عشيرة المرأة التى أراد زواجها ؛ فلما تطور نظام الأسرة الأبوية ، سمح للخطيب أن يأخذ عروسه معه إلى عشيرته ، على شرط أن يقيم

فترة معلومة قبل ذلك في خدمة أبيها ، فمثلاً خدّم يعقوب لابان في سبيل زواجه من « ليحة » و « راشيل »^(٢٤) لكن الخطيب كان أحياناً يقتضب الأمر باصطناعه للقوة الصريحة الغاشمة ، وكان من حسنات الرجل ومميزاته أن يأخذ زوجته من أهلها قسراً ، فذلك يجعل منها امّة رخيصة من جهة ، كما يستولدها عبداً من جهة أخرى ، وهي إذا ما وُلدت له هؤلاء الأطفال العبيد ، ازدادت بعبوديتها له صلةً وربطاً ؛ ومثل هذا الزواج الذي يتم بطريق الاغتصاب ، لم يكن القاعدة الشاملة ، لكنه كان يقع في العالم البدائي حيناً بعد حين ، فالنساء عند هنود أمريكا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، ولقد كان هذا السبب للنساء من الشيوخ بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم في بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة ، فلا يفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ؛ ولبث السلاف في روسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى القرن الماضي^(*)(٢٥) ؛ ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في قيام العريس بدور المقتصب لعروسة في بعض احتفالات الزواج^(٢٦) ؛ وعلى كل حال فقد كانت نتيجة طبيعية لما كان بين القبائل من حروب كادت لا تنقطع ، كما كانت بداية طبيعية للحرب الناشئة بين الجنسين التي لا تسكن بالمهادنة إلا فترات قصيرة ، ولا تنام ففتنها إلا نوماً قلقاً بغير أحلام .

فلما زادت الثروة بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة — أو مبلغاً من المال — ثمناً لابنته ، من أن يخدم عشيرة غير أهله للحصول عليها ، أو يخاطر بما عسى أن يترتب على اغتصابها من قتال وإراقة للدماء ؛ ونتيجة ذلك أن أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالدين ، هو القاعدة

(*) بطن بريفر Briffault أن الزواج بالاغتصاب كان مرحلة انتقال من نظام الأسرة التي تسودها الأم إلى النظام الأبوي في الأسرة . ذلك أن الرجل لما رفض العيش مع عشيرة زوجته اضطرها إلى العيش بين أهله^(٢٦) ، ويرى « لير » Lippert أن الزواج من امرأة غريبة عن الأسرة كان بديلاً سلمياً للزواج بالاغتصاب^(٢٧) كما تطورت المروقة بالتدريج إلى تجارة .

السائدة في المجتمعات الأولى (٢٨) وحَدَّثَتْ خلال ذلك حلقات وسطى تَمَّ فيها الانتقال ؛ فأهل مالينزيا كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، لكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا الأسرة الزوجة مبلغاً من المال ؛ كذلك عند بعض أهالي غانة الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة ، وبينما هما في محبتهما ، يرسل أصدقاؤه ليساووا أباهما في ثمنها (٢٩) ؛ وإنه لممّا ينير طريق التفكير أمامنا أن نذكر كيف يَسْهَلُ التغلب بالمال على مقاومة لوضع من الأوضاع الخلقية ؛ فيروى عن أم من قبيلة « ماورى » Maori أنها أخذت تبكي بصوت عالٍ ، وتستنزل أمر اللعنات على الشاب الذي اختطف ابنتها ، حتى جاءها هذا الشاب بهدية هي غطاء من الصوف ، فقالت ؛ « هذا كل ما أردته ، أردت أن أظفر بهذا الغطاء الصوفي فجعلتُ أصبح بالبكاء » (٣٠) ، لكن ثمن العروس كان يزيد عادة على غطاء من الصوف ، فثمنها عند الهوتنتوت ثور أو بقرة ، وعند قبيلة « كرو » Croo ثلاثة أبقار وشاة ، وعند « الكفير » يتراوح ثمنها من ست أبقار إلى ثلاثين ، حسب المنزل التي تنزلها أسرة الفتاة في المجتمع ، وبين « التوجو » Togos ثمنها ستة عشر ريالاً تدفع نقداً ، وستة ريالات تدفع عيناً (٣١)

والزواج بالشراء يسود أصتقاع أفريقيا جميعاً ، وهو النظام المألوف في الصين واليابان . وكان شائعاً في الهند القديمة وعند اليهود القدماء ، وفي أمريكا الوسطى قبل عهد كولمبس ، وفي بيرو ، بل لا تزال أمثلة منه في أوربا اليوم (٣٢) وهو تطور طبيعي لنظام الأسرة الأبوية ، لأن الوالد يملك ابنته ، وفي وسعه أن يتصرف فيها بما يراه مناسباً لا يحدّد حتمه في هذا إلا حدود ضئيلة ؛ ويعبر عن هذا هنود أورنوكو بقولهم إن الخطيب يجب عليه أن يدفع للوالد ثمن تربيته لفتاة سينتفع بها هو (٣٣) ويحدث أحياناً أن تعرض الفتاة في معرض للعرائس أمام جماعة من الرجال قد يكون منهم لها خطيب ؛ وكذلك من عادة أهل الصومال أن يُزَيَّنوا

العروس أفخر الزينة ، ويعرضوها على ظهر جواد أو ماشية على قدميها ، في جوّ يفوح بالعطور لعلها تستثير الخطّاب فيدفعوا فيها ثمناً أغلى (٣٤) وليس لدينا مدوّن واحد يدل على أن امرأة عارضت في زواجها بالشراء ، بل الأمر على نقيض ذلك ، كان النساء يفاخرن بما يدفع لهنّ ثمناً ، ويحتقرن المرأة التي تسلم نفسها في الزواج بغير ثمن (٣٥) لأنهن يعتقدن أن الزواج الذي يعقد النّحب أو اصره بغير ثمن مدفوع ، يكون فيه الزوج الشرير كاسباً كسباً عظيماً لم يدفع لقاءه شيئاً (٣٦) ومن جهة أخرى كان من المألوف أن يردّ والد العروس ما دفعه العريس هديةً أخذت تزاد قيمتها على مرّ الأيام حتى قاربت ما يدفعه العريس (٣٧) ، ثم أخذ الآباء الأغنياء يتوسعون تدريجاً في هذه الهدايا ، لكي ييسّروا لبناتهم الزواج ، حتى ظهر نظام المهر تدفعه العروس لخطيبها ، وهكذا حلّ شراء والد العروس لزوج ابنته محل شراء الخطيب لزوجته ، أو قل إن الشرائع يسيران جنباً إلى جنب (٣٨) .

في شتى هذه الصور والصنوف التي يتخذها الزواج ، لاتكاد تقع فيها على أثر من الحب والعاطفة ، نعم قد تجد حالات قليلة من زواج الحب بين قبيلة البابوا في غينا الجديدة ، وكذلك قد تجد بعض حالات الحب في غيرها من الشعوب البدائية (والنّحب هنا معناه إخلاص متبادل لا منفعة متبادلة) لكن هذه الحالات النادرة التي تصادفها لاشأناً لها بالزواج ، ففي أيام البساطة الأولى كان الرجال يتزوجون ليشتروا عملاً رخيصاً ويكسبوا أبوة مربيحة ويضمنوا وجبات منتظمة من الطعام ، يقول « لاندنر » Lander : « يحتفل أهل « ياريبا » Yariba بالزواج دون أن يثير ذلك في نفوسهم أقل اهتمام ، فتفكير الرجل في حيازة زوجة لا يزد على تفكيره في قطع سنبلة من القمح ، لأن النّحب أمر ليس له وجود (٣٩) لأنه لما كانت العلاقة الجنسية أمراً مباحاً قبل الزواج ، فإن عاطفة الرجل لا تجد من السدود ما يحتجزها ، وقلما يكون لها أثر في اختيار الزوجة ، والسبب نفسه ، أعنى تلاحق الشهوة وتنفيذها بغير فاصل من زمن ، ليس لديهم ما يبرر

أن يجلس الشاب مفكراً في طوية نفسه ، في عاطفته التي احتبست في صدره والتي من أجل احتباسها أخذت تُزيّن له الحبيب المُشْتَهَى ، مما يؤدي عادة إلى الحب العاطفي عند الشباب ؛ إن مثل هذا الحب وظهوره مرهون بالمدينة التي أقامت الأخلاقَ سدوداً أمام الشهوة ، وهذا إلى أن الثروة وازديادها قد مكّنت بعض الرجال أن ينفقوا ، وبعض النساء أن يصنعن ، ما يقتضيه الحب العاطفي من علامات الترف والرقّة ؛ فالبدائيون أفقر من أن يعرفوا عاطفة الحب ، ولذلك قلّما تجد في أغانيهم شعراً يدور حول الحب ؛ ولما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة « أَلْجُونْكِوَن » Algonquins لم يجدوا كلمة في لغتهم تعبر عن « الحب » ؛ ويصف الواصفون قبيلة الهوتنتوت بأنهم « باردون في الزواج ولا يأبه أحد من الزوجين بالآخر » وكذلك في ساحل الذهب « لا يظهر بين الزوج وزوجته من علائم الحب شيء حتى ولا مظاهره الخارجية » وقل هذا كذلك في أهل أستراليا البدائيين ؛ يقول « كاييه » Caillie إذ هو يتحدث عن زنجي من السنغال : « سألت بابا لماذا لا يرح أحياناً مع زوجته ، فقال لأنه لو فعل لتعذر عليه بعدئذ أن يملك زمامهن » ؛ ولما سئل رجل من أهل أستراليا الوطنيين لماذا أراد أن يتزوج ، فأجاب صادقاً بأنه إنما أراد الزوجة لتهيء له الطعام والشراب والخطب ، ولتحمل له المتاع أثناء الرحيل^(٤٠) والتقبيل الذي لا يستغنى عنه الأمريكيون فيما يظهر ، لا تعرفه الشعوب البدائية ، أو هم يعرفونه معرفة الشيء المزدري^(٤١) .

وعلى وجه التعميم ، نقول إن « الهمجي » يزاول أموره الجنسية بروح فلسفية ، لا يكاد يزيد عن الحيوان فيما يساوره من قلق ميتافيزيقي أو ديني ، إنه لا يفكر في الأمر بينه وبين نفسه ، كلا ولا يطير بعاطفته في سماءه ، بل الجنس عنده أمر طبيعي كالطعام سواء بسواء ، ولا يحاول قط أن يُزيّن لنفسه الدوافع ، فإيس في الزواج عنده شيء من التقديس ، وقلّما يسرف في الاحتفال به ، بل هو

فى رأيه عملية تجارية صريحة ، ولا يخطر بباله أبداً أنه مما ينجله أن يُخضع عاطفته للاعتبارات العملية فى اختياره لزوجته ، بل العكس هو أولى عنده بإثارة الحجل ، ولو أستباح لنفسه من الغرور ما نستبيحه نحن لأنفسنا ، لتسألنا عما يبرر التقليد الذى جربنا عليه وهو أن نربط رجلاً بامرأة إلى آخر الحياة تقريباً ، لأشياء سوى أن الرغبة الجنسية قد ربطت بينهما ببرقها الخاطف لمحة واحدة من الزمن ، فالزواج عند الرجل البدائى لا يُنظر إليه على أساس التنظيم الجنىسى ، بل على أنه تعاون اقتصادى ولذلك كان يريد من المرأة ، بل المرأة تريد من نفسها أن تكون نافعة نشيطة أكثر منها رشيقة جميلة (ولو أنه يقدر هـلـه الصفات فيها) ، إذ لا بد أن تكون له كسباً اقتصادياً ، لا خسارة لا كسب من ورائها ، وإلا لما فكر «الهمجى» الواقعى فى الزواج إطلاقاً ، الزواج عنده شركة تدرُّ ربحاً ، لا ضرب من ضروب الدعارة الخاصة ، إنه طريقة تجعل الرجل والمرأة إذا ما تعاونا فى العمل ، أنجح فى الحياة منهما لو عمل كل منهما مستقلاً عن زميله ؛ فحيثما وجدت فى تاريخ المدنية مرحلة لا تكون فيها المرأة كسباً فى زواجها للرجل ، فاعلم أن الزواج قد انهار بناؤه ، وأحياناً تنهار المدنية بانهياره .

الفصل الثانى

اخلاق الجنس

العلاقات قبل الزواج - الدعارة - العفة - البكارة -
المعيار المزدوج - الخفر - نسيبه الأخلاق - الدور
الذى يلعبه الخفر من الوجهة البيولوجية - الزنا -
الطلاق - الإجهاض - وأد الأطفال - الطفولة - الفرد

إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هى دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن
الغريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبان الزواج ،
وهى تهدد فى كل لحظة بإحداث الاضطراب فى النظام الاجتماعى لإلحاحها
وشدتها وازدراءها للقانون وانحرافاتهما عن جادة الطبيعة ؛ وأولى مشكلاتها
تقع قبل الزواج ، أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست
الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى فى عالم الحيوان ؛ فرفض الأثنى
للذكر ، إلا فى فترات التهييج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان فى دائرة
أضيق جداً من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ، فالإنسان يختلف
عن الحيوان - كما يقول بومارشيه - Beaumarchias فى أنه يأكل بغير
جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر فى كل فصول السنة ؛
وإنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها ، فى
تحريم الاتصال بالنساء فى أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام وجدت
الاتصال الجنسي قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير فى الجماعات البدائية الأولى ؛
فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالاً حراً دون أن
يكون ذلك عائناً للزواج ، وكذلك عند قبيلة پاپوا فى غينا الجديدة تبدأ الحياة
الجنسية فى سن مبكرة جداً والقاعدة قبل الزواج هى الشيوعية الجنسية^(١٣) وكذلك
توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج فى قبيلة «السويوت» Soyots فى سيبيريا ،

و «إيجوروت» Igorots في الفلبين ، وأهالي بورما العليا ، والكفير واليوشين في أفريقيا ، وقبائل نيجيريا ويوغندا وجورجيا الجديدة وجزائر مري وجزائر أندمان وتاهيتي وبولينزيا وأسام وغيرها (٤٤) .

في مثل هذه الظروف لا يُنتظر أن نجد غُهرًا كثيرًا في المجتمع البدائي ، فهذه المهنة التي هي « أقدم المهن » حديثة نسبيًا لأنها لم تنشأ إلا مع المدنية مع ظهور الملكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ؛ نعم لقد تجد هنا وهناك فتيات يعن أنفسهن حينًا ليجمعن مهورهن أو ليحصلن مبلغًا يقدمنه إلى المعابد ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كان التشريع الخلق في الإقليم يوافق عليه باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة (٤٥)

وأما العفة فهي الأخرى مرحلة جاءت متأخرة في سير التقدم ، فاللهي كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عقيم (٤٦) ، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معينًا لها على الزواج أكثر منه عائقًا لها في هذا السبيل ، لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك في عقمها ، ويبدش بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التي قامت قبل ظهور الملكية ، كانت تنظر إلى بكاره الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ؛ حتى كان العريس من قبيلة « كامشادال » Kamchadal إذا ما وجد عروسه بكرًا ثارت ثورته و « طفق بسبب أمها سببًا صريحًا لهذه الطريقة المهمة التي قدمت بها ابنتها إليه » (٤٧) ، وفي حالات كثيرة كانت البكاره حائلًا دون الزواج ، لأنها تلقى على الزوج عبثًا ثقيلًا على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذي يقضى عليه بالألأ يريق دم أحد من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحيانًا أن تُسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذي يحول بينهن وبين الزواج ، ففي التبت تبحث الأمهات في جدّ عن رجال يفضون بكاره بناتهن ، وفي « مكبار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون

المارة في الطريق أن يؤدوا لمن هذه المكرمة ، لأنهن ما دمن أباكراً فهن لا يستطعن الزواج » ، وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تُسَلِّمَ نفسها لأضياف العرس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفض له بكاره عروسه ، وقبائل أخرى في الفليبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً ضخماً تكون مهمته أن يؤدي هذا العمل نيابة عن اعترزوا الزواج (٤٨) من الرجال ،

فما الذي غيّر النظر إلى البكاره بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت خطيئة ؟ فجعلها بذلك عنصراً من عناصر التشريعات الخلقية في كل المدينات العالية ؟ لا شك أنها الميلكية ، حين قام بين الناس نظامها ، هي التي أدت إلى هذا التحول ؛ فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالملك الذي أحسه الرجل لزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج ؛ وازدادت قيمة البكاره لأن العروس في ظل نظام الزواج كانت تشتري بشمن أغلى إن كانت بكراً من ثمن أختها التي ضعفت لإرادتها ، إذ البكر يُبشّر ماضيها بالأمانة الزوجية التي أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى في أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ خشية أن يورثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح (٤٩) .

وأما الرجال فلم يَدْرُ في خواطرهم قط أن يقيدوا أنفسهم بمثل هذا القيد ، ولست تجد جماعة في التاريخ كله قد أصرت على عفة الذكر قبل الزواج ، بل لست تجد في أية لغة من اللغات كلمة معناها الرجل البكر (٥٠) .

بهذا قضى على البنات وحدهن أن يعانين الخوف على بكارتهن ، فأثر فيهن هذا الوضع على صورتهم ؛ فقبيلة « توارج » تعاقب البنت أو الأخت التي حادت عن الجادة بالموت ، وزنوج النوبة والحبيشة والصومال وغيرها يضعون على أعضاء التناسل للبنات حلقات أو أقفالاً تمنع أداء العملية الجنسية ، ولا يزال شيء كهذا قائماً إلى يومنا هذا في بورما وسيلان (٥١) ؛ كذلك نشأت ضروب من عزل

البنات عزلاً لا يتيح لهن أن يُغفرن الرجال أو يجيثن الإغراء من الرجال ، والآباء الأغنياء في بريطانيا الجديدة يحجزون بناتهم خلال الخمس السنوات الخطرة في أكواخ يقيمون عليها حراسات من العجائز الفضليات ، فلا يسمح للبنات بالخروج أبداً ثم لا يؤذن لأحد برويتهن إلا الأقارب^(٥٢) ، وليس بين هذه التصرفات كلها ، وبين « البرودة » التي تلبسها المسلمات والهندوس إلا خطوة واحدة ، وإن هذه الحقيقة لتذكرنا مرة أخرى بقرب المسافة بين « المدنية » و « الحمجية » .

وجاء الخفّر مصاحباً للبكارة وليسيطرة الوالد على أسرته ، فهناك قبائل إلى يومنا هذا لا يأخذها الحياء من ترك أجسادها عارية^(٥٣) ، لا بل إن بعضها ليخجله لبس الثياب ، ولقد اهتزت جنبات أفريقيا كلها بالضحك حين التمس « لفنجستون » من مُضيفيه السود أن يضعوا على أجسادهم بعض الثياب قبل قدوم زوجته ، وكانت « ملكة بالوندا » Balonda عارية من قبة رأسها إلى إخص قدمها حين عقدت مجلسها من أجل « لفنجستون »^(٥٤) ، وبين القبائل أقلية صغيرة تبشر العلاقة الجنسية علناً دون أن يداخلها أثر من الخجل^(٥٥) ، وكان أول ظهور الحياء عند المرأة حينما أحست أنها محرمة أيام حيضها ، وكذلك حين قام نظام الزواج بالشراء ، وأصبحت بكارة البنت تدل الربح على أيها ، فولدت عزل الفتاة وإرغامها على البكارة شعوراً عندها بضرورة احتفاظها بعفتها ، أضيف إلى ذلك أن الحياء عند الزوجة في ظل نظام الزواج بالشراء ، هو شعورها بتبعة مالية لإزاء زوجها بأن تمتنع عن أية علاقة جنسية خارجية ليس من شأنها أن تعود عليه بشيء من الربح ، وما هنا ظهرت الملابس ، إن لم تكن الدوافع إلى التزين وإلى المراقبة قد أنشأتها بالفعل قبل ذلك ، ففي قبائل كثيرة لا تلبس المرأة ثياباً إلا بعلز واجها^(٥٥) علامة على حيابة زوجها لها حيابة تامة ، وحايلايخول دون سائر الرجال أن تأخذهم شهامة الرجولة ، فالرجل البدائي لا يوافق على الرأي الذي

ذهب إليه مؤلف « جزيرة البطريق » من أن الثياب تشجع على الدعارة ، وعلى كل حال فليست العفة متصلة بالثياب صلة ضرورية ، فيحدثنا الرحالة في أفريقيا أن الأخلاق هناك تناسب في تقدمها تناسباً عكسياً مع كمية الثياب^(٥٦) فواضح أن ما يستحي من فعله الناس إنما يعتمد على أساس التحريم الاجتماعى والتقاليد التى تسود جماعتهم ، فإلى عهد قريب كانت المرأة الصينية ينجلها أن تعرّى عن قدمها ، والعربية ينجلها أن تكشف عن وجهها ، والمرأة من قبيلة « تاورج » ينجلها أن تبدى فيها ، على حين أن النساء فى مصر القديمة ، وفى الهند فى القرن التاسع عشر ، وفى « بالى » فى القرن العشرين (حتى أتاهن السائحون الشهبانيون) لم ينجلهن أبداً أن يكتشفن عن أئدانهن .

لكن لا ينبغى أن ننتهى من ذلك إلى نتيجة هى أن الأخلاق ليست بذات قيمة لأنها تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ، وأنه من الحكمة أن نقيم الدلائل على سعة علمنا بالتاريخ بأن نطرح من فورنا التقاليد الأخلاقية فى مجتمعنا ، فالعلم القليل بالأجناس البشرية يُعرض للخطر ؛ نعم لأنه من الحق فى الأساس — كما قال أناتول فرانس فى سخرية — « إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع »^(٥٧) ، وكما قال « أناقارسيس » Anacharsis اليونانى ، إنه إذا ما جمعنا كل التقاليد التى تقدسها جماعة ما ، ثم حلفنا منها كل التقاليد التى تمجها جماعة أخرى ، ما بقى لنا منها شئ ؛ لكن ذلك لا يدل على تفاهة الأخلاق فى قيمتها ، إنما يدل على أن النظام الاجتماعى قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى ، ولا يقلل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعى ، فلا بد من قواعد يراعها الناس فى اجتماعهم بعضهم ببعض ، كأنما الاجتماع لعبة لا مندوحة للاعبين عن مراعاة قواعدها إن أرادوا المضى فى اللعب ، لا بد للناس أن يعلموا كيف يتصرف زملاؤهم فى ظروف الحياة الجارية ؛ ومن هنا كان إجماع الناس فى المجتمع الواحد على اصطناع أخلاق معينة فى سلوكهم لا يقل أهمية من مضمون هذه

الأخلاق نفسها ؛ فإذا تصدينا لتقاليد جماعتنا وأخلاقها بالتكرار والخروج عليها ، حين نستكشف في صدر شبابنا أن تلك التقاليد والأخلاق نسبية ، فإنما نكشف بذلك عن يفاعه عقولنا ؛ ولو أمهلنا أنفسنا عقداً آخر من عقود العمر ، تكشف لنا بعدئذ أن التشريع الخلقى الذى ارتضته الجماعة — وهو يلخص خبرة الأجيال المتعاقبة — فيه من الحكمة أكثر مما يمكن لأستاذ أن يشرحه لطلابه فى سلسلة محاضراته فى الجامعة ؛ فستبين عاجلاً أو آجلاً ما يثير فى صدورنا القلق ، وهو أنه حتى هذا الذى لم نستطع فهمه قد يكون صواباً ؛ فالأنظمة والمواضع والتقاليد والقوانين التى هى قوام المجتمع المتعدد الجوانب ، إنما هى من صنع مئات الأجيال وبلايين العقول ، ولا يجوز لعقل واحد أن يتوقع لنفسه فهمها فى مدى الحياة القصير ، دع عنك مدى عشرين عاماً ؛ فيحق لنا إذن أن نختم بقولنا إن الأخلاق نسبية لكنها ضرورة لا غنى عنها .

فلما كانت التقاليد القديمة الأساسية تمثل الانتخاب الطبيعى فى طرائق حياة المجتمع بعد قرون قضاهها الإنسان فى محاولة وخطأ ، فلا بد لنا أن نرجح بعض الفائدة الاجتماعية ، أو بعض القيمة فى مساعدة الجنس على البقاء ، فى البكارة والحياة على الرغم من أنهما نسيبان ، وأنهما مرتبطان بنظام الزواج بالشراء ، ومن أنهما سبب فى الأمراض العصبية ؛ فالحياة أو الخفَر كان بمثابة الكمين فى ميدان القتال تلوذ به الفتاة إذا ما تقدم إلى خطبتها الخاطبون ، لتختار من بينهم أصلحهم ، اختياراً قائماً على روية ، أو لتضطر خاطبها أن يهذب من خصاله قبل أن يظفر بها ؛ على أن السدود التى أقامها خفَر النساء فى وجوه شهوات الرجال ، هى نفسها التى ولدت عواطف الحب الشعرى الذى رفع قيمتها فى عينيه ؛ واصطناع النظام الذى يهتم بالبكارة قد أدى إلى زوال السهولة واليسر الفطرى الذى كانت تتم به الحياة الجنسية البدائية ، لكنه من ناحية أخرى ، بحيلولته دون التطور الجنسى فى سن مبكرة ، والأمومة قبل أوانها ، قد ضيق الفجوة بين النضج الاقتصادى والنضج

الجنسى - ولو أن هذه الفجوة تميل إلى الاتساع السريع كلما تقدمت المدنية - وربما أعان نظام البكارة هذا الذى ينشأ عنه من تأجيل للحياة الجنسية ، ربما أعان على تقوية الفرد جسما وعقلا ، وعلى إطالة أمد المراهقة والتدريب ، وبهذا ينتهى إلى رفع مستوى الجنس البشرى .

لما تطورت الملكية ، تدرج الزنا فأصبح من الكبائر بعد أن كان معدوداً من الصغائر ؛ فنصف الشعوب البدائية التى نعرفها لا تعلق على الزنا أهمية كبرى^(٥٨) وعلى ذلك فنشأة الملكية لم تؤدّ فقط إلى مطالبة المرأة بالوفاء التام لزوجها ، لكنها كذلك ولّدت فى الرجل شعوراً بالملكية لزاء زوجته ؛ حتى حين يعبرها لضيفه ، فهو إنما يفعل ذلك لأنها مملّكة جسداً وروحاً ؛ ثم كملّ هذا الاتجاه فى تصور المرأة حين ألزموها أن تهبط إلى قبر زوجها مع سائر أدواته ؛ وعُدّ الزنا فى الأسرة الأبوية مساوياً للسرقة^(٥٩) كأنما هو فى أساسه اعتداء على الامتلاك ، وتفاوت عقاب الزنا فى شدته من أخف العقوبات إلى أقساها ، من عدم المبالاة عند القبائل البدائية إلى بقر بطون الزانيات وإخراج أمعائهن عند بعض قبائل الهنود فى كاليفورنيا^(٦٠) وبعد أن مرّت الجريمة بقرون طويلة من العقاب ، قرّرت فى النفوس فضيلة الوفاء الزوجى عند الزوجة قراراً مكيناً وولدت لها ضميراً فى فؤاد المرأة يرفعها ، حتى لقد أدهشت قبائل هندية كثيرة غزاتهم بما لزوجاتهم من فضيلة الوفاء التى يستحيل عندهن التفريط فيها ؛ وتمنى كثير من الرّحالة أن يجرى يوم على النساء فى أوروبا وأمريكا يساوين فيه من حيث الوفاء الزوجى زوجات الزولو والهاپوا^(٦١) .

وكان الوفاء الزوجى أيسر على أهل « هاپوا » ، لأنهم كمعظم الشعوب البدائية لا يقيمون إلا قليلاً من العوائق التى تعوق الزوج عن طلاق زوجته ، حتى أن الاتحاد الزوجى أوشك ألا يزيد بين الهنود الأمريكيين على عدد قليل من السنين ؛ ويقول فى ذلك « سكولكرافت » Schoolcraft : « إن نسبة كبيرة من الرجال

الكهول أو الشيوخ ، قد اتصلت بزوجات كثيرة حتى أن هؤلاء ليجهلون أبناءهم المنتشرين في أرجاء إقليمتهم » (٦٢) ؛ « إنهم يسخرون من الأوروبيين لاكتفاء الرجل منهم بزوجة واحدة مدى حياته ، وهم يرون أن « الروح الطيبة » قد زاوجت بين الزوجين ليكونا سعيدين ، فلا ينبغي أن يظلا معاً إلا إذا تلاءمت فيهما الاتجاهات والميول » (٦٣) ؛ لهذا ترى الرجال من قبيلة « تشروكي » Cherokees يبدلون الزوجة ثلاث مرات أو أربعاً كل عام ، وأما أهل « ساموا » فيبقون على زوجاتهم ثلاث أعوام لأنهم يميلون إلى المحافظة (٦٤) ؛ لكن لما جاءت الزراعة بما تقتضيه من حياة مستقرة ، امتد أمد الروابط الزوجية ؛ ففي ظل النظام الأبوى للأسرة ، كان الطلاق عملية لا تتفق وقواعد الاقتصاد في رأى الرجل ، لأن طلاق الزوجة معناه في حقيقة الأمر تفريط في أمةٍ تعود على سيدها بالربح (٦٥) ولما أصبحت الأسرة هي نواة الإنتاج في المجتمع ، تحرث الأرض وترعاها بالتعاون ، ازدادت ثراء كلما ازدادت نفراً وتماسكاً ، على فرض المساواة في سائر الظروف بينها وبين ما هو أصغر منها من الأسر ؛ وتبين للناس ما هو في صالح المجتمع من أن الرابطة الزوجية ينبغي أن تدمر بين الزوجين حتى يفرغا من تربية أصغر الأبناء ؛ ولكنهما إذا ما بقيا معا حتى هذه السن ، لم يعد ليهما من نشاط الحياة ما يدفعهما إلى حب جديد . وتصيح حياة الزوجين كأنها نفس واحدة لما اشتركا فيه معا من عمل وضعباب ؛ ولم يعد الطلاق إلى اتساع نطاقه من جديد ، إلا بعد انتقال الإنسان إلى الصناعة في المدن ، وما تبع ذلك من تخفض لعدد أفراد الأسرة وقلة في خطرهما .

ويمكن القول بصفة عامة إن الرجال خلال عصور التاريخ كلها أحبوا كثرة الأطفال ؛ ولذا جعلوا الأمومة مقدسة ؛ بينما النساء اللاتي يقاسين مرارة النسل ، قد اضطربت في أنفسهن ثورة خفية على هذا التكليف الثقيل ، فاستخدمن ما لا عدد له من الوسائل ليتخففن من أعباء الأمومة ؛ فالرجال البدائيون

لا يأبهون عادة لعدد السكان أن يزيد إلى غير تحديد ، لأن الأبناء مربحون لهم في ظروف الحياة السوية ، ولئن أسف الرجل على شيء فذلك أنه يستحيل عليه أن يستولد امرأته البنين بغير البنات ؛ أما المرأة فتقايل هذا من ناحيتها بالإجهاض ووآد الأطفال وضبط النسل — فحتى هذا الأخير قد كان يحدث آناً بعد آناً في الشعوب البدائية^(٦٦) ؛ ولأنه لما يثير الدهشة أن نرى شدة الشبه بين الدوافع التي تحرك المرأة « المهمجية » والدوافع التي تحرك المرأة « المتعدية » إلى اتقاء الولادة ، وهي أن تفلت من عبء تربية الأطفال ، وتحفظ لنفسها بقوام فيه فتوة الشباب ، وتتقن العار الذي يلحقها من أمومة لطفل جاءها من غير زوجها ، وتجنب الموت ، وغير هذه من شتى الدوافع ؛ وأبسط الوسائل التي تتبعها المرأة لتحديد الأمومة أن ترفض الرجل إبان الرضاعة التي قد تطول مدى أعوام كثيرة ، ويحدث أحياناً — كما هي الحال عند هنود تشيني — أن تأبى المرأة حملاً ثانياً إلا إذا بلغ طفلها الأول عامه العاشر ؛ وفي بريطانيا الجديدة لم تكن المرأة لتفلس الأطفال قبل مرور عامين أو أربعة أعوام بعد زواجها ؛ ويلاحظ أن قبيلة « جوايكورو » Quaycuro في البرازيل كانت تتناقص تناقصاً مطرداً ، لأن نساءها لم يقبلن حمل الأطفال قبل أن يبلغن الثلاثين ؛ والإجهاض شائع بين أهل « بابوا » فيقول نساءهم في ذلك : « عبء الأطفال ثقيل فلقد سئمناهم ، لأنهم ينهكون قوانا » والنساء في بعض قبائل « الماوري » Maori يستعملن أعشاباً أو يسبن في أزحامهن اعوجاجاً ليتقن الحمل^(٦٧) .

وإذا فشلت المرأة في إجهاض نفسها ، فقد بقى لها أن تثد طفلها ، ومعظم الشعوب القبطية تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا جاء شائها أو مريضاً أو سقاجاً ، أو إذا ماتت أمه عند ولادته ؛ وكأنما يجد الإنسان مبرراً مقبولاً في كل وسيلة تؤدي به إلى ضبط عدد السكان ضبطاً يتناسب مع مواد الرزق ، فترى كثيراً من القبائل التي تقتل الأطفال إذا ما ظنوا أنهم ولدوا في ظروف لا يحالفها السعد ،

فقبيلة « بُندى » Bondei تحنق المولود إذا نزل إلى الدنيا برأسه أولاً ، وقبيلة « كامشادال » تقتل الطفل إذا ولد في جوع عاصف ، وقبائل مدغشقر تترك الطفل الوليد في العراء حتى يموت أو تغرقه في الماء أو تئذه حياً إذا ما أطل على العالم في مارس أو إبريل ، أو يوم أربعاء أو جمعة أو في الأسبوع الأخير من أى شهر ، وإذا ما ولدت المرأة توأمين في بعض القبائل ، عُدَّ ذلك برهاناً على اقترافها الزنا ، لأنه يستحيل على رجل واحد أن يكون والد لطفلين في آن واحد ، وعلى ذلك فأحد التوأمين أو هما معاً يقضى عليهما بالموت ، وأد الأطفال كان شائعاً بين البدو بصفة خاصة لأنهم كانوا يسببون لهم إشكالات في ترحالهم الطويل ، فقبيلة « بانجورانج » Bangarang في فكتوريا كانت تقتل نصف أطفالها عند الولادة ، وقبيلة « اللنجوا » Lenguas في إقليم شاكو من پاراجواى لم تكن تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من طفل واحد كل سبعة أعوام ، وتقتل ما زاد على ذلك ، وقبيلة « أبيفون » Abipones حددت عددها على نحو ما فعل الفرنسيون ، وذلك بأن تنشئ كل أسرة ولداً واحداً وبنتاً واحدة ، وكما نسل غير ذلك يقتل فور ولادته وإذا حلت ببعض القبائل مجاعة أو تهددهم مجاعة ، قتلوا أطفالهم حديثي الولادة أو أكلوهم ، وكانت البنت عادة هى التى تتعرض للوآد ، وكانت أحياناً تعذب حتى تموت بحجة أن ذلك يجعل روحها تعود إلى الحياة في جسد صبي إذا ما عادت إلى الحياة من جديد^(٦٨) ، وكان وأد الأطفال لا يشوبه في أعينهم بشاعة ولا يستتبع تأنيباً من الضمير ، لأن الأم فيما يظهر لا تحسُّ الحب الغريزي لأطفالها عند ولادتهم مباشرة .

أما إذا سمح للطفل بالحياة أياماً قلائل ، فقد أمِنَ القتل ، لأنه سرعان ما تنور في والدين عاطفة الأبوة أو الأمومة لما يريانه فيه من بساطة وضعف ، وفي معظم الحالات ، كان الطفل يلقى من الحب في معاملته من أبويه البدائيين ما لا يلقاه الطفل على وجه العموم عند من هم أرقى في المدنية من هؤلاء^(٦٩) ، ولأن

اللبن أو غيره من ألوان الطعام الطرى لم يكن يتوفر لديهم ، كانت الأم تقوم على رضاعة طفلها من عامين إلى أربعة أعوام ، بل قد تمتد الرضاعة أحياناً إلى اثني عشر عاماً (٧٠) ، فيحدثنا رحالة عن ولد أخذ في التدخين قبل أن يُفطم عن الرضاعة (٧١) وكثيراً ما كان الصبي يقف لِعَبِّه مع لداته ، أو يقف ما عسى أن يؤديه من عمل ، لترضعه أمه (٧٢) . والمرأة الزنجية تحمل رضيعها على ظهرها إبان عملها ، فإذا أرادت له الرضاعة قذفت له — أحياناً — بشديها عَبرَ كتفها (٧٣) ؛ ولم تكن تربية الآباء لأبنائهم بسيطة النتائج على الرغم من إهمالهم لإياهم إهمالاً شديداً ذلك لأنهم كانوا يتركون الطفل في سن مبكرة يلاقى نتائج بلاهته ووقاحته ومشاكسته ، فكان الطفل يزداد علماً كلما ازداد تجربة ؛ وفي المجتمع الفطري يشتد الحب بين الآباء لبنيهم والأبناء لآبائهم (٧٤) .

والطفولة في الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض ، ونسبة الوفاة فيهم عالية ؛ والشباب في تلك الجماعة قصير الأمد ، لأن الزواج كان يبدأ في سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية ، وسرعان ما يضيع الفرد في ثقال المهام التي يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها ، فالنساء يُدَوِّين حمل الأطفال والرجال يدويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير ، نفدت قواهما ، فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص فرديته ، لا في أول الحياة ولا في نهايتها ؛ فالفردية — كالحرية — ترف جاءت به المدنية إذ لم يحدث إلا في فجر التاريخ أن تحرر من ربقة الجوع والنسل والقتال عددٌ من الرجال والنساء يكفي لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن .

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية

طبيعة الفضيلة والرذيلة - الجشع - الخيانة - العنف - القتل -
الانتحار - انحراف الفرد في جماعة - الإيثار - الكرم - أوضاع
السلوك - تحديد القبيلة للأخلاق - الأخلاق البدائية بالقياس إلى
الأخلاق الحديثة - الدين والأخلاق

من بين واجبات الوالدين أن ينقوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق ، لأن
الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً
كلما تلقى جانباً من التراث الخلقى والعقلى الذى خلقه له الأسلاف ؛ والطفل
من الوجهة البيولوجية سيّئُ الإعداد للمدنية ، لأن غرائزه تهيئه للمواقف
الرئيسية والتقليدية ولا نشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التى توافق الغابة
أكثر من موافقتها للمدنية ؛ كل رذيلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية فى
تنازع البقاء ، ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تلكأت فى وجودها بعد زوال
الظروف التى كانت تستلزم وجودها - فلدست الرذيلة - إذن - ضرباً من
السلوك الرائق ، بل هى فى العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذى
حل مكانه سلوك جديد ؛ فن الغايات التى ينشد تحقيقها التشريعُ الخلقى
أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التى لم تتغير - أو التى تتغير ببطء - مع
حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة .

لبث الجشع وحب التملك والخيانة والقسوة والعنف أموراً نافعة للحيوان
وللإنسان مدى أجيال بلغت من طولها حداً تعذر معه على كل ما لدينا من قوانين
وتربية وأخلاق ودين أن تزيلها لإزالة تامة ؛ ولا شك أن لبعضها - حتى فى
يومنا هذا - قيمة فى حفظ البقاء ، فالحيوان يُتخَم نفسه طعماً لأنه لا يعلم متى

عساه أن يجد القوت مرة أخرى ، وهذا الارنياب في ظروف المستقبل هو منشأ الجشع ؛ فالرجل من قبيلة « ياقوت » يأكل أربعين رطلا من اللحم في يوم واحد وكذلك تروى قصص كهذه - وإن تكن أقل منها بطولة - عن الإسكيمو والسكان الأصليين في استراليا (٧٥) ، وإن الاطمئنان الاقتصادي الذى هو من نتائج المدنية لمن حداثة العهد بحيث يتعذر عليه أن يزيل هذا الجشع الطبيعى فى الإنسان ، الذى لا يزال يظهر فى حب التلك الذى لا يشبع ، حتى لتراه يدفع الرجل الحديث أو المرأة الحديثة إذ هما فى قلق من الحياة ، أن يَـخْزُنا الذهب أو غيره من السلع التى يمكن تحويلها إلى طعام إذا ما طرأ طارئ مفاجئ ؛ وليس الجشع للشراب كالجشع للطعام لأن معظم الجماعات الإنسانية قد احتشدت حول ينابيع الماء ؛ ومع ذلك فشراب المسكرات يوشك أن يعم الإنسان جميعاً ، وهم لا يطلبونه عن جشع بقدر ما يطلبونه ليدفثوا فى أنفسهم برودة يحسونها ، أو يمحوا من ذاكرتهم همماً يشقيهم - وقد يطلبونه لمجرد أن ما تحت أيديهم من الماء لا يصلح شرباً .

والحياة ليست عريقة القِدَم كالجشع ، ذلك لأن الجوع أسبق إلى الوجود من الملكية ؛ ولعل « الهمج » البدائين فى أبسط صورهم أكثر الناس أمانة (٧٦) « فالكلمة يقولونها مقدسة » كما يقول « كولبن » Kolben عن قبيلة الهوتنتوت « وهم لا يصطنعون شيئاً مما تعرفه أوروبا من وسائل الفساد والحياة » (٧٧) ؛ لكن هذه الأمانة الساذجة زالت بتقدم وسائل المواصلات التى ربطت أجزاء الأرض بعضها ببعض ، لأن وسائل أوروبا استطاعت بعدئذ أن تعلم هذا الفن الدقيق للهوتنتوت ؛ فالحياة بصفة عامة تنشأ مع المدنية ؛ لأنه فى ظل المدنية يزداد المجال الذى يتطلب دهاء السياسة اتساعاً ، إذ تزداد الأشياء التى تغرى الإنسان بالسرقة ، وتربيتنا لأبنائنا تنشئهم على المهارة فى ذلك ؛ فإذا ما تقدمت الملكية بين البدائين جاءهم فى إثرها الكذب والسرقة (٧٨) .

وأما جرائم الافئثات والاعتداء فهي قديمة قدم الجشع ؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر ، لم ينبج من ذلك جيل واحد من الأجيال وغشيت نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام ؛ كان الإنسان البدائي قاسياً إذ كان حتماً عليه أن يكون كذلك ؛ فقد علمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً ، وأن يكون له قلب يستسيع « القتلى الطبيعي » وأسودّ الصحائف التي تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية ، هي تلك التي تروى لك عن التعذيب الذي يسود الحياة البدائية ، وعن الفرح الذي ينتشي به كثير من البدائيين رجالاً ونساء - فيما يظهر - إذا ما أنزلوا بأحد المأ (٧٩) ، وكثير من هذه القسوة كان من لوازم الحرب ، ففي حدود القبيلة الواحدة ، تجد أساليب التعامل أقل وحشية ، فيعامل بعضهم بعضاً - بل يعاملون عبيدهم - برقة لا تنقل في شيء عما تعهده المدنية من ذلك (٨٠) لكن لما كان الناس مضطرين اضطراراً أن يقتلوا إبان القتال ، فقد علمتهم هذا أن يقتلوا كذلك أيام السلم ؛ وكم من البدائيين لا يرون وسيلة لفض النزاع إلا إن مات أحد المتنازعين ؛ وكثير من القبائل لا يرتاع أبناؤها إذا اغتال إنسان إنساناً - حتى إن كان القتل من أبناء العشيرة نفسها - بمثل الجرع الذي كنا نحن المحدثين نقابله به ؛ فأهل « فويجي » Fugians لا يعاقبون القاتل بأكثر من نفيه حتى ينسى زملاؤه جريمته ؛ وقبائل الكفير تعدّ القاتل نجساً ، ويطالبونه بتسويد وجهه بالفحم ، ولكنه بعدئذ إن غسل جسده ومضمض فيه وصيغ جلده بلون بني قبيلوه في الجماعة من جديد ، وأما همج « فوتونا » Futuna فهم - مثلنا - يعدون القاتل بطلاً (٨١) ؛ وفي بعض القبائل ترفض المرأة أن تتزوج من رجل لم يقتل أحداً في قتال ، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده ؛ ومن هنا نشأت عادة اصطيات الرعوس التي لا تزال باقية في الفلبين حتى اليوم ؛ وعند قبيلة « دياك » Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشرى بأكبر عدد من الرعوس ،

أن يختار من يشاء من بنات القرية ، والبنات يشتهنه زوجا لأنهن
يدركن أنهن قد يصبحن - بقاء مثل هذا الزوج - أمهات لرجال
شجعان أقوياء (٨٢) (*)

حيث يغلو الطعام ترخص الحياة ، فأبناء الإسكيمو لا مندوحة لهم عن
قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء
ولا يصلحون لشيء ، فالامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة
لواجب النبوة (٨٣) ، وحياة الرجل البدائي رخيصة على نفسه لأنه يقتل نفسه
في اندفاع لا ينافسه فيه إلا اليابانيون ؛ وإذا ما أسىء إلى شخص فانتحر
أو أنزل بنفسه الأذى ، فالأسىء لا بد أن يجرى مجراه في ذلك وإلا عدَّ
منبوذاً من المجتمع (٨٤) ، وما أقدم الانتحار تحلصاً من الدنّس والعار ؛ وكل
شيء قد يكفي سبباً للانتحار ، فقد انتحر بعض الهنديات من شمالي أمريكا
لأن أزواجهن قد استباحوا لأنفسهم لومهن ، وانتحر شاب من جزيرة
«تروبرياندا» لأن زوجته دَخَنَت كل ما كان لديه من تبغ (٨٥) .

وأخذت المدنية على نفسها فيما أخذت أن تحول الجشع عند الإنسان إلى
اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والانتحار إلى
فلسفة ؛ وما كان أعظمه من تقدم للإنسان حين رضى القوي أن يأكل الضعيف
بوساطة القانون ؛ وإن الجماعة لتنفى إذا ما سمحت لأبنائها أن يقف بعضهم من
بعض نفس الموقف الذى يشجعهم أن يقفوه جماعة إزاء غيرها من الجماعات ؛
فالتعاون الداخلى هو أول قانون للتنافس الخارجى ، وتنازع البقاء لا ينتهى بتعاون
الأمراد بعضهم مع بعض ، إنما هو ينتقل إلى الجماعة بعد أن كان للفرد ، ولو
تساوت الظروف في جماعتين إلا في أن إحداها يستطيع أعضاءها من أسر وأفراد
أن يتحد بعضهم مع بعض ، فهى التى تستطيع أن تسبق الأخرى في ميدان

(١) تكون هذه الفكرة نصف موضوع المسرحية التى ألفها سنج Sygne وعنوانها : فى

الغرب Teh Playboy of th Western World

التنافس سبقا يتناسب مقدراه . مع مقدار ما بداخلها من تعاون ؛ ومن هنا كان لكل جماعة تشريع أخلاقى تلقنه لأفرادها ، وتبنى لهم فى أفئدتهم ميولا اجتماعية تقلل من الحرب الطبيعية التى هى من شأن الأحياء ، وإنما تفعل الجماعة ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم حلقاؤها وأركانها المستورة ؛ وهى تؤيد طائفة من الخصال أو العادات فى الفرد من شأنها أن تعود بالنفع على الجماعة ، ولذا تسميها فضائل ؛ كما تنفر النفوس من أضرارها بأن تسميها رذائل ؛ وبهذه الطريقة ينحصر الفرد — فى ظاهره إلى حد ما — فى سلك الجماعة ، والحيوان فيه يصبح مواطنا .

لم يكن — أو كاد ألا يكون — توليد العواطف الاجتماعية فى نفس « الهمجى » بأصعب من إثارة هذه العواطف اليوم فى قلب الإنسان الحديث ، فلئن كان تنازع الحياة قد شجع على قيام الشيوعية ، فقد عزز تنازع الملاك الشعور بالفردية ؛ وربما كان الإنسان البدائى أسرع من الإنسان المعاصر استعداداً للتعاون مع زملائه فقد كان أسرع عليه من الإنسان المعاصر أن يتماثل اجتماعياً مع زملائه لأن الأخطار والمصالح التى كانت تربط بالجماعة كانت أقوى منها الآن ، كما كانت أملاكه أقل من أن تجعله يتفرد بمصالح من دون زملائه (٨٦) ؛ لقد كان الإنسان البدائى عنيفاً جشعاً ، لكنه كان كذلك رحباً كريماً ، مستعداً لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء ، ولتقديم الهدايا لأضيافه (٨٧) فكل قارئ يعرف كرم البدائيين كيف كان يدفعهم فى قبائل كثيرة إلى حد تقديم زوجة المضيف أو ابنته إلى نزيل بيته (٨٨) ورفض مثل هذه التحية أثناء الضيافة يعتبر عندهم إيذاء شديداً لشعورهم : الشعور المضيف وشعور المرأة فى آن معاً ، وإن ذلك لمن المشكلات التى يصادفها المبشرون ؛ والمعاملة التى يُعامل بها المضيف إبان إقامته تتوقف على الطريقة التى عالج بها أمثال هذه التبعات فى أول قدومه (٨٩) ؛ ويظهر أن الإنسان البدائى قد كان يشعر نحو امرأته شعور الغيرة على ملكه لا شعور الغيرة الجنسية ، فلا يسعى إليه أن تكون زوجته قد « عرفت » رجالاً غيره قبل زواجها منه ، ولا يؤذيه أنها

الآن تضاجع ضيفه ، لكنه يثور بالغضب - باعتباره مالكا لا باعتباره عاشقا - إذا ما رآها-تضاجع رجلا غير استثنائه ؛ وبعض الأزواج في أفريقيا يعبرون زوجاتهم إلى الغرباء لتسهيل أمورهم عند هؤلاء^(٩٠)

إن قواعد المجاملة كانت من التعقد لدى معظم الشعوب الساخنة بمثل ماهي عليه لدى الأمم الراقية^(٩١) فكل جماعة لها طرائقها الرسمية في الاستقبال والتوديع ، فإذا ما التقى شخصان فقد يتحاکان بالأنوف أو يتشم أحدهما الآخر ، أو يضرب كل منهما زميله ضربا رقيقا^(٩٢) ولكن هؤلاء الناس - كما أسلفنا - يستحيل أن يقبل أحد منهم أحدا ؛ وبعض القبائل الغليظة كانت أحسن أدبا من متوسط الإنسان الحديث ، فصيادو الرءوس البشرية من قبيلة « دياك » يقال عنهم إنهم « وديعون مسالمون » في حياتهم المنزلية ؛ وهنود أمريكا الوسطى يعتبرون حديث الرجل الأبيض بصوت عال وسلوكه الغليظ من علامات سوء تربيته وثقافته البدائية^(٩٣) .

إن كل الجماعات البشرية تقريبا تكاد تتفق في عقيدة كل منها بأن سائر الجماعات أخط منها ؛ فالهنود الأمريكيون يعدون أنفسهم شعب الله المختار ، خلقه « الروح الأعظم » خاصة ليكون مثالا يرتفع إليه البشر ، وهيبة من القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لا ناس سواهم » وأخرى تطلق على نفسها « الناس بين الناس » وقال « الكاريبون » Caribs « نحن وحدنا الناس » ، وكان الاسكيمو يعتقدون أن الأوربيين إنما ارتحلوا إلى جرينلند لينفقوا عنهم طرائق العيش الصحيحة والفضائل^(٩٤) ونتيجة ذلك أن الإنسان البدائي لم يكن يدور في خلده أن يعامل القبائل الأخرى ملتزما بنفس القبول الخلقية التي يلتزمها في معاملته لبني قبيلته ، فهو صراحة يرى أن وظيفة الأخلاق هي تقوية جماعته وشد أزرها تجاه سائر الجماعات ، فالأوامر الخلقية والمحرمات لا تنطبق إلا على أهل قبيلته ، أما الآخرون فما لم يكونوا ضيوفه ، فباح له أن يذهب في معاداتهم إلى الحد المستطاع^(٩٥)

ليس التقدم الخلقى فى التاريخ متمثلاً فى تحسُّن التشريع الخلقى بمقدار ما هو متمثل فى توسيع الدائرة التى يُطبَّقُ فيها ، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائى ، ولو أن التشريعيين الخلقيين قد يختلفان فيما بينهما اختلافاً بينا من حيث المضمون والتنفيذ والأداء ، لكن الأخلاق الحديثه فى الأيام العادية تتسع نطاقاً بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذى قبل - ولو أن هذا التوسع قد أخذ يقل تدريجاً(*) ذلك أنه لما جعلت القبائل تحتشد فى وحدات أكبر تسمى دُولاً ، فاضت قواعد الأخلاق عن حدود القبيلة ؛ ثم لما اتصلت الدول بوسائل المواصلات أو بالخطر المشترك ، تسلت الأخلاق من دولة إلى دولة خلال الحدود ، وطفق فريق من الناس يطبق قواعده الخلقية على الأوروبيين جميعاً ، ثم على الجنس الأبيض كله ، ثم أخيراً على البشر أجمعين ، وربما لم يخل عصر من العصور من أصحاب المثل العليا الذين تمنوا أن يحبوا الناس جميعاً جميعهم بلخيرهم ، وربما كانت أصواتهم دائماً صيحات فى واد بلقع من قوميات وحروب ، لكن عدد هؤلاء الناس أوحى نسبتهم العددية إلى غيرهم ، قد زادت اليوم على الأرجح ، ولئن خلت السياسة من الأخلاق ، فهناك أخلاق فى التجارة الدولية لسبب بسيط هو أن هذه التجارة يستحيل قيامها بغير شيء من القبول والقانون والثقة ، فإن بدأت التجارة فى القرصنة ، فقد صعدت إلى قمة الأخلاق .

ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة ، إذ الفرد لم تهيه طبيعته بالميل التى تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع ، وأنحو طاعة القوانين المخرجة للصدور إذ لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة ،

(*) ومع ذلك فالمدى الذى يطبق فى حدوده التشريع الخلقى قد أخذ يضيق منذ المصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات .

فلكى تقيم المجتمعات على الأفراد حارماً غير منظور ، ولكى تقوى فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية وخاوف قوية ، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تختبرها ؛ ولقد عبر الجغرافى القديم « سترابو » عن أكثر الآراء تقدماً فى هذا الموضوع منذ تسعة عشر قرناً فقال :

إنك فى معاملتك لحشد من النساء ، على أقل تقدير ، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق ، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم ، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعاً بضرورة الوفاق والورع والإيمان كلا ، بل لا بد لهم من الخوف الدينى أيضاً . ولا يمكن إثارة هذا الخوف فى نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ؛ فالصواعق والدروع والصولجانات والمشاعل ورماح الآلهة ، كل هذه من الأساطير ، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله إلى آخره ؛ لكن مؤسسى الدول حرصوا على هذه الأشياء باعتبارها عفاريت يُفزعون بها السذج من الناس ؛ ولما كانت هذه طبيعة الأساطير (الميثولوجيا) ثم لما احتلت الأساطير مكانتها فى إطار الحياة المدنية والاجتماعية كما احتلت مكانتها كذلك فى تاريخ الوقائع الملموسة ، فقد تمسك القدماء بنظمهم فى تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج ، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهذبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ ؛ أما اليوم ، وبعد أن مرَّ هذا الزمن الطويل ، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة فى مقدمة ما يربى به النشء ؛ مع أن الفلسفة لاتصلح إلا للقليل ، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة » (٩٦) .

لكن فسرعان ما تسبغ العقيدة الدينية على الأخلاق لوناً من التقديس ، لأن ما هو فوق الطبيعة يضيف أهمية يستحيل أن تكنسها من تلقاء نفسها الأشياء التى نعرفها بالتجربة الحسية التى نفهمها بردِّها إلى أصولها ، فالخيال أيسر وسيلة من العلم فى حكم الناس ؛ ولكن هل كانت هذه الفائدة الخلقية هى أصل العقيدة الدينية وأساسها ؟

الفصل الرابع

الدين

الملاحظة البدائيون

إذا عرفنا الدين بأنه عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة . فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب - فيما يبدو - ليس لهم ديانة على الإطلاق فيعض قبائل الأقزام في أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ؛ ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة ؛ وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال ، فإذا ما فرغوا من دفنهم لم يَبْدُ عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً ، بل أعوزتهم حتى الحرافقة ، ذلك لو أخذنا بأقوال الرحالة فلم نظن بأقوالهم الإسراف الذي يعزّ على التصديق (١٩٦) ؛ وأما أقزام « الكامرون » فلم يعترفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط لإرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة في هذه السبيل عث لا يجدى ؛ وقبيلة « فيدا » في سيلان اعترفت باحتمال وجود الآلهة وخلود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحد بحيث يؤدّون الصلاة أو يقدمون القرابين ؛ وسأل أحدهم سائل عن الله فأجاب في حيرة فيلسوف حديث : « أَيْكون على صخرة أم على تل من تلال الغل الأبيض أم على شجرة ؟ إني لم أرقط لهما ! » (١٩٧) ؛ وهنود أمريكا الشمالية تصوروا إلهاً لكنهم لم يعبدوه ، وظنوا - كما ظن أبيقور - أنه أبعد من أن يعنى بأمورهم (١٩٨) ، وقال هندي من قبيلة « أيبون » ما عساه أن يحير عالماً من علماء الميتافيزيقا ، إذ قال في لهجة كونفوشية « إن آباءنا وأجدادنا كانت تعيهم هذه الأرض وحدها ، لا يرجون شيئاً سوى أن يُنبت لهم السهل كلاً ويفجّر لهم ماء لتطعمهم بجيادهم

وتشرب ؛ لأنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما يجري في السماء ، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها » ، ولما كان الإسكيمو يسألون من ذا صنع السماوات والأرض ، كانوا يجيبون دائماً بقولهم « لسنا ندرى »^(٩٦د) ، وسئل رجل من « الزولو » : « إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب ، وإذا رأيت الشجر ينمو ، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها ؟ » أجاب في بساطة بقوله « كلا ، فنحن نراها ، لكننا لانستطيع أن نعلم أننى جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء نفسها »^(٩٦هـ)

على أن هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعاً اعتقاداً سليماً ؛ وهذه ، في رأى الفيلسوف ، حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية ، فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو الباطل ، لأنه معنى قبل ذلك بالمشكلة في ذاتها ، أعنى مشكلة العقيدة الدينية من حيث قديم ظهورها ودوام وجودها ، فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيء من صدر الإنسان ؟ .

١ - مصادر الدين

الخوف - الدهشة - الأحلام - النفس - الروحانية

الخوف - كما قال لوكريشس - أول أمهات الآلهة ، وخصوصاً الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءت بها المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية^(٩٧) وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة ، ففي أساطير سكان بريطانيا الجديدة الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ أخطأته الآلهة ، فقد قال الإله الخير

« كامبينانا » إلى أخيه الأحق « كورثوفا » : « اهبط إلى الناس وقل لهم يسلموا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ، ثم أنبئ الثعابين أن موتها منذ اليوم أمر محتوم » فخلط « كورثوفا » بين شطرى الرسالة بحيث بأنغ سر الخلود للثعابين ، وقضاء الموت للإنسان (٩٨) ؛ وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يخلد لو استطاع أن يبدل بجلده جلدًا آخر (٩٩) .

وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل في معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلق به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسيره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذي تحدثه أجرام السماء في الأرض والإنسان ؛ لقد بهت الإنسان البدائي لهذه الأعاجيب التي يراها في نومه ، وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رواه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة ؛ لقد دفن موتاه بيديه ليحول دون عودتهم ؟ لقد دفن مع الموتي ألوان الطعام وسائر الحاجات ، حتى لا يعود الميت من جديد فيصب عليه لعنته ، بل كان أحياناً يترك للميت الدار التي جاءه فيها الموت ، وينقل هو إلى دار أخرى ، وفي بعض البلدان كان الإنسان البدائي يخرج الجثة من الدار خلال ثقب في الحائط ، لا من بابها ، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة ، لكي تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبداً (١٠٠) .

مثل هذه الأحداث التي كانت تصادف الإنسان البدائي في حياته ، أقنعتهم بأن كل كائن حي له نفس أو حياة دنيئة في جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت ؛ جاء في كتاب من كتب « يوبانشاد » في الهند القديمة : « لا يوقظ أحدٌ نائماً بإقظاً مفاجئاً عنيفاً ؛ لأنه من أصعب الأمور علاجاً أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها » (١٠١) . وليست الروح

بقاصرة على الإنسان وحده ، بل إن لكل شيء روحاً ، والعالم الخارجى ليس مواتاً ولا خلواً من الإحساس ، لكنه كائن حتى دافق الحياة^(١٠٢) موارو لم يكن الأمر كذلك - هكذا ظن الفلاسفة القدامى - لكان العالم مليئاً بالأحداث التى يستحيل تحليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذى يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر ، وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخصة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ؛ وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ؛ وهذه الروحانية فى النظر إلى الأشياء هى ما فى الدين من شعر ، وما فى الشعر من دين ؛ وقد نشاهدنا فى أبسط صورها ، فى عيني الكلب الدهشتين إذ يرقب بهما ورقة حملتها الريح أمامه ، فربما ظن إزاءها أن لها روحاً تحركها من باطنها ، وهذا الشعور نفسه هو الذى نصادفه فى أعلى درجاته عند الشاعر فيما ينظم من قصيد ؛ ففى رأى الإنسان البدائى - و رأى الشعراء فى كل العصور - أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء ، كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية الموثقة للنفوس الباطنية الخفية ؛ وكذلك الحال مع اليونان الأقدمين إذ جعلوا السماء هى الإله « أورانوس » ، والقمر هو الإله « سيلين » ، والأرض هى الإلهة « جى » ، والبحر هو الإله « بوزيدن » ، وأما الإله « بان » ففى كل أرجاء الغابات فى وقت واحد ؛ والغابات فى رأى الجرمان الأقدمين كانت فى أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمرادة والأقزام وعرائس الجن وإنك لتلمس هذه الكائنات الجنية مبثوثة فى موسيقى « فاجنر » وفى مسرحيات « إبنسين » الشعرية ؛ والفلاح الساذج فى إيرلندة لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ، ويستحيل أن يُعترف بشاعر أو كاتب مسرحى على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات فى أدبه ، وإن فى هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالاً ، فمن الخير الذى يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملة للأحياء ؛

والنفس الحساسة - كما يقول أرهف الكتاب المعاصرين حساسية -
ثرى كأنما :

« الطبيعة قد أخذت تبدى في هيئة مجموعات كبرى من كائنات حية
مستقل بعضها عن بعض ؛ بعضها مرئى وبعضها خفى » ، لكنها جميعاً من طبيعة
العقل ، ثم هى جميعاً من طبيعة المادة ، وهى كذلك جميعاً تمزج فى أنفسها
بين العقل والمادة فتكوّن بذلك سر الوجود العميق . . . إن العالم ملئ بالآلهة !
فمن كل كوكب ومن كل صخرة ينبثق وجودٌ يثيرنا بنوع من الإحساس
الذى ندرك به كثرة ما هنالك من قُوى شبيهة بقوى الآلهة ، فمنها القوى
ومنها الضعيف ، ومنها الجليل ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والأرض
لحقن غاياتها التى كتمتها فى أجوافها سرّاً » (١٠٣)

٢ - المعبودات الدينية

الشمس - النجوم - الأرض - الجنس - الحيوان - العوالمية -
الانتقال إلى مرحلة الآلهة البشرية - عبادة الأشباح - عبادة الأسلاف

لما كان لكل شيء روح ، أولاه خفى ، إذن فالمعبودات الدينية لا تقع
تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ،
وما هو جنسى ، وما هو حيوانى ، وما هو بشرى ، وما هو إلهى ، وبالطبع
لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود
للإنسان ؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى ؛ فكما أننا اليوم نتحدث
فى أغانينا الشعبية عن « الرجل الذى يسكن القمر » كذلك صورت الأساطير
الأولى القمر رجلاً شجاعاً أغوى النساء وسبّب لهن الحيف مرة كلما ظهر ؛
ولقد كان القمر إلهاً محباً للنساء ، عبّدهن لأنه جامعين بين الآلهة ؛ وكذلك
اتّخذ القمر الشاحب مقياساً للزمن ، فهو فى ظنهم يهيمن على الجو ،
ويُنزل من السماء المطر والثلج ، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء
لينزل لها المطر (١٠٤) :

ولسنا ندرى متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء ، عند الديانة البدائية ؛ وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محدداً لفصول البذر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خيرات ؛ عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذى نفخ الحياة فى كل شىء حى (١٠٥) ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها ؛ ألم يتقنص اليونان على أناكسجوراس بالنفى لأنه استباح لنفسه أن يذهب بالظن مذهبا مؤداه أن الشمس ليست لها ، بل هي كرة من النار تقرب فى حجمها من « بلونيز » ؟ وكذلك استبقت العصور الوسطى بقية من عبادة الشمس فى الهالات التى كان الناس يصورونها حول رموس القديسين (١٠٦) ، وإمبراطور اليابان فى أيامنا هذه محدود عند معظم شعبه بأزه تجسيد لإله الشمس (١٠٧) ، الحق أنك لا تكاد تجد خرافة من خرافات العصر القديم إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم ؛ إن المدينة صنيعة أقلية من الناس أقاموا بناءها فى أناة واستمدوا جوهرا من حياة الترف ؛ أما سواد الناس وعمارهم فلا يكاد يتغير منهم شىء كلما مرت بهم ألف عام .

وكل نجم شأنه شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهاً وهو بذاته إله ، ويتحرك بأمر روح كامن فى جوفه ؛ وهذه الأرواح فى ظل المسيحية أصبحت ملائكة تهدى سواء السبيل ، أو إن شئت فقل أصبحت لأفلاك السماء قادة تسلك بها فى مسالكها ، حتى « كهار » لم يبلغ من النظرة العلمية مبلغاً يحمله على إنكارها ؛ والسماء نفسها كانت إلهاً عظيماً ، تقام لها العبادة فى تبتل لأنها هى التى تُنزل الغيث أو تحبسه ؛ وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة « الله » لتعنى « السماء » ولفظ الله عند « اللوبارى » و « الدنكا » معناها المطر ، كذلك كانت السماء

عند المنغوليين هي الإله الأعظم ، وكذلك الحال في الصين ، وفي الهند الفيدية أيضاً ، معنى كلمة الله هو « السماء الوالدة » ، والله عند اليونان هو ريوس أو السماء « مرعثة السحاب » وهو « أهورا » عند الفرس ، أى السماء الزرقاء (١٠٨) .

ولا نزال في أيامنا هذه نضرع إلى « السماء » أن تقينا الشرور ، ومعظم الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الحصب الذي نتج عن تزواج الأرض والسماء .

لأن الأرض هي الأخرى كانت إلهاً ، وكل مظهر رئيسي من مظاهرها كان يقوم على أمره إله ؛ فللشجر أرواح كما لبني الإنسان سواء بسواء ، وقطعُ الشجرة معناه قتلٌ صريح ؛ وكان الهنود في أمريكا الشمالية أحياناً يعزّون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التي كانت أرواحها تقي « الحُمْر » من الأذى ؛ وفي جزر « مولقاً » كانوا يعتبرون الأشجار أيام الإزهار حواملَ أجنّة ، فلا يجيزون إلى جوارها ارتفاع الصوت أو إشعال النار أو غير ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدوا على الأشجار الحبلديات سكونها ، وإلا لجاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها كما تجهض المرأة إن ألم بها الفرع ؛ وكذلك في « أبويننا » Abouyna لا يؤذن بالأصوات العالية على مقربة من الأرض إذا ما ازهرت سنبله خشية أن يصيبه الإجهاض فينقلب أعواداً من القش العقيم (١٠٩) و « الفال » القدماء عبدوا أشجار غابات معينة كانت لديهم مقدسة ، وكذلك القساوسة « الدرديون » Druid في إنجلترا اجتدوا ديتقَ أشجار البلوط ، الذي لا يزال يوحى إلينا بشعيرة من الشعائر المحبة إلى نفوسنا ؛ وأقدم عقيدة دينية في آسيا — مما تستطيع أن تتعقبه إلى أصوله التاريخية — هي تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال (١١٠) فكثير من الجبال كان أماكن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مفرأ ترسل منه ما شات من صواعق ؛ وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدرأ فهزوا أكتافهم ويعلل أهل « فيجي » الزلازل بأن إله الأرض يتقلب في نومه ؛ وإذا ما زلزلت

الأرض عند قبيلة « ساموا » أخذوا يقربون الأرض بأسنانهم ويتهلون إلى الإله « مافوى » Mafuie أنه يسكن حشية أن تتمزق الأرض كلها لإربا لإربا^(١١١) ؛ والأرض عند الناس فى شتى النواحي المعمورة تقريباً هى « الأم الكبرى » فاللغة الإنجليزية التى كثيراً ما تكون بمثابة الرواسب التى تجمعت فيها العقائد البدائية أو اللاشعورية ، تشير حتى اليوم بصلة القرى بين المادة والأمومة (مادة معناها Matter والأم معناها Mother)^(١١٢) وليس « إشتّر » « وسيل » و « ديميتير » و « سيريز » و « أفروديت » و « فينيس » و « فرييا » إلا صوراً متأخرة نسبياً لإلهات الأرض الأوليات اللاتى خلعن من خصوبتهن خصوبة على الأرض فأخرجت من جوفها الخيرات ؛ وما رواه الناس عن ولادة هؤلاء الإلهات وزواجهن وعن موتهن وعودتهن منتصرات إلى الحياة ، إن هو إلا رموز أو تعليل لظهور النبات ثم نجفاه ، والتجديد والملاحظ الذى يطرأ على حياة النبات حيناً بعد حين ؛ وهذه الإلهات تدل بأنوثتهن على أن الإنسان البدائى قد ربط بين الزراعة والمرأة ؛ فلما أصبحت الزراعة هى الصورة السائدة فى الحياة الإنسانية ، كانت إلهات النبات هى سيدة الإلهات جميعاً ، ومعظم الأرباب فى العصر القديم كان من النساء ، ثم حل محلهن الآلهة الذكور ، حين ظهرت الأسرة الأبوية فوق الأرض ظافرة^(١١٣) وكما يرى العقل البدائى فيما يقول من شعر عميق سرّاً إلهياً فى نمو الشجرة ، كذلك يرى يداً إلهية فى حمل الجنين أو ولادته ؛ إن « الهمجى » لا يعرف شيئاً عن البويضة والحرثومة المنوية ، لكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينيه ، التى تشترك معاً فى هذه العملية فيؤلفها ، فهى كذلك تكن فى جوفها الأرواح ولابد من عبادتها ، أليست هذه القوى الخلاقة العجيبة فى سرّها ، أعجب الكائنات جميعاً ؟ فيها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر فى تربة الأرض نفسها ؛ وإذن فلا بد أن تكون أقرب ما تجسّد فيه الآلهة قوّتها ؛ وتوشك الشعوب البدائية جميعاً أن تعبّد الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من

الشعائر ؛ ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنيّة ، هو الذى عبّر عن هذه العبادة تعبيراً كاملاً ؛ وسرى هذه العبادة فى مصر والهند وبابل وآشور واليونان والرومان ؛ كان الناس يحلون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسى من آلتهم البدائية إجلالاً عظيماً (١١٤) لأنهم يرون فى ذلك شيئاً من الخفاشية بل لأنهم يرتبطون ارتباطاً وجدانياً بالخصوبة فى المرأة وفى الأرض ؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والتعبان لأن لها - فيما يظهر - القوة الإلهية فى الإنسال ، أو قلّ لأنها يرمزان لتلك القوة فلا شك أن التعبان فى قصة عدن رمز جنسى يمثّل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشر كله ، ويوحى بأن البقطة الجنسية هى بداية الخير والشر ، وربما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سداجة العقل ونعيم الفردوس (*)

وتكاد لا تجد حيواناً فى الطبيعة كلها - من الجعّل (الجران) المصرى إلى الفيل عند الهندوس - لم يكن فى بلد ما موضع عبادة باعتباره لها : فهنود « أوجيوا » Ojibwa أطلقوا اسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذى يعبدونه ، وعلى العشيرة التى تعبد ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ؛ ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسماً على مذهب « الطوطمة » الذى يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشيء معين - وعادة يكون الشيء المعبود حيواناً أو نباتاً - تتخذ جماعة ما موضع عبادتها ؛ ولقد وجدنا أنواعاً مختلفة من الطواطم فى أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة ، من قبائل الهنود فى شمال أمريكا ، إلى أهل أفريقيا وقبيلة « درافيد » Daravians فى الهند ، وقبائل - استراليا (١١٥) ؛ ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً . على توحيد القبيلة التى ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معاً برباطه ، أو هبطوا جميعاً من سلالة ؛ فقبيلة « لراكو » تعتقد - على نحو شبيه بما يذهب إليه دارون - أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الديبة

(*) انظر الفصل الثانى عشر ، الفقرة السادسة ، من الجزء الخاص بالشرق الأدنى .

والذئاب والغزلان ، وأصبح الطوطم — باعتباره شعاراً أو رمزاً — علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قُبْرَى ، وتميزهم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور في صور عكسانية فكان منه التمام والشارات ، كهذا الذى تتخذه الأمم . من شعارات لها كالأسد أو النسر ، أو الأيل الذى تتخذه الجمعيات التى تعمل على الإخاء بين الناس ، أو هذه الحيوانات الخرساء التى تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم ، لتمثيل رسوخ القبلة أو صخب البغال ؛ وكانت الحمامة والسمة والحمل ، فى رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم فى تمجيد الطوطم ؛ بل إن الخنزير الوضيع كان يوماً طوطماً لليهود السابقين للتاريخ^(١١٦) ؛ وفى معظم الحالات كان الطوطم محرماً لا يجوز لمسه ؛ ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلاً تعبدياً^(*) ، وقبيلة « غالا » فى الحبشة تاكل السمكة التى تعبد بها فى احتفال دينى رصين ، ويقول أبناؤها : « إننا نشعر بالروح تتحرك فينا إذ نحن نأكلها » ؛ وما كان أشد دهشة المبشرين الأطهار ، إذ هم يبشرون بالإنجيل لقبيلة « غالا » أن وجدوا بين هؤلاء السذج شعيرة شديدة الشبه بالقُدّاس عند المسيحيين^(١١٧)

ويجوز أن قد كان الخوف أساس الطوطمة ، كما هو أساس كثير من العبادات ، وذلك بأن يكون الإنسان قد عبّد الحيوان لقوته ، فلم يتردّد من استرضائه ، فلما أن طهر الصيد الغابة من وحشها ، ومهد الطريق للطمأنينة التى تنوقز فى الحياة الزراعية ، قلّت عبادة الحيوان ولو أنها لم تُزل تمام الزوال ؛ وربما استمدت

(*) يعتقد فرويد بما له من خصوصية فى الخيال يتميز بها ، أن الطوطم هو صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذى يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته ، فيثورون عليه ويأكلونه^(١١٧) ويرى دركهايم أن الطوطم رمز للمشيئة يهابه الفرد ويمقتّه (ومن هنا كان « مقدساً » و « نجساً » فى آن معاً) لشدة سلطانه عليه سلطاناً لا يذلل ولا استبداده استبداداً يخرج الصدر ، وأن الشعور الدينى فى أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولى الأمر فى جماعته الذين يبدىهم السلطة^(١١٨)

الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التي جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلاً ؛ والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح في القصص المشهورة التي تروى لنا تحول الصورة الإلهية ، والتي تراها في « أوفد » الشاعر ، وفي كل شاعر من قبيلة من تراثهم في لغات الأرض جميعاً ، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدها ظلت صفات الحيوان لاحقة بالآلهة لا تتركها ، كما تظل رائحة الاصطبل لاحقة بمكانه حتى بعد تحويلة قصراً ريفياً منيفاً ؛ حتى في « هومر » الذي كان قد بلغ من الرقي مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة « جلوكوبس أثيني » لها عينا بومة ، و « هيري بوبس » لها عينا بقرة ؛ والآلهة أو الغيلان في مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتتعترف بالحقيقة عنها ، وهي أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية (١٢٠) .

ومع ذلك فعظم الآلهة البشرية قد كانوا - فيما يظهر - عند البداية رجالات من الموق ضخموا بفعل الخيال ؛ فظهور الموق في الأحلام كان وحده كافياً للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف ، فهي على الأقل زميلته ؛ وخصوصاً مَنْ كانوا أقوياء إبان حياتهم ، فألقوا الخوف في نفوس الناس ؛ هؤلاء يرجح جداً أن يُعْبَدُوا بعد موتهم (١٢١) ، ولذلك نجد الكلمة التي معناها « إله » عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها في الحقيقة « رجل ميت » ؛ وحتى اليوم ، ترى كلمة « Spirit » في الإنجليزية وكلمة « Geist » في الألمانية معناهما إما روح وإما شبح ؛ وكان اليونان يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقدسين (١٢٢) ؛ ولقد بلغت العقيدة في استمرار حياة الموق - وهي عقيدة تولدت في بدايتها من الأحلام - مبلغاً عظيماً حتى جعل البدائيون أحياناً يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفي الدقيق ؛ ففي قبيلة من القبائل ، إذا ما أراد الرئيس أن يعث بخطاب لميت ، أسمع له بعد ثم قطع رأس العبد ليؤدي الرسالة ، فإذا نسي

الرئيس شيئاً كان يريد ذكره في الخطاب ، أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون « حاشية » للخطاب الأول (١٢٣)

ثم تدرجت عبادة الأشباح حتى أصبحت عبادة للأسلاف ؛ فقد بات الناس يخافون موتاهم جميعاً ويعملون على استرضائهم خشية أن يُنزلوا لعنائهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ؛ وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهياة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، وللتمكن من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعاً سريعاً في كل أرجاء المعمورة فازدهرت في مصر واليونان وروما ، ولا تزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة في اليابان والصين الآن ؛ وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم إله (١٢٤) (*) ؛ ولقد عمل هذا الاتجاه على ربط أواصر الأسرة ربطاً وثيقاً ؛ على الرغم من كراهة الخلف لهذا النظام ؛ وكذلك كان لكثير من المجتمعات البدائية بمثابة إطار خفي^١ ينظم الأفراد في مجموعة متماسكة ؛ وكما أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً ، فكذلك الخوف تطور حتى أصبح حبساً ؛ فشعائر عبادة الناس لأسلافهم ، التي يرجح أنها كانت وليدة الخوف في أول الأمر ، قد أثارت في القلوب بعدئذ شعور الرهبة ، ثم تطورت أخيراً إلى ورع وتقوى ؛ وكذلك ترى الانجاء في الآلهة أن يبدعوا في صورة الغيلان المفترسة ثم ينتهون في صورة الآباء الذين يحبون أبناءهم ؛ وهكذا يتحول الصنم المعبود على مر الزمن إلى مثل أعلى منشود ، كلما عملت زيادة الاطمئنان والأمن والشعور الخلقى لدى العابدين على الحد من وحشية آلهتهم كما تصورها أولاً ، وتخوير ملامحهم تخويراً يلائم الطور الجديد ؛ إن البطء في سير المدنية ليمثل في تأخر المرحلة التي أحس فيها الناس بحب آلهتهم .

(*) بقايا عبادة الأسلاف لا تزال قائمة بيننا متمثلة في عنايتنا بالقبور وزيارتها ،
هوى قداسنا وصلواتنا من أجل الميت .

إن فكرة إله بشرى لم تظهر في مراحل التطور الطويلة إلا أخيراً ؛ وقد برزت في صورة واضحة بعد اجتيازها لمراحل كثيرة أخرجتها من تصور الإنسان لحيط خضم* أولحشد كبير من الأرواح والأشباح تحيط بكل شيء وتعمر كل شيء ؛ ثم انتقل الإنسان من خوفه وعبادته لأرواح غامضة المعالم مبهمة الحدود ، إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية ، ثم إلى خشوعه للحيوان وعبادته للأسلاف ، والأرجح أن تكون فكرة الإنسان عن الله بأنه « أب » قد تفرعت عن عبادة الأسلاف ، لأن معناها في الأصل هو أن الناس قد هبوا من الآلهة بأجسامهم ، لا بأرواحهم فقط (١٢٥) . ولذا لا تجد في اللاهوت البدائي حداً قاصلاً متميزاً من حيث النوع بين الآلهة والناس ؛ فعنسد اليونان الأقدمين - مثلاً - كان الأسلاف آلهة والآلهة أسلافاً ؛ وتلت ذلك خطوة أخرى في التطور ، حين ميّزَ الناس من بين هؤلاء الأسلاف الخليط رجال ونساء بعيثهم ، كان لهم امتياز خاص دون سائر الأسلاف ، فأسبغوا عليهم لونا أوضح من الربوبية الصريحة ؛ وبهذا أصبح أعلام الملوك آلهة حتى قبل موتهم أحياناً ؛ لكننا إذا ما بلغنا من التطور هذه المرحلة فقد بلغنا المدنية التي دونها التاريخ .

٣ - طرائق الدين

السحر - طقوس الزراعة - أعياد الإباحة - أساطير الإله المبعوث - السحر
والخرافة - السحر والعلم - الكهنة

لما تصور الإنسان البدائي عالماً من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ، فقد عمل على استرضائها واجتلابها في صفته لمعونته ؛ ومن هنا كانت إضافته إلى الروحانية التي هي جوهر الديانة البدائية ، سحراً هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ؛ فقد تصور البولينيزيون خضماً حقيقياً مليئاً بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم « مانا » . وكان الساحر في رأيهم إنما يُقَطَّر لهم قطرات ضئيلة من هذا المورد الذي لا ينتهي ،

والذى يستمد منه قدرته على السحر ؛ وكان ما يسمى « بالسحر التمثيلي » هو أول الطرائق التى كسب بها الإنسان معونة الأرواح أولا والآلهة ثانيا - وهو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن يؤدوها له ، كأنه بذلك يغير بهم بتقليده ، فمثلا إذا أراد الناس أن يستنزلوا المطر ، صَبَّ الساحر ماء على الأرض ، والأفضل أن يصبّه من أعلى الشجرة ؛ ويحكى عن قبيلة الكفير أنها حين تَهْدَدُّهَا الجفافُ ، طلبوا إلى مبشِّرٍ أن يذهب إلى الحقول ويفتح مظلتَه (١٢٦) ؛ وفى سومطره ، تصنع المرأة العقيم صورة طفل تضعها على حِجْرِها راجية أن يحييها بعد ذلك الجنين ؛ وفى « أرخبيل بابار » تصنع المرأة - إذا ما أرادت لنفسها الأمومة - عروسا من قطن أحمر ، وتقوم بحركات لإرضاعها ، وتقول صبيغة سحرية معلومة ؛ ثم تبعث إلى القرية بمن يُشيع أنها حملت ، فيجىء أصدقاؤها لتهنئتها ؛ الحق أنه لا يستطيع أن يرفض تحقيق هذا الخيال إلا واقعٌ عنيد ؛ وفى قبيلة « دياك » فى بورنيو ، إذا أراد الساحر أن يخفف آلام امرأة تضع ، يقوم هو نفسه بحركات الوضع على سبيل التمثيل ، لعله بذلك يوحى بقوة سحره إلى الجنين أن يظهر ، وأحيانا يدحرج الساحر حجرا على بطنه ثم يسقطه على الأرض ، آملا أن يقلده الجنين المستعصي فتسهل ولادته ؛ وفى العصور الوسطى كانوا يسحرون الشخص بأن يغزو الدبابيس فى تمثال من الشمع يمثل صورته (١٢٧) وهنود بيرو يحرقون الناس ممثِّلين فى دُمَاهم ، ويطلقون على هذا اسم إحراق الروح (١٢٨) ، وليس سواد الناس فى العصر الحاضر بأرقى من هذا السحر البدائى فى تخريفهم

كانت طرائق الإيحاء بالتمثيل تُستخدم بصفة خاصة لإخصاب التربة ، فأرباب العلم فى زولويشوون الأعضاء التناسلية للرجل إذا مات فى عنقوانه ، ثم يطحنونها ويسحقونها رمادا يذرّ فوق الحقول (١٢٩) ؛ وبعض الشعوب تختار للربيع ملكا وملكة من بين رجالها ونسائها ، وتزوجهما فى حفل علنى ، لعل التربة تصفى إلى الحفل ومغزاه فتسرع إلى إزهار النبات ؛ بل لهنم فى بعض

البلدان بضيغون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلاً بعملية الزواج عتاً ، حتى لا يتركوا للطبيعة - على الرغم من أنها ليست سوى طين بارد جامد - عذراً بأنها لم تفهم الواجب الذى طُلب إليها أدائه ؛ وفى جاوة ، يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالاً جنسياً فى حقول الأرز ليضمّنوا خصوبة إنتاجها (١٣٠) ذلك لأن البدائيين لم يفهموا نمو النبات بلغة التروجين ، بل فهموه - بالطبع دون أن يعلموا أن للنبات ذكوراً وإناثاً - على نفس الأساس الذى كانوا يعللون به إثمار المرأة ؛ ثم أليس فى استعمالنا لكلمات مثل إثمار للطبيعة وللطبيعة وللمرأة معاً ، ما يذكرنا بعقيدتهم تلك وما تنطوى عليه من شعر ؟

وتقام أعياد يختلط فيها الجنسَان اختلاطاً بغير ضابط ، وهى فى معظم الحالات إنما تقام فى فصل البدر ، بمثابة أمرٍ بوقف القوانين الخلقية حيناً (وهى تذكر الناس بما كان فى علاقاتهم الجنسية فى أيامهم الماضية من حربى نسبية) والغاية من هذه الأعياد إخصاب زواجات مَن بهم عقم من الرجال من جهة ، وإحياء للأرض فى فصل الربيع بأن تخرج عن تعفظها الذى لازمته أيام الشتاء ، لتتقبّل ما بذروه فيها من بذور ، وتبث نفسها لإخراج نتاج طيب من القوت ، وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية ، وخصوصاً بين أهل كامرون فى الكنغو ، والكفير ، والهو تنوت ، والبانتو وفى ذلك يقول « ه . رولى » H. Rowley وهو من رجال الدين فى بانتو :

« إن أعياد الحصاد شبيهة فى خصائصها بأعياد « باخوس » (عند اليونان) ... فإنه يستحيل على إنسان أن يشاهدها دون أن يأخذ الحجل . . . فهم لا يكتفون فى هذه الإباحة الجنسية الكاملة بضمٍّ من تنصّر حديثاً ، بل لا يكتفون بضمٍّ من طال أمد تنصّره ، لكنهم يُغثرون أى زائر وقف ليشاهد حفلهم بالانغماس معهم فى إباحتهم ؛ عندئذ لا يحول الناس حائلٌ دون الانغماس فى الدعارة ، وهم لا ينظرون إلى الزنا نظرةً فيها أثر من معنى البشاعة ، بسبب الظروف

التي تحيط بهم حينئذ ، بل إنهم لا يسمحون لرجل حضر الاحتفال أن يضاجع زوجته» (١٣١) .

وتظهر أعياد كهذه في عصور المدنية التي دوتها التاريخ ، فاحتفالات « باخى » عند اليونان ، وأشباهاها في روما وفي فرنسا إبان العصور الوسطى وفي إنجلترا وسائر الاحتفالات التهرجية التي نشاهدها في عصرنا ، كل هذه من قبيل الأعياد الإباحية القديمة .

على أن شعائر الزراعة هذه تتخذ في بعض البلاد هنا وهناك صورة أقل ظرفاً مما ذكرنا — كما هي الحال عند البونيين Pawnees وعند هنود جواياكيل ؛ فرجل " يُضْحَى به في وقت البذر حتى تَخْضِبَ الأرض بدمائه — وفيما بعد خَفَتْ الصورة بعض الشيء ، فاكْتَفَوْا بِذَبْح الحيوان قرباناً — ؛ حتى إذا ما حلَّ موسم الحصاد فَسَّرُوهُ بأنه بَعَثٌ للرجل الذي مات ضحيةً ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ؛ ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التي تَرَوَى في ألف صورة مختلفة كيف يموت الله في سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافراً (١٣٥) ؛ وعمل الشعر على زخرفة السحر حتى حوَّله ضرباً من اللاهوت ؛ واختلطت الأساطير تُروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطاً فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التي تَرَوَى عن موت الإله وعودة ولادته - لا يقتصر مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض في الربيع بل جاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين : الصيف والخريف ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ؛ ذلك لأن حاول الليل لم يكن إلا جزءاً من هذه المأساة ؛ فالله الشمس . وت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة ؛ فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور . والظاهر أن التضحية بالإنسان — التي ذكرنا من شتى صنفاتها مثلاً واحداً — قد أخذها الإنسان في كل الشعوب تقريباً ، فظهر هاهنا يوماً وهناك يوماً ؛

فقد وجدنا في جزيرة كارولينا في خليج المكسيك تمثالا كبيراً معدنية أبوف لإله مكسيكي قديم ، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية ، لاشك أنها ماتت بالحرق قربانا لله (١٣٣) ، وكلنا يسمع عن « ملُخْ » الذي كان الفينيقيون والقرطاجنيون ، وغيرهما من الشعوب السامية حيناً بعد حين ، يقدمون له القرابين من بني الإنسان ؛ ولقد شهد عصرنا الحاضر هذه العادة قائمة في روديسيا (١٣٤) وربما كان منشأ هذه العادة أكل البدائين للحوم البشر ، فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون ؛ ولما كانت العقيدة الدينية أبطأ تغيراً من سائر العقائد ، ثم لما كانت الشعائر الدينية أبطأ تغيراً من العقائد نفسها ، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحم الإنسان ، وبقى التقليد قائماً بالنسبة للآلهة (١٣٥) ؛ ومع ذلك فقد تغيرت حتى هذه الشعائر الدينية بفضل تطور الأخلاق ، بحيث طفق الآلهة يقلدون عبادهم الزيادة من اصطناع الرقّة ، واستسلموا للوضع الجديد فقبلوا لحم الحيوان طعاماً بدل لحم الإنسان ، فَضَحَّى بغزال بدل التضحية بافيجينيا (في أساطير اليونان) فما ضَحَّى بكبش بدل التضحية بابن لإبراهيم ؛ ومضى الزمان في تقدمه ، فحرمت الآلهة حتى هذا الحيوان ، لأن الكهنة آثروا أنفسهم بالطعام الشهيّ ، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة ، ثم بهَيَّبُون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها (١٣٦) .

ولما كان الإنسان الأول يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ، فقد كان من الطبيعي أن تَرِدَ على خاطره فكرة أكل الإله ؛ ففي كثير من الحالات كان يأكل لحم الإله البشري ويشرب دمه ، ذلك الإله الذي عبّده وسمّنه استعداداً للتضحية به ؛ لكن الطعام كثرت موارده وضمن الإنسان اطّاعه ، فانهى ذلك إلى زيادة الرحمة في فؤاده ، ولذلك استبدل بالتضحية الإلهية رموزاً على هيئتها ، واقتنع بأكلها ، ففي المكسيك القديمة ، كان يُصنع تمثالٌ لله من الغلال والحبوب والخضر ، يُعجن بدماء صبيان يضحى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلونه على أنه بديل

دينىّ لأكل الله نفسه ؛ وأشباه هذه الاحتفالات الدينية وجدناها بكترة في القبائل البدائية ، وكانت العادة أن يطلب إلى الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ، وكان الكاهن ساعثئذ يقول بعض العبارات السحرية ليحوّل بها التمثال المأكول إلى إله حقيقى (١٣٧) .

ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهى بالعلوم ، فألوف من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ، ثم نشأ عنها صلوات وطقوس عجيبة ؛ فقبيلة « كوكى » Kukis كانت تلهب حماسة أبنائها في القتال بزعمها لهم أن الأعداء القتلى سيكونون لهم عبيداً في الحياة الآخرة ؛ ولكنك من ناحية أخرى ترى الرجل من قبيلة « بانتو » Bantu إذا قتل عدوّاً له ، حلق رأس نفسه ، وطفى نفسه بروث الماعز ، لينج روح الميت من العودة إليه والفتك به ؛ وتكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على فيعمل اللعنات وشر « العين الحاسدة » (١٣٨) فلم يشك الاستراليون الأصليون في أن اللعنة ينطق بها الساحر القويّ ، تقضى على حياة اللعين وإن يكن منه على بعد مائة ميل ؛ وبدأت العقيدة في السحر في أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم تنزل عن الإنسان قط زوالاً تاماً ؛ وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتمائم ، أرسخ في القدم من المحر نفسه وأثبت منه جذوراً في النفوس ؛ ولما كانت التمايم تُحدّد لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تميمة أثر في ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تُثقل أنفسها بأحمال منها لكي يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفجأهم به الأيام (١٣٩) والأحجبة إن هي إلا صورة متأخرة في الظهور ، ومثّل من الأمثلة التي تعاصرنا ، من الأصنام أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوروبا يلبسون المُدَلّيات والتمائم ليستمدوا بواسطتها وقاية ومعونة من وراء الطبيعة ؛ إن تاريخ المدنية ليعلمنا في كل خطوة من خطوات سيره ، كم تبلغ قشرة الحضارة من الرقة والوهن ، وكيف تقوم المدنية على شفاجرُف هارٍ فوق

قمة بركان لا يخمّد سعيه ، من وحشية بدائية وخرافة وجهل مكبوت ،
إن المدنية العصرية ليست سوى غطاء وُضِع وضعاً على قمة العصور الوسطى ،
ولا تزال تلك العصور ولن تزال باقية .

ولا يسع الفيلسوف إلا أن يَقْبَل راضياً هذا الفقر من الإنسان إلى
معونة مما فوق الطبيعة تبعث في نفسه الطمأنينة ؛ ويجد لنفسه العزاء في
علمه بأن الأدب المسرحي والعلوم تنشأ عن السحر ، كما ينشأ الشعر عن
مذهب الروحانية ؛ فقد بين لنا « فريزر » Frazer — في شيء من المبالغة
لا نستغربه من مبدع موهوب — أن أجداد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات
السحر ؛ لأنه كلما أخفق الساحر في سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافاً
لقانون من قوانين الطبيعة ، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطبيعية في
أحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر ؛ ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود
وترجح كفتها شيئاً فشيئاً ، ولو أن الساحر كان دائماً يخفى هذه الوسائل
الطبيعية ليحفظ بمكانته عند الناس ، ما استطاع إلى إخفائها من سبيل ،
بأن يعزو الظاهرة التي أحدثها للسحر الذي استمدّه من القوى الخارقة
للطبيعة — وهذا شبيه جداً بأهل هذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعي
لوصفات وعقاقير سحرية ؛ وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا
الطبيب والصيدلي ، وعالم المعادن ، وعالم الفلك (١٤٠) .

لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها في سائر ضروب العلماء ؛ ذلك
لأنه لما تعددت ظفوس الدين وتعددت ، لم يَعُدَّ الرجل العادي يقدر على استيعابها
جميعاً والإلمام بها جميعاً ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها في مهام
الدين ومخافله ؛ وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الدهول
الروحي وتلقّي الوحي وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح
أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى ما فيه نفع الإنسان ؛ ولما كان
هذا الضرب من العلم والمهارة هو في رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعاً ،

ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها في حياة الإنسان عند كل منعطف في الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ، وجعل الكاهن (أو القسيس) منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندي المقاتل في سيادة الناس والإمساك بزمامهم ، حتى لقد راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا في التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوروبا في العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقاً ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسي ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات ؛ فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألاعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ؛ نعم إن الكاهن قد أضرَّ الناس بإبقائه على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة ، لكنه مع ذلك عمل على حصر الخرافة في نطاق ضيق ، وكثيراً ما كان يحمل الناس على إهمال شأنها ؛ وهو الذي لقّن الناس بداية التعليم والتهذيب ، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافي الإنساني المتزايد ؛ وكان عزاء للضعيف في استغلال القوى له استغلالاً لم يكن عنه منصرف ولا محيص ؛ كما أصبح الفعل الفعال الذي أعان الدين على تغذية الفنون ، وتدعيم بناء الأخلاق الإنسانية المترنح بدعامة من القوة العليا ؛ فلو لم يجد الناس بينهم كاهناً لخلقوه لأنفسهم خلقاً .

٤ - مهمة الدين الخلقية

الدين والحكومات - المهرمات الجنسية - تأخر الدين - التحول العلماني

الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمهرمات ، فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيها وراء الطبيعة ، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع (أو يريد الكهنة) بقاءها ؛ فإيرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يحشاه لديها من عقاب ، يضطرد اضطراراً أن يذعن للقيود

التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعاً رقيقاً طاهراً وليس شيء كالتخوف من الآلهة -- وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديماً فأنشأ في نفسه الضمير -- أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي لا تتفق وطبيعته إخضاعاً مطّرداً صامتاً ؛ فأنظمة الملكية والزواج. تتوقف إلى حد ما على العقوبات الدينية وهي تميل إلى فقدان قوتها في العصور التي يسود فيها الشك الديني ؛ بل الحكومة نفسها التي هي أهم أداة اجتماعية اصطنعها الإنسان ، وأبعد أداة عن طبيعة الإنسان ، كثيراً ما استعانت بالتقوى وبالكاهن ، كما فعل أذكيا الهراطقة مثل نابليون وموسوليني اللذين لم يلبثا أن كشفنا عن هذه الحقيقة ؛ ومن هنا كان ثمة « ميل إلى قيام دولة دينية كلما نشأت الدساتير » (١٤١) ؛ فلئن كانت قوة الرئيس البدائي تستمد الزيادة من السحر والعرافة ، فإن حكومتنا (*) نفسها تستمد بعض القوة من اعترافها السنوي « بإله المهاجرين » .

وأطلق أهل « بولنيزيا » كلمة « تابو » (ومعناها التحريم) على ما يحرمه الدين ؛ فلما تقدمت المجتمعات البدائية بعض الشيء ، اصطنعت هذه الحرمات الدينية مكانة هي التي أصبحت في ظل المدنية مكانة القوانين ؛ وكانت صيغة التحريم عادة سالبة : فبعض الأفعال وبعض الأشياء أعلن عنها أنها « مقدسة » أو « نجسة » وكان اللفظان في الواقع يعنيان نذيراً واحداً ، وهو أن تلك الأفعال أو الأشياء لا يجوز لمسها ؛ « فتأبوت العهد » مثلاً كان محرماً ، ويُرَوَى عن « عَزَّى » أنه سقط صعباً عند لمسِه لمنعه من السقوط (١٤٢) ؛ ويؤكد لنا « ديودورس » عن المصريين القدماء أنهم أكل بعضهم بعضاً إبان المجاعة ، فذلك أثر عندهم من الاعتداء على تحريم أكل الحيوان الذي اتخذته القبيلة طوطماً لها (١٤٣) ؛ وإذ لك ليجد في معظم الجماعات البدائية عدداً كبيراً جداً من هذه الحرمات ، فكللمات معينة وأسماء معينة ما كان لها قط أن تُنطق ، وأيام معينة

(*) يقصد الولايات المتحدة . (المعرب)

وهصول معينة كانت من المحرمات بمعنى أن القتل لم يكن يؤذن به خلالها ؛ وكل معرفة البدائين بحقائق الغذاء ، وبعض جهلهم بتلك الحقائق ، كان سبيلها إليهم تحريمات معينة أقامها الناس على ألوان الطعام ، فهم لم يلتفتوا مبادئ الصحة عن طريق العلم أو عن طريق الطب العثماني بقدر ما لفتوها عن طريق الدين .

وكانت المرأة أهم ما اتجه إليه التحريم عند البدائين فآلاف الخرافات نشأت عن المرأة لتجعلها ، آنا بعد آن ، مُجَرَّمَة للمس ، خطيرة ، نجسة ؛ إن منشئ الأساطير في أنحاء العالم لم يكونوا أزواجاً موفقين ، لأنهم متفقون جميعاً على أن المرأة أساس الشر كله ، فلم يقتصر هذا الرأي على الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل جاوزهما إلى مئات من الأساطير الوثنية ؛ وأدق التحريمات البدائية كان خاصاً بالمرأة إبان حيضها ، فكل من لمسها أو كل ما لمسها في هذه الفترة فقد فضيلته إن كان إنساناً ، وضاعت فائدته إن كان غير ذلك ؛ فحرم « الماكوزى » Macusi من أهل غيانة البريطانية على نسائهم أن يستحممن إبان حيضهن خشية أن يسممن الماء ، كما حرموا عليهن الذهاب إلى الغابة في مثل هذه الفترات ، حتى لا تعضن الثعابين غراماً بهن (١٥٥) ؛ حتى الولادة كانت عندهن نجسة ، وكان على الأم بعدها أن تطهر نفسها في كثير جداً من الطقوس الدينية ؛ والعلاقة الجنسية حرام في معظم القبائل البدائية ، ليس فقط إبان فترات الحيض ، بل كذلك أثناء الحمل والرضاعة ، ولعل هذه التحريمات قد أنشأها النساء أنفسهن بما لهن من إدراك سليم وما يبغيان لأنفسهن من وقاية وراحة ، لكن الأصول سرعان ما تُنسى ، وتنظر المرأة فإذا هي « مشوبة » وإذا هي « نجسة » ؛ وانتهى بها الأمر إلى أن توافق الرجل على وجهة نظره ، وراحت تشعر بالعار في حيضها ، بل في حملها ؛ ومن التحريمات وأمثالها نشأ الحياء ونشأ الشعور بالخطيئة ، والنظر إلى العلاقة الجنسية على أنها نجاسة ، وكذلك نشأ التقشف وعزوبة الرهبان ونشأ إخضاع النساء .

ليس الدين أساس الأخلاق ، لكنه عون لها ، فقد يمكن تصور الأخلاق

بغير دين ، وليس بالأمر النادر أن تتطور الأخلاق في طريقها إلى التقدم بينما يبقى الدين لا يلبه لها ، أويقاومها مقاومة عنيدة ؛ ففي الجماعات الأولى ، وفي بعض الجماعات المتأخرة ، كانت الأخلاق فيما يظهر على أتم استقلال عن الدين ، وفي مثل هذه الحالة لا يُعنى الدين بقواعد السلوك ، بل يُعنى بالسحر والطقوس وتقديم القرابين ، والرجل الطيب عندئذ هو من يؤدي محافل الدين أداء المطيع ، ويمدها بماله في ولاء وإخلاص ؛ والدين بصفة عامة لا يترعى الخير المطلق (إذ ليس هناك خير مطلق) ، بل يرمى معايير السلوك التي وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؛ وهو كالفنانون يلتفت إلى الماضي ليستمد منه أحكامه ، وهو قين أن يتخلف في الطريق كلما تغيرت الظروف وتغيرت معها الأخلاق ؛ فقد تعلم الإغريق مع الزمن أن يمتقوا مضاجعة المحارم ، مع أن أساطيرهم كانت ما تزال تمجد الآلهة الذين يفعلون ذلك ، والمسيحيون يصطنعون نظام الزوجة الواحدة بينما لإنجيلهم يحلل تعدد الزوجات ؛ وامتنع الرق امتناعاً تاماً بينما المتدينون كانوا يدفعون عن قيامه بشواهد من الإنجيل لا تُنقض ؛ وفي يومنا هذا نرى الكنيسة تقاتل قتال الأبطال لتقيم تشريعاً خلقياً قضت عليه الثورة الصناعية قضاء مبرماً لاشك فيه ؛ فالعوامل الأرضية هي التي تسود آخر الأمر ، والأخلاق ثوائم بين نفسها وبين المستحدثات الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، ثم يتحرك الدين كارهاً فيوفى بين نفسه وبين الأخلاق الجديدة(*) ؛ إن الوظيفة الخلقية للدين هي أن يحافظ على القيم القائمة ، أكثر مما يخلق قيماً جديدة .

ومن هنا كان من علامات المراحل العليا في كل مدينة أن يحدث التجاذب بين الدين والمجتمع ؛ يبدأ الدين بمقدّم من السخر يقدمه للناس في حيرتهم وارتباكهم ؛ ثم يصعد إلى قمة مجده بمقدّم من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتعجز هذه

(*) مثال ذلك ضبط النسل الذي أحدثه الانقلاب الصناعي في المدن ، ثم قبول الكنيسة لهذا الضبط في خطوات بطيئة .

الوحدة مُعَيَّنَةٌ أكبر العون للسياسة والفن ؛ ثم يفتى بقال يفنى فيه فناء
المتحرر دفاعاً عن قضية الماضي الخاسرة ؛ ذلك لأنه كلما تقدمت المعرفة
أو تغيرت تغيراً متصلاً ، اصططعت بالأساطير واللاهوت اللذين يتغيران
تغيراً بطيئاً بطئاً لا يُحْتَمَل ؛ وعندئذ يشعر الناس برقابة رجال الدين على
الفنون والآداب كأنها أغلال ثقيلة وحائل ذميمة ، ويتخذ التاريخ الفكرى فى
مثل هذه المرحلة صبغة النزاع بين العلم والدين ؛ والأنظمة التى تبدأ فى
أيدى رجال الدين ، مثل القانون والعقاب ، والتربية والأخلاق ، والزواج
والطلاق ، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية ، حتى
ليعدها الدين أحياناً خارجة عليه ؛ والطبقات المستنيرة تطرح وراء ظهورها
اللاهوت القديم ، ثم — بعد شيء من التردد — تطرح معه التشريع الخلقى ؛
عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين ، وترتفع حركة التحرير
إلى عبادة العقل عبادة المثالي ، تكبو فيما يشبه الشلل الذى تسببه خيبة
الأمل لزاء كل عقيدة وكل فكرة ؛ ويتدهور السلوك الإنسانى إذا ما سُلِبَتْ
دعائمه الدينية ، فينقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية ؛ بل إن الحياة
نفسها ، وقد حرمتها ما فيها من إيمان يبعث العزاء فى النفوس ، تصبح
عبثاً ثقيلاً للفقير الشاعر بفقره ، وللغنى الذى ملّ غناه . آن معاً ، وفى
النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معاً فى ميتة
واحدة كأنهما الجسد والروح ؛ على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين
الناس إذ هم ينوءون تحت هذا العبء الفادح ، أسطورة تصبّ الأمل
الإنسانى فى قالب جديد ، وتمد الجهد الإنسانى بحماسة جديدة ، ثم تبني
مدنية جديدة بعد أن تنقضى قرون فى حالة من الفوضى .

الباب الخامس

العناصر العقلية في المدنية

المفصل الأول

الآداب

الفة - بطانتها الحيوانية - أصولها البشرية - تطورها - نتائجها -
التربية - التقليد - الكتابة - الشعر

كانت الكلمة بداية الإنسان لأنه بالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ؛
فلولا هذه الأصوات الغريبة التي نسميها أسماء كلية لانحصر الفكر في الأشياء
الجزئية أو الخبرات الجزئية التي يذكرها الإنسان أو يدركها عن طريق
الحواس ، وخصوصاً حاسة النظر ؛ وأغلب الظن أنه لولا هذه الأسماء
الكلية لما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ،
ولأن يدرك الصفات متميزة عن أشياءها التي تتصف بها ، ولأن يدرك
الأشياء مجردة عن صفاتها ؛ إنه لولا الكلمات التي هي أسماء لأنواع لاستطاع
الإنسان أن يفكر في هذا الإنسان وهذا وذلك ، ولكنه لم يكن يستطيع أن
يفكر في « الإنسان » بصفة عامة ، لأن العين لا ترى الإنسان العام ، بل
ترى أفراداً من الإنسان فحسب ؛ العين لا ترى الأنواع بل ترى الأشياء الجزئية ؛
ولقد بدأت الإنسانية حين جلس ميسخ نصفه حيوان ونصفه إنسان ،
جلس متربعاً في كهف أو شجرة ، يشمذ رأسه شحذاً ليخلق أول اسم من
الأسماء الكلية ، أول رمز صوتي يدل على طائفة من أشياء متشابهة : كاسم
منزل الذي ينطبق على المنازل كلها ، وإنسان الذي يدل على أفراد الإنسان
جميعاً ، وضوء الذي معناه كل ضوء لمع على يابس أو ماء ؛ ومنذ ذلك الحين ،

«نفتح أمام التطور العقلي للإنسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ؛ ذلك لأن الكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل ، والإنتاج يتوقف إلى حد كبير على تطور الآلات (١) .

ولما كان تصويرنا لأوائل الأشياء لا يزيد أبدا عن حدس وتخمين ، فكيف خيالنا أن يرسل لنفسه العنان في تصور بداية الكلام ؛ يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة - ويمكن تعريف اللغة بأنها اتصال عن طريق الرموز - صبيحة حُب بين الحيوان والحيوان ؛ وإنك لترى في صيحات النذير والغزع ، وفي مناداة الأم لصغارها ، وفي الزقزقة والنقطة التي يعبر بها الحيوان عن فرجه بصوته أو باتصاله بعشيرته من الجنس الآخر ، واجتماعه أفرادا ليتبادل الأصوات من شجرة إلى شجرة ، إنك لترى في هذا كله الخطوات التمهيدية التي يجهد الحيوان نفسه في اجتيازها لكي يصل الإنسان إلى الذروة العليا ، ذروة الكلام ؛ ولقد وجدت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان في غابة بالقرب من شالون في فرنسا ، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع ؛ هذه الأصوات الحية التي تنبعث في الغابات قد لا تكون ذات معنى لآذاننا التي تحضرت ، فنحن في هذا كالكلب المتفلسف « ريكيه » Requet الذي يقول عن « السيد بيرجرية » Bergeret « إن كل ما ينبعث به صوتي له معنى ، أما سيدى فيجرى من فه هراء » ؛ ولاحظ « وِثْمَن » Whitman و « كريج Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته ؛ واستطاع « ديون » Dupont أن يميز اثني عشر صوتا مختلفا يستعملها الدجاج والحمام ، وخمسة عشر صوتا تستعملها الكلاب ، واثنين وعشرين صوتا تستعملها الماشية ذوات القرون ؛ ووجد « جارنر » Garner أن القردة تمضى في لغوها الذي لا ينتهي بعشرين صوتا على الأقل ، مضافا إليها عدد كبير من الإشارات ؛ ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت ، بعد تطور قصير المراحل ، الثلاثمائة كلمة التي تكفي بعض القبائل البشرية المتواضعة (٢) .

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى ، وللکلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر في العصور الأولى ؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الکلام في الأداء ، وثبتت الإشارات من جديد إلى الطليعة ؛ ففي القبائل الهندية في أمريكا الشمالية ، التي تستعمل من اللهجات ما لا يقع تحت الحصر ، يجهل العروسان من قبيلتين مختلفتين في تبادلان الفكر ويتفاهمان بالإشارات أكثر من الکلام ؛ ولقد عرف « اويس مورجان » Lewis Morgan عروسين ظلا يستخدمان إشارات صامتة مدى ثلاثة أعوام ؛ وكان التفهم بالإشارات من الأهمية في بعض اللغات الهندية بحيث تعذر على أفراد قبيلة « أراپاهو » Arapaho - كما يتعذر على بعض الشعوب الحديثة - أن يتحدثوا في الظلام^(٣) ؛ وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان ، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلت ذلك أصوات مُفَلَّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها ، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوى على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من آلاف السنين التي مضت بليثة ، بالتغيرات والتطورات التي طرأت على اللغة - مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة الخ^(٤) وعند قبيلة « تكونا » Tecuna في البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليداً تاماً يدلون به على الفعل « يعطس » وهو « هاي تشو »^(٥) وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساساً للكلمات الأولية في كل لغة من اللغات ؛ وحصر « رينان » Renan الألفاظ العبرية في خمسمائة كلمة

(*) مثل هذه المحاكاة اللفظية لا تزال ملجأ تلوذ به اللغات ما واجهها معنى جديد طارئ ، فالإنجليزى الذى أكل أول وجبة له في الصنن وأراد أن يستفسر عن نوع اللحم الذى كان يأكله سأل في وقار وتحفظ تمهدهما في الانجلوساكسون : « كواك ، كوالا ؟ » فخر الصينى له رأسه مجيئاً في مرج : « بو - وو » (٧) .

أصلية ، وحصر « سكيت » Skeat كل الألفاظ الأوروبية تقريباً في نحو أربعائة كلمة أصلية(*)

ولا تحسن لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، إذا أردنا بكلمة « بدائية » في هذا السياق أى معنى من معانى البساطة فى التركيب ، نعم إن كثيراً منها بسيط فى ألفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو أرقى فى التكوين من اللغة الصينية^(٧) ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها أن تحصر نفسها فى حدود الحسنى والجزئى ؛ وهى بصفة عامة فقيرة فى الأسماء الكلية والمجردة ؛ فسكان استراليا الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس فى لغتهم كلمة تدل على « ذيل » بصفة عامة^(٨) وأهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، لكن ليس لديهم كلمة واحدة تدل على « الشجرة » بصفة عامة ، وكذلك هنود « تشكتو » Choctaw يطلقون اسماً على السندية السوداء ، وآخر على السندية البيضاء ، وثالثاً على السندية الحمراء ؛ لكنهم لا يعرفون كلمة واحدة تدل على السندية بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة عامة ؛ ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهى من اسم العنكبوت إلى الامم الكلى ؛ وفى قبائل كثيرة لا تجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة ، كلا ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل : نعمة ، جنس ، نوع ، مكان روح ، غريزة ، عقل ، كمية ، أمل خوف ، مادة ، شعور . . . الخ^(٩) ، فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتزايد فيما يظهر - مع تقدم الفكر ، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب ؛ وهى بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة ؛

ولما كانت الألفاظ تعود على الناس بكل هذه المزايا ، فقد حسبوها نعمة

(*) هنا يبين المؤلف ببعض الأمثلة كيف تتحد بعض الألفاظ الأوروبية فى أصولها .

إلهية ومُشيداً مقدساً ، بحيث أصبحت مادة تصاغ منها صبيغ السحر ، وهي
تزداد في أعين الناس تقدساً كلما ازدادت فراغاً من المعنى ؛ ولا تزال
في يومنا مقدسة إذا استخدمناها في الأسرار الخفية ، حين تتحول « الكلمة »
إلى « لحم » - مثلاً - إن الألفاظ لم تكن وسيلة التفكير الواضح فحسب ،
بل كانت سبيلاً لإصلاح التنظيم الاجتماعى كذلك ، لأنها ربطت بين
الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت لهم وسيلة لأصلح
للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى ؛ فبظهور ألفاظ
اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب
الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصبّ أفراد الشعب في قالب واحد متجانس ؛
وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة
عظيمة ، كما وسّعت نطاقها ومضمونها ، فهل تعرف اختراعاً آخر
يساوى في قوته ومجده هذا الاختراع ، اختراع الاسم الكلى ؟

وأعظم هذه المزايا التى لألفاظ اللغة - بعد توسيعها للفكر - هي التربية ؛
فالمدنية ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والحكمة وألوان السلوك
والأخلاق ، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد في تطوره غذاء لحياته
العقلية ، ولولا أن هذا التراث البشرى هبط إلى الأجيال جيلاً بعد جيل ،
لمالت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهي مدنيةٌ بحياتها إلى التربية .

التربية بدايات ضئيلة من الشعوب البدائية ، إذ التربية عندهم - كما هي عند
الحيوان - هي قبل كل شيء « نقل » للمهارات وتدريب الناشئ تدريباً يصوغ
له شخصيته ، فهي علاقة مفيدة سليمة بين العلم والتعلم في تلقين طرائق العيش ؛ وهذا
التعليم العملى المباشر شجع عند الطفل البدائى نمواً سريعاً ؛ ففي قبائل « أوماها »
يكون الولد وهو فى سن العاشرة تقريباً قد تعلم معظم فنون أبيه ، مستعداً للحياة ؛
وفي قبائل « الألوت » Aleuts غالباً ما يؤسس الولد داراً لنفسه وهو فى العاشرة ،
وأحياناً يختار زوجة وهو فى هذه السن ؛ وفي نيوزيلندا يترك الأطفال وهم فى السادسة

أو الثامنة دُور آبائهم لينبؤوا لأنفسهم أكواخاً ويزودوا أنفسهم بالقوت من الصيد والسَّماكَة^(١٠) ، والعادة أن ينتهى شوط التربية حين تبتدئ الحياة الجنسية ، ولما كان نضجهم يأتي مبكراً فلان نموذهم يأتي كذلك مبكراً ، ففي ظروف الحياة عندهم ينضج الصبي في الثانية عشرة من عمره ويشيخ في الخامسة والعشرين^(١١) ، وليس معنى ذلك أن « الممجى » له عقلية الطفل ، بل معناه أنه لم يكن له حاجات الطفل الحديث ولا فُرصه ، وهو لم يتمتع بمثل ما يتمتع به الناشئ الحديث من مراقبة طويلة آمنة ، تسمح بنقل التراث الثقافى نقلاً يكاد يكون كاملاً ، وتضمن تدريبه على ضرب أكثر ومرونة أكبر في الاستجابة للبيئة التي بعدت من الصورة الفطرية والتي زادت فيها عوامل التغير .

كانت بيئة الإنسان الفطري ثابتة نسبياً ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تطلبت الشجاعة وتكامل الشخصية ؛ فكان الوالد البدائي يركّز اهتمامه في بناء شخصية ولده كما تركّز التربية الحديثة اهتمامها في تدريب القوة العقلية ؛ فقد كان يعنيه أن يبنى رجلاً ، لا أن يكون العلماء ؛ ومن هنا كانت طقوس إدماج الناشئ في القبيلة ، تلك الطقوس التي كانت في الشعوب الفطرية تعلن بلوغ الناشئ سن النضج وتعرف له بعضوية الجماعة ؛ ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ؛ وكانت مهمتها أن تُعيد الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ؛ وهى في الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا ويفرحوا بإيقاع الأذى على الآخرين ؛ وبعض هذه الطقوس « يبلغ من البشاعة ومن إثارة النفس حداً تتعذر معه الرواية وتصعب الرواية »^(١٢) ؛ في قبيلة « الكفير » — وهذا مثل معتدل — كان الصبيان الذين يطلبون عضوية القبيلة مُمتحنون بعمل شاق في النهار وحرمان من النوم في الليل ، حتى يسقطوا من الإعياء ؛ لكي يزداد القائمون بامتحانهم يقيناً بصلاية هؤلاء الصبيان ، كانوا يضربونهم بالسياط « على فترات قصيرة وبغير رحمة حتى يسنز الدم من أجسادهم » وكان ذلك

يؤدى إلى قتل نسبة كبيرة من الغلمان ؛ لكن الكبار — فيما نظن — كانوا ينظرون إلى الأم نظرة الفيلسوف ؛ وربما كانوا يفعلهم هذا يسبقون الانتخاب الطبيعى ويضيفون إلى عوامله عاملا جديدا^(١٣) ؛ وكانت هذه الطقوس الممتحنة عادة علامة انتهاء المراهقة والاستعداد للزواج ؛ وكانت العروس تلح فى أن يثبت عريسها قدرته على تحمل الألم ؛ وكانت هذه الطقوس عند كثير من القبائل تدور حول عملية الختان ، فإذا تحرك الشباب أثناء إجرائها أو صرخ ، ضُربَ أهله ضربا ، ورفضته عروسه المنتظرة — التى وقفتْ للشهد العملية فى عناية وانتباه — على أساس أنها لا تريد أن تزوج من فتاة^(١٤) .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إلا قليلا ، أو لم تكن تنتفع بها إطلاقا ، فليس يَدَّهَشُ الإنسانُ الفطرى لشيء دهشته لاستطاعة الأوروبيين أن يتصل أحدهم بالآخر — وبينهما مسافة بعيدة — بوساطة خطوط سوداء تُحَظُّ على قطعة من الورق^(١٥) ؛ وقد تعلمت قبائل كثيرة الكتابة محاكاتها لمن جاءوا لاستغلالها من المنحصرين ، لكن بعض القبائل — كما هى الحال فى شمالى أفريقيا — لبثت أميا على الرغم من خمسة آلاف عام أخذت هذه القبائل تتصل خلالها بالأمم الكاتبة اتصالا متقطعاً ؛ أما القبائل الساذجة التى تعيش معظم حياتها عيشا معزولا بالنسبة إلى سواها ، وتنعم بالسعادة التى تنجم عن جهل الإنسان بتاريخه الماضى ، فلا تحسّ بالحاجة إلى الكتابة إلا قليلا ، ولقد قويت ذاكراتهم بسبب انعدام المخطوطات التى تساعد على حفظ ما يريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحفظون . ويعُون ، ثم ينقلون ما حفظوه وما وَعَوْه إلى أبنائهم بتسميعهم إياه ؛ وإنما هم يحفظون ويعُون ويُسَمِّعون كل ما يرونه هاما فى الاحتفاظ بحوادث تاريخهم وفى نقل تراثهم الثقافى ؛ ويجوز أن يكون الأدب قد بدأ حين بدأ تدوين هذا الم محفوظ وتدوين الأغاني الشعبية ؛ ولاشك أن اختراع الكتابة قد صادف معارضة طويلة من قبيل رجال الدين ، على اعتبار أنها فى الأرجح ستؤدى إلى هدم الأخلاق

وتدهور الإنسان ، فتروى أسطورة مصرية أنه لما كشف الإله تحوت للملك
تحموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطبيب أن يتلقى هذا الفن لأنه يهدم
المدنيّة هدمًا ؛ وقال في ذلك : « إن الأطفال والشبان الذين كانوا حتى
الآن يبرّغّمون على بذل جهدهم كله في حفظ ما يتعلمونه ووعيه ،
لن يبدلوا مثل هذا الجهد (إذا ما دخلت الكتابة) ولن يروا أنفسهم في
حاجة إلى تدريب ذاكراتهم » (١٦) .

وبطبيعة الحال ليس في وسعنا أكثر من التخمين إذا أردنا أن نقول
شيئاً عن أصل هذه اللعبة العجيبة ؛ فيجوز أنها كانت نتيجة تفرعت عَرَضاً
عن صناعة الخزف كما سنرى فيما بعد ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس
في إثبات « العلامات التجارية » على ما يصنعونه من آنية خزفية ؛ ويجوز أن
تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات
المكتوبة ، وأن تكون أولى صورها تصاوير غليظة اتفق عليها الناس لتدل
على السلع التي يتبادلونها في تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ؛ لأنه
ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها ببعض ،
فلا بد من اتخاذ وسيلة للتدوين وللتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً ؛ وفي
وسعنا أن نفترض أن قد كانت الأرقام بين أول طائفة من الرموز
المكتوبة ، وأنها في معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازنة
تمثل الأصابع ؛ ولانزال نستعمل كلمة « أرقام » (في اللغة الإنجليزية) التي تدل
على ذلك الأصل المخطوط ، حين نريد أن نقول « أعداد » (*) ؛ ثم لا تزال
كلمات مثل كلمة « خمسة » في اللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية ، ترتدُّ إلى
أصل لغوى معناه « يد » (١٧) ؛ وكذلك الأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى
أصابع اليد ، فالعلامة التي معناها خمسة « V » تصور يداً مفتوحة ، والعلامة التي
معناها عشرة « X » تركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيها ؛

(١) كلمة figure في الإنجليزية معناها « شكل مخطوط » أو « رقم » . (المغرب)

حروف الهجاء الإنجليزية	حروف الهيروغليفية المصرية	حروف أبجد	الحروف على حجر مواب	الحروف الأيونية القديمة
A		A	K	AA
B		B B	9	B'
G			1	Γ Γ
D			Δ	Δ
E		E E	≋	E E
F(W)			Y	
Z	Y		Z	
H		Θ	H	Θ
TH			⊗	⊗
I		I	Z	I
K			Y	K
L		Λ	U	Γ
M		Μ	W	Μ
N		N	Y	ΜΝΝ
X(SH)			≋	E
O		OOO	O	O O
P		Γ	7	Γ
S			h	
Q		Q	φ	
R			9	P D
S		Y	W	(Y) (Y)
T		T	X	T
Ü				Y
P-H				
KH				X
PS				W Y
ö				U

حروف الهجاء الإنجليزية ومقابلاتها في أنواع الكتابة القديمة

وكانت الكتابة في بدايتها - كما لا تزال عند أهل الصين واليابان - ضرباً من الرِّسْم أى كانت ضرباً من الفن ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره عَبْرَ المكان وخلال الزمان ؛ فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة ، كما هى الحال الآن فى العلامات التجارية وفى التعبير عن أبراج السماء ؛ والصور الصينية البدائية التى سبقت الكتابة كانت تسمى « كوروان » ومعناها الحرفى « صور للإشارات » ؛ وكانت القوائم الطوطمية كتابةً تصويرية ، أو كانت - كما يقترح « ماسون » Mason رسماً تدونه القبائل لتعبر به عن نفسها ؛ فبعض القبائل كان يستعمل عصياً محزوزة لتذكّرهم بشيء أو ليعثوا بها رسالة ؛ وبعضها الآخر - مثل « هنود ألجونكڤون » Algouquin لم يكتب بحزّ العصي ، بل رسم عليها أشكالاً تجعلها صوراً مصغرة للقوائم الطوطمية ؛ أو ربما العكس هو الصحيح ؛ أى أن هذه القوائم الطبيعية كانت صورة مكبرة للعصى المحزوزة ، وكان هنود بيرو يحتفظون بملدونات طويلة من الأعداد ومن الأفكار ، بأن يعقدوا حبلاً مختلفة الألوان بالعقد والعرى ؛ وربما ألقى شيء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرخيل الشرق وأهل بولنيزيا .

ولما أهاب « لاوتسى » Lao-Tse بقومه الصينيين أن يعودوا إلى الحياة الساذجة ، اقترح عليهم أن يرتدوا إلى ما كانوا يصنعونه فى عصورهم البدائية من حبال معقودة^(١٨) وتظهر صور من الكتابة أرقى مما ذكرنا بين الشعوب الفطرية آناً بعد آن ، فلقد وجدنا رموزاً هيلوغرافية فى جزيرة « إيستر » فى البحار الجنوبية ؛ وكشفنا الغطاء فى إحدى جزر « كارولينا » عن مخطوط يتكون من واحد وخمسين رمزاً مقطعيّاً تصور أعداداً وأفكاراً^(١٩) ، وإن الرواية لتروى كيف حاول رؤساء جزيرة إيستر وكهنتها أن يحتفظوا لأنفسهم بكل معرفة تتصل

بالكتابة ، وكيف كان الناس يحتشدون مرة في كل عام ليسمعوا المدونات .
وهي تُقرأ عليهم ؛ فبدى أن الكتابة كانت في مراحلها الأولى شيئاً
غامضاً مقدساً ، ولفظة « هيروغليف » معناها نقش مقدس ، ولسنا على
يقين من أن هذه المخطوطات البوليزية لم يكن مصدرها إحدى المديّنات
التاريخية ؛ لأن الكتابة - على وجه العموم - علامة تدل على الحضارة ،
وهي من أوثق المميزات التي تفرق بين أهل المدينة وأبناء العصور البدائية :

الأدب في أول مراحل كلمات يقال أكثر منه حروفاً تكتب (على
الرغم من أن الكلمة في الإنجليزية تنتمي في أصلها اللغوى إلى ما يدل على
الكتابة) ؛ وهو ينشأ في ترانيم دينية وطلاسم سحرية ، يتغنى بها الكهنة
عادة ، وتنقل بالرواية من ذاكرة إلى ذاكرة ؛ والكلمة التي معناها الشعر
عند الرومان ، وهي « Carmina » تدل على الشعر وعلى السحر في آن
واحد ؛ والكلمة التي معناها نشيد عند اليونان ، وهي « Ode » معناها
في الأصل طلسم سحري ، وكذلك قل في الكلمتين الإنجليزيتين « Tune »
و « Lay » والكلمة الألمانية « Lied » وأنغام الشعر وأوزانه ، التي ربما
أوحى بها ما في الطبيعة وحياة الجسد من انساق ، قد تطورت تطوراً
ظاهراً على أيدي السحرة الذين أرادوا أن يحتفظوا وينقلوا ثم يزيّدوا من
« التأثير السحري لأشعارهم » (٢٠) ، ويعزو اليونان أول ما قيل من شعر في
البحر العُشارى إلى كهنة دلفي ، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه في نظم
نبوءاتهم (٢١) ، وبعدها أخذ الشاعر والخطيب والمؤرخ يتميز بعضهم من بعض
شيئاً فشيئاً ، ويتجهون اتجاهاً دينوياً في فنونهم ، بعد أن اتحدوا جميعاً في هذا
الأصل الكهنوتي ، فأصبح الخطيب مُشيداً رسمياً بأعمال الملك أو مدافعاً عن
الآلهة ، وبات المؤرخ مسجلاً لأعمال الملك ، والشاعر مغنياً لأناشيد كانت في
الأصل مقدسة ، ومعبراً وحافظاً للأساطير البطولة ، وموسيقياً صاغ أقاصيصه صياغة
الألحان ليعلم بها الشعب وملوكه جميعاً ؛ وهكذا كان لأهل فيجى وتاهيتى وكالدونيا

الجديده خطباء ومؤرخون رسيون ، عليهم أن يخطبوا الناس في المحافل العامة ، وأن يثيروا حماسة المقاتلين في القبيلة بذكر أعمال أجدادهم والإشادة بمجد أمهم التليد الذي لاتضارعها فية أمة أخرى ؛ وكان للصومال شعراء محترفون يطوفون من قرية إلى قرية ينشدون الأناشيد مثل الشعراء المنشدين والشعراء الطوافين الذين عرفتهم العصور الوسطى ، ولم تكن أشعارهم التي يتغنون بها عن الحب إلا في حالات نادرة ، وأما في أكثر الحالات فقد كانت تقال عن البطولة البدنية أو حومة القتال أو علاقة الآباء بأبنائهم ، وهاك مثالا من الشعر مأخوذاً عن أحد الآثار القديمة في جزيرة إيستر وهو رثاء والد لابنته أبعدها تصارييف الحروب عنه :

إن ركوب ابنتي لمتون البحار .

لم يُفسده عليها قط قبائل الأعداء

إن ركوب ابنتي لمتون البحار

لم يُفسده عليها التآمر من أهل هونيتي

فما فتئت ظافرة في كل حروبها

هل اغروها بشرب الماء المسموم

من الزجاجية الحجرية السوداء ؟ هذا مستحيل .

هل يمكن لأحزاني أن يقلّ سعيها

بينما يفصلني عن ابنتي خضم البحار ؟

أواه يا ابنتي ، أواه يا ابنتي !

لأنه لطريق مائي فسيح

ذلك الذي أمدّ بصري خلاله تجاه الأفق

يا ابنتي ، أواه يا ابنتي ! (٢٢)

الفصل الثاني

العلم

البدايات - الرياضة - الفلك - الطب - الجراحة

يرى هيربرت سبنسر ذلك الإحصائي العظيم في جمع الشواهد للوصول إلى النتائج ، أن العلم - كالأدب - بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية التي كانت تحدد موافيت المحافل الدينية ، ثم صنت في كنف المعابد ونُقِلَ عبْرَ الأجيال باعتباره جزءاً من التراث الديني (٢٣) ؛ ولسنا نستطيع الجزم برأى في هذا ، لأن البدايات لا تمكّتنا من معرفتها ، سواء في العلم أو في غيره ؛ وكل ما نستطيعه هو التخمين والظن ؛ فيجوز أن يكون العلم - شأنه في ذلك شأن المدنية بصفة عامة - قد بدأ مع الزراعة ؛ فالهندسة في أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة ؛ وربما أنشأ علم الفلك حسابُ المحصول والفصول الذي يستدعى مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم ؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة ، وطوّرت التجارة علم الرياضة ، كما وضعت فنونُ الصناعة أُسس الطبيعة والكيمياء .

وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولا يزال العدُّ في كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها ؛ فقد عدَّ « التسمانيون » إلى العدد اثنين لم يجاوزوه : « پارمَری ، كالاباوا ، كارديا » - يعني : « واحد ، اثنين ، كثير » ؛ ثم ذهب أهل قبيلة « جواراني » Guarani في البرازيل إلى أبعد من ذلك ، فقالوا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، كثير » والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظتي ثلاثة أو أربعة ، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة « اثنين - واحد » وعلى أربعة كلمة « اثنين - اثنين » ؛ وأهل

« دامارا » لا يقبلون أن يبادلوا غنمتين بربع عصي ، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعصوين ، ثم يكررون العملية مرة أخرى ؛ ولقد كان العدّ وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشري ؛ ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثني عشر ، والأغلب أن يكون أدركه ، بعد حين من الزمن ، فرح به لأنه كان مريحاً للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ؛ وهنا وُلد النظام الاثنا عشري في الحساب ، وهو نظام لا يزال قائماً ، لا يريد لنفسه الزوال ، في المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ؛ فاثنا عشر شهراً تكون عاماً ، واثنا عشر بنساً تكون شلناً ، و « الدسته » اثنا عشر ، و « الجروسة » اثنا عشر « دسته » والقدم اثنا عشر بوصة ؛ أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الانقسام ، ولذا أصبح بغيضاً عند الناس ، ومبعثاً للتشاؤم إلى الأبد ؛ ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ؛ ولا يزال استعمال هذا العدد في العدّ ظاهراً في قول الفرنسيين « أربع عشرينات » ليدلوا على « ثمانين » ؛ وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها « للشبر » والإبهام للبوصة (اللفظتان في اللغة الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة توذى المعنيين) والذراع حتى المرفق للذراع ؛ والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) والقدم للقدم ؛ وفي عصر متقدم ، أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العدّ ؛ ولا تزال الكلمة الإنجليزية للعدّ ، (Calculate) تشير بأصلها اللغوي إلى أصل معناه « حجر صغير » مما يدل على صغر المسافة التي تفصل القدماء السذج عن المحدثين ، ولقد تمنى « ثورو » Thoreau أن يحيا هذه البدائية الساذجة ، وأجاد التعبير عن حالة كثير ما تعاود الإنسان فقال : « إن الرجل الأمين لا يكاد يجد الحاجة إلى عدّ يجاوز به أصابع يديه ، وقد يضيف إليها أصابع قدميه في حالات نادرة ؛ ثم يكس ما بقي له بعد ذلك في كتلة واحدة ؛ فرأى هو أن نُجْرى أمورنا على نسق الاثنين أو الثلاثة ، لا على نسق المائة أو الألف ، فبدل

المليون ، عُدَّة ستة فقط ، وسجل حسابك على ظفر إبهامك « (٢٠) .

وربما كانت بداية الفلك في قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية وكلمة « مقياس » نفسها (في اللغة الإنجليزية measure) وكلمة شهر (month) - بل ربما كانت كلمة لإنسان man أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس - كل هذه الكلمات تترتدٌ - بغير شك - إلى أصل لغويٍّ معناه القمر (moon) (٢١) ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بلمورات القمر قبل قياسه بالأعوام بزمن طويل ؛ فالشمس - مثلاً في ذلك مَثَلُ الأب لم تستكشف إلا في وقت متأخر نسبياً ؛ وحتى اليوم ترانا نحسب موعد عيد الربيع « Easter » بأوجه القمر ؛ وكان لأهل بولنيزيا تقويمٌ ، العامُ فيه ثلاثة عشر شهراً ينظمها القمر ؛ فلما رأوا أن سنتهم القمرية تختلف اختلافاً بيّناً عن مواكب الفصول ، أسقطوا شهراً قرياً ، وبذلك استعادوا التوازن بين سنتهم وبين الفصول (٢٢) ؛ لكن استخدام الأجرام السماوية على هذا النحو المتزن كان شذوذاً بالقياس إلى التخطيط في استخدامها للتنجيم ، فالتنجيم قد سبق علم الفلك ، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك ؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماماً بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن ؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم في خلق الإنسان ونصيبه المقدور ، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهراً في يومنا هذا (٢٣) وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح ، ويجوز أن تكون ضرباً آخر من الخطأ في التعليل ؛ وما العلم نفسه إلا الضرب الأول من ذلك الخطأ .

والإنسان البدائي لا يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، ويكتفى بممارستها من الوجهة العملية ؛ فلئن لم يكن في مقدوره أن يقيس مسار المقلدوف في الفضاء ،

(*) فيما يل اقتباس من إعلان أذاعته قاعة البلدية في نيويورك عن برنامجها يوم ٥ مارس سنة ١٩٣٤ : (فلان سيكشف الطالع لمن أراد ؛ وهو المنجم لعلية القوم في نيويورك ولأرباب المهن الممتازين ؛ والساعة تكلف عشرة ريالات) .

إلا أنه يستطيع أن يصوّب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ؛ ولئن لم يكن لديه
موز كياوية ، إلا أنه يستطيع أن يميز بلمحة سريعة أى النباتات سام وأيهما
طعام ، بل يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً فى شفاء أمراض
البدن ؛ والأرجح أن يكون أول من اهتمن حرفه الطب هن من النساء ،
لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهن جعلن من فن
التوليد - أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق - أقدم المهن جميعاً فحسب ؛
بل لأن اتصاهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح ذلك
لهن علماء أوسع بالنبات ، ومكتن من التقدم بفن الطب ، ومميّزته
عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ؛ فند أقدم العصور حتى
عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء
المرضى ؛ ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر
إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة (٢٨) .

ولأنه لما يثير الدهشة فى نفسك أن تعلم كم من الأمراض كان يشفيها
هؤلاء البدائيون على الرغم من قصور علمهم بالأمراض (٢٩) ؛ فالمرض عند
هؤلاء السذج - فيما بدا لهم - كان نتيجة لحلول قوة غريبة عنه أو روح
غريب فى بدنه - وهو تصور لا يختلف من حيث الجوهر عن النظرية التى
تسود الطب الآن من تعليل المرض بدخول الجراثيم فى الجسم ؛ وأوسع
طرق العلاج شيوعاً بين البدائيين هو اصطناع رُقِيَّة سحرية من شأنها أن
تسترضى الروح الشريرة التى حَلَّتْ فى البدن العليل ؛ لعلها تنزاح عنه ؛
وإذا أردت أن تعرف مدى رسوخ هذه الطريقة فى أفئدة الناس بحيث
لا تزول عنها أبداً ، فاقرأ قصة « خنزير جادارين » Gadarene Swine (٣٠) ،
وجتى اليوم ترى الناس يعللون الصرع بحلول روح شرير فى البدن ؛
وبعض العقائد الدينية المعاصرة تنص على طرائق معينة لإخراج مثل هلك
الروح الشرير من جسم العليل إذا أريد شفاؤه ؛ والكثرة الغالبة من الناس
تعترف بالصلاة والدعوات على أنها تعين على الشفاء مع أقراص الدواء ؛ وربما

كان البدائيون يقيمون طريقتهم في العلاج على نفس الأساس الذي يُقيم عليه أحدث الطب طريقته ، ألا وهو الشفاء بقوة الإيحاء ؛ غير أن أفاعيل أولئك الأطباء الأولين كانت أشد استلفاً للنظر بأساليبها المسرحية ، مما يصطنعه خلفاؤهم الذين ازدادوا عنهم حضارة ؛ فقد كانوا يحاولون طرد الروح الخال في جسم المريض بتخويله بما يلبسونه له من أقنعة مفزعة ، وما يغطون به أجسادهم من جلود الحيوان ، وبصياحهم وهذيانهم وتصفيقهم بالأيدي ، و « الشخشخة » بالصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض بوساطة أنبوبة مجوفة ؛ فكما كان يقول المثل السائر : « الطبيعة تشفى المريض ، والعلاج يسرُّ المريض » ، وأما قبائل « بورورو » Bororos البرازيلية فقد تقدمت بالعلم خطوة حين كانت تطلب إلى الوالد شرب الدواء ليشفى بذلك طفله المريض ، ولقد كان الطفل يشقى في اطراد كاد أن يكون شاملاً كاملاً (٣٠) .

ولم يأت جانب الأعشاب الطبية نجد بين الأساليب الصيدلانية الكثيرة التي كان يلجأ إليها الإنسان البدائي ، صوماً من المخدرات المنومة التي أريد بها أن تخفف الألم وتهوّن الجراحات ؛ فسموم مثل Curare الذي كثيراً ما يضعونه على أطراف سهامهم ؛ ومخدرات مثل نبات القنب والأفيون والكافور ، هي أقدم تاريخاً من التاريخ ؛ حتى يرجع أحد المخدرات الشائعة بيننا اليوم إلى استخدام سكان بيرو لنبات الكوكا لهذه الغاية ؛ ويحدثنا « كارتيه » Cartier كيف كان أهل « إراكوا » يشفون مرض الإسقربوط بلحاء أشجار التنوب والشوكران وأوراقها (٣١) وكذلك عرف الجراحون البدائيون طائفة مختلفة من الجراحات والأدوات ، فالولادة كانت تتم على نحو مريض ، والكسور والجروح كانت تُضمِّد وتُلف بمهارة (٣٢) ؛ وبوساطة مدّى من الحجر الزجاجي الأسود ، أو من الصوّان المرهف ، أو أسنان السمك ، كانوا يستخرجون الدم من « الخُرَّاجات » ويحفظونها ، كما كانوا يشرطون الأنسجة ؛ وقد مارس البدائيون « تربيّة »

الجمجمة منذ أيام هنود. يبرو الأقدمين إلى أهل ملبنزيا المحدثين ، وكان الملبنزيون ينجحون في تسع حالات من كل عشر حالات بينما كانت الجراحة نفسها عام ١٧٨٦ تنتهى بالموت في كل الحالات بغير استثناء في مستشفى « أوتيل ديه » Hôtel Dieu في باريس (٣٣)

إننا نبسم لجهل البدائيين ، بينما نستسلم جادين للأساليب الطبية الكثيرة التكاليف في أيامنا ، يقول « الدكتور أولفروندل هولمز » Oliver Wendell Holms بعد حياة طويلة قضاها في شفاء المرضى :

« لن يتردد الناس في أداء شيء ، بل ليس هناك شيء لم يؤدوه فعلا ، في سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة ؛ فقد رضوا أن يُغرقوا في الماء نصف إغراق ، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق ؛ ورضوا أن يدفنوا في الأرض إلى أذقانهم ، وأن يوصموا بالحديد المُحمّى مثل عبيد قادمين ؛ ورضوا أن يُفَصَّبُوا بالمُدَى كأنهم سمك القد ، وأن تثقب لحومهم بالإبر ، وأن تُشعَّلَ المشاعل على جلودهم ، ورضوا أن يجرعوا كل صنوف البقززات ، وأن يدفعوا لذلك كله أجراً كأنما سألوا الجنم وإحراقه مِيزةً ثمينة ، وكأنما « الفقافيق » نعمة ، ودُودُ العلقى ضرب من الترف » (٣٤) .

الفصل الثالث

الفن

معنى الجمال - معنى الفن - إحساس البدائي بالجمال - صيغ الجسم - دهان الوجه للتجميل - الوشم - الوشم - الثياب - الحلي - الحزف - التصوير - النحت - فن البناء - الرقص - الموسيقى - تلخيص الخطوات البدائية التي مهدت للمدنية .

تعد أن أنفق الفن من عمره خمسين ألف سنة ، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان ، ومبادئه في عصور التاريخ ، فما الجمال ؟ - لماذا نُفْتِنُ به ؟ لماذا نحاول أن نبده ؟ لما لم يكن هذا مجال المناقشة النفسية ، فسكنفى بالرد مختصراً وفي غير قطع باليقين ، بأن الجمال هو أية صفة تجعل شيئاً أو شكلاً ممتعاً لمن يشهده ؛ ولم يكن الشيء - من حيث الأصل والبداية - ليمتنع الناظر إليه لأنه جميل ، لكن الأقرب إلى الصواب هو أن الرائي يسمى الشيء جميلاً لأنه يمتعه ؛ وكل ما من شأنه أن يشبع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينه جميلاً ؛ وعلى ذلك فالطعام جميل لمن يتضور جوعاً ، بينما « تاييس » ليست عنده حينئذ بذات جمال ؛ وقد يكون الشيء الممتع هو المشاهد نفسه ، وقد لا يكون - كلا الفرضين على درجة واحدة من قوة الاحتمال ؛ ففي أعماق قلوبنا لسنا نرى شيئاً أجمل من أشكالنا ، ويبدأ الفن من تمجيد الإنسان لجسمه الرائع ؛ أو قد يكون الشيء الممتع هو العشير من الجنس الآخر الذي يرغب فيه الرائي ، وعندئذ يصطنع إحساسنا بالجمال شدة وقوة إبداع هما شدة الشهوة الجنسية وقوة إبداعها ؛ ثم يوسع من هالة الجمال حتى تشمل كل شيء يمس الحبيب من بعيد أو قريب - فتشمل كل صورة جاءت شبيهة بصورتها ، وكل الألوان التي تزينها أو تسرها أو تتحدث عنها ، وكل الحلي والثياب التي تلائمها ؛ وكل الأشكال

والحركات التي تذكّر بما لها من تناسق ورشاقة ؛ أو قد يكون الشكل الممتع هو صورة الذكر المطاوب ؛ ومن الجاذبية التي تجذب ضعف الإنسان نحو عبادة القوة يأتي إحساسنا بروعة الفخامة - فتطمئن نفوسنا في حضرة القوة - وهو إحساس يخلق أرفع آيات الفن جميعاً ؛ وأخيراً قد تصبح الطبيعة نفسها - بمعونة منا - فخمة وجميلة في آن معاً ، لأنها تشبه وتوحى بركة المرأة كلها وقوة الرجل كلها فحسب ، بل لأننا تخلع عليها مشاعرنا وما أصبنا من حظوظ ، وأحبنا لأنفسنا ولغيرنا - فنحن نستمتع فيها بمدارج صباها ، ونستمتع فيها بالعزلة الهادئة لأنها مهرب من عاصفة الحياة ؛ ونحيا معها في تقلب فصولها الذي يكاد أن يكون إنسانى المراحل : فيفاعة نصيرة ، ونضج متقد ، وإثمار يانع ، ثم انحلال بارد ؛ ونرى فيها على نحو غامض أمساً وهبتنا الحياة ، وستقبلنا عند الموت .

الفن هو إبداع الجمال ، هو التعبير عن الفكر أو الشعور في صورة تبدو جميلة أو فخمة ، فتشير فينا هزة هي هزة الفرح الفطرى التي تثيرها المرأة في الرجل ، أو الرجل في المرأة ؛ وقد يكون الفكر إدراكاً لمعنى من معاني الحياة كائناتاً ما كان ، وقد يكون الشعور إثارة أو استرخاء لوتر مشدود من أوتار الحياة كائناتاً ما كان ؛ وقد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا لما فيها من تناسق دويرى يسرنا لأنه يتجاوب في طبائعنا مع نوبات الأنفاس ، وثبضات الدم ؛ وتداول الشتاء والصيف على نحو يبعث على الإجلال ، وتعاقب الخزر والمد والليل والنهار ؛ أو قد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لما فيها من تماثل هو بمثابة الوزن في الشعر قد تجمد ، يمثل القوة أمام أبصارنا ، ويصور لنا التناسب المنتظم في النبات والحيوان ، وفي النساء والرجال ؛ أو قد تحدث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لألوانها التي تضىء الروح بضياؤها أو تعمق بالحياة من السطح إلى الغزير ؛ وأخيراً قد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لما فيها من صدق ، إذ نرى فيها محاكاة واضحة ناصعة للطبيعة أو للواقع الخارجى ، حين تلقف لحة من جمال النبات أو الحيوان كان

فينا أن يزول ، أو تلمح معنى عابراً لظرف قائم لكنه وشيك الزوال ،
ثم تعرضه ساكناً ثابتاً أمام حسّ يتلکأ في استمتاعه بما يرى ، أو أمام عقل
يحب أن يتأمل على مهل ؛ من هذه المصادر الكثيرة يأتي ما في الحياة من
ألوان الكماليات السامية - الغناء والرقص ، الموسيقى والمسرحية ، الخزف
والتصوير ، النحت والعمارة ، الأدب والفلسفة ؛ فما الفلسفة إن لم تكن
فنا ؟ ما الفلسفة إن لم تكن محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سائر الفنون
في أن تُفَيِّضَ على فوضى ما يقع لنا في دنيا التجربة « صورة لها معنى » ؟
فإذا كان الإحساس بالجمال ضعيفاً في الجماعة البدائية فقد يكون ذلك
بسبب انعدام الفارق الزمني بين الشعور بالشهوة الجنسية وبين تحقيقها ،
لأن ذلك لا يتيح الفرصة للخيال أن يضاف على موضوع الشهوة ألواناً من
عنده ، تزيد من جماله زيادة كبيرة ؛ إن الإنسان البدائي قلما يفكر في
اختيار النساء على أساس ما نسميه نحن فيهن بالجمال ، بل هو أدنى إلى
التفكير فيهن على أساس نفعي ، ويستحيل أن يدور في خله أن يرفض
عروساً مفتولة العضلات بسبب قبحها ؛ فرئيس القبيلة من الهنود حين
سئل أى زوجاته أروع جمالا ، اعتذر عن عدم الجواب لأنه لم يفكر قط
في هذا الموضوع ، وقال في حكمة ناضجة تشبه حكمة فرانكلين : « قد
تكون الوجوه أكثر جمالا أو أقل جمالا ؛ لكن النساء في جوانبهن
الأخرى لا يختلف بعضن عن بعض في شيء » ؛ وحتى إن كان للإنسان
البدائي إحساس بالجمال ، فهو أحياناً يُفَسِّلُ منا فلا نراه ، لشدة اختلافه
عن إحساسنا نحن بالجمال ؛ يقول « رتشارد » : « كل مَنْ أعرف من
أجناس الزوج ، يعدُّون المرأة جميلة إذا لم تكن نحيلة عند خصرها ،
وإذا ما كان جذعها من الإبطين إلى الردفين ذا عرض واحد - حتى
يقول عنها زنجي الساحل : إنها كالسُّلْم » والآذان المطروقة كأذان
الفيل ، والبطن المنتشئ هما من مفاتن المرأة عند الرجال في إفريقيا ، وفي
أرجاء أفريقيا كلها ، أجل النساء هي المرأة السمينة ؛ فيقول « منجوبارك »

Mango Park عن نيجيريا : « يظهر أن لفظي السمنة والجمال تكادان تكونان مترادفتين ؛ فالمرأة التي تزعم لنفسها ولوقليلا من جمال ، لابد أن تكون ممن يتعذر عليهن المشي إلا إذا سار إلى جانبها عبداً ، يسير كل منهما تحت ذراع. ليكون لها دعامة ؛ والجمال الكامل تبلغه المرأة إن ساوت بوزنها حِمْل الحمل » ويقول « بريفو » Briffault : « إن معظم الهمج يوثرون ما نظنه نحن من أقبح ما تتصف به المرأة ، وأعني به الأثداء الطويلة المتدلّية »^(٣٥) ؛ ويقول « دارون » : « إنه من المعلوم لنا جميعاً أن العجز عند كثيرات من نساء الهونتوتوب يبرز بروزاً عجباً ولا يشك « سير أندرو سمث » أبداً في أن هذه الخصيصة للعجبية موضع إعجاب من الرجال ، فلقد رأى ذات يوم امرأة هي عندهم من ربات الجمال ، كانت من الضخامة في أردافها بحيث إذا ما أجلسوها على أرض منبسطة استحال عليها الوقوف إلا إذا زحفت زحفاً حتى دنت من سفح مائل . . . ويروى لنا « بيرتن » Burton عن أهل الصومال أن الرجال إذا ما أرادوا اختيار الزوجات ، صنفوا النساء صفّاً واختاروا من بينهن أكثرهن بروزاً في العجز ؛ وليس أقبح في عيني الزنحى من المرأة النحيلة »^(٣٦)

لكن الرجل الطبيعي في أرجح الظن — يقيس الجمال بمقياس نفسه هو أكثر مما يقيسه بمعيار شكل المرأة ، « فالأقربون — في الفن — أولى بالمعروف » ؛ وقد لا يُصدّقُ النساء ما نزعتهن من أن الرجال البدائيين والحديثين يأخذهم العُجبُ بأنفسهم سواء بسواء ؛ فالذكر لا الأنثى في الشعوب الساذجة — كما هي الحال في الحيوان — هو الذي يزيّن ويُنزل بحسده الجروح ؛ سعيّاً وراء الجمال ، فيقول « بُونوك » Bonwick : « إن التّزيّن في استراليا يكاد يكون كله احتكاراً للرجل » وهكذا قُتل في ماليزيا وغينا الجديدة وكالدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة ، وهانوفر الجديدة وهنود أمريكا الشمالية^(٣٧) وفي بعض القبائل يستنفد تجميل الجسم وقتاً أكثر مما تستهلكه أية مهمة أخرى من

مهام النهار^(٢٨) وواضح أن أول صورة للفن هي صبغ الجسم صبغة صناعية وهم يصبغون الجسم ليجذبوا النساء حيناً وليخيفوا الأعداء حيناً آخر ، والرجل من أهل أستراليا الوطنيين — كأحدث فاتنة من فانتات أمريكا اليوم — كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء والحمراء والصفراء ، ليُصلح من جماله حيناً بعد حين ، فإذا ما أوشكت أصباغه على النفاد ، قام برحلات بعيدة خطرة ليزود نفسه منها بمقدار جديد ، وهو يكتفى في الأيام العادية ببيع من اللون على خديه وكتفيه وصدره ، ولكن كان في مناسبات الأعياد ، يُحسُّ ما يُحسُّه العُريَّان من خجل إذا لم يصبغ جسده كله من أعلاه إلى أسفله^(٢٩) .

في بعض القبائل يحتكر الرجال لأنفسهم حق صبغ الجسم ، وفي قبائل أخرى يحرم على النساء المتزوجات أن يصبغن أعناقهن^(٣٠) ؛ لكن ما لبث النساء أن ظفرن لأنفسهن بفن التجميل بالأصباغ ، وهو أقدم الفنون جميعاً ؛ فلما وقف « كابتين كوك » Captain Cook في زيلندة الجديدة حيناً ، لاحظ أن بحارته حين عادوا إليه من جولاتهم على الشاطئ ، كانوا حُمُرَ الأنوف أو صُفُرَها بأصباغ صناعية ، ذلك لأن أنوفهم قد لصقت بها الأصباغ التي كانت الجميلات من أهل ذلك الإقليم قد طليتن بها أجسادهن^(٣١) ؛ ونساء « الفلّاتة » Fellatah في أفريقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم في تجميل أنفسهن : فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية بأن يلففنها طوال الليل في أوراق الخناء ، ويصبغن أسنانهن بالأزرق والأصفر والأرجواني على هذا التوالى ؛ ويطلين شعرهن طلاءً أزرق ، ويخططن جفونهن بالكحل^(٣٢) وكل سيدة من قبيلة « بُنْجُو » تحمل في حقيبة أدوات التجميل ، ملقطة تنزع به الرموش والحواجب ، ومشابك شعر على هيئة الرماح ، وخواتم وأجراساً ، وأزراراً ومشابك^(٣٣) . لكن السُدَج الأولين — مثل الإغريق أيام بركليز — ضاقوا صدرأ لسرعة زوال هذه الأصباغ ، فابتكروا الوشم والوشم والثياب أدوات للتزين أدوم بقاء ،

ففي كثير من القبائل أسلم الرجال والنساء أنفسهم للإبرة الصابغة وتحملوا في غير تملل حتى وشم الشفاه ؛ ففي جريئته تشم الأمهات بناتهن في سن مبكرة ليهدن لهن الزواج عاجلاً^(٤٤) ؛ لكن الوشم في أغلب الحالات لم يكن له ما أراده الناس من وضوح وتأثير ؛ لذلك طفق عدد من القبائل في كل قارة يصمم الجسم بوصات عميقة ليكونوا أجمل منظرًا في أعين زملائهم ، أو أبشع هيئة في أعين أعدائهم ؛ فكما قال عنهم « ثيوفيل جوتييه » Théophil Gautier : « إنهم لما عزت عليهم الثياب ووسائل الزينة ، زينوا جلودهم »^(٤٥) ، فكانوا يجرحون أجسامهم بحجر الصوان أو بقواقع الحمار ، ثم كثيراً ما يضعون في الجرح كرة من الطين لتوسع من الوصمة ؛ فأهالي « مضيق تورس » كانوا يشخون في جسومهم وصمات ضخمة ، وقبائل « أبيوكوتا » Abeokuta كانوا يجعلون وصماتهم شبيهة بشكل الضب أو التمساح أو السلحفاة^(٤٦) ، ويقول « جيورج » Georg : « لست تجد من أجزاء الجسم جزءاً لم يجمد له أو يزينوه أو يشوهوه أو يصبغوه أو يجرقه أو يشموه أو يصلحوه أو ينسوطه أو يقبضوه ، مدفوعين إلى ذلك بالعجب بأنفسهم والرغبة في التجميل »^(٤٧) فقبيلة « بوتوكودو » Butocudos استمدت اسمها هذا من خابور يغرزونه في الشفة السفلى وفي الأذنين حينما يكون الناشئ في سنته الثامنة ، ثم ما ينفكون يستبدلون به خابوراً أكبر حتى تبلغ الفتحة اتساعاً طول قطره أربع بوصات^(٤٨) ؛ والنساء الهوتنوت يعملن على إطالة الشفرتين الصغيرتين حتى تبلغاً طولاً عظيماً ، بحيث يتكون منها ما يسمى بـ « فوطة الهوتنوت » التي تلقى عند رجالهم إعجاباً عظيماً^(٤٩) ، وكانت أقراط الأذان وأقراط الأنوف ضرورات لا غنى عنها ؛ حتى لقد ذهب سكان « جيپسلند » Gipsland إلى أن من يموت بغير قرط في أنفه سيلقى في الآخرة عذاباً أليماً^(٥٠) ؛ وكأنى بالسيدة العصرية تقول عن ذلك كله إنه وحشية فظيعة ، تقول هذا إذ هي تثقب أذنيها للأقراط ، وتصبغ شفيتها وخديها ، وتلقط شعرات حاجبها ، وتقيم أهداب جفنيها ،

و «تَبَدَّرُ» وجهها وعنقها وذراعيها وتضغط قدميها ؛ إن بَحَارَنَا الموشوم ليتحدث عن «الهمج» الذين رأهم في رحلاته حديث الرجل الرفيع يعطف على هؤلاء الأدنين ؛ والطالب من أهل أوربا ، يفزعه ما يحدثه البدائيون في أجسامهم من تشويه ، لكنه مع ذلك يُزْهِى بما عليه هو من وصمات يعدّها علائم الشرف .

والغالب أن تكون الثياب في بدايتها ضرباً من الزينة ، فهي عامل يعوق الاتصال الجنسي أو يشجع عليه ، أكثر منها وقاية نافعة من البرد أو ستراً للعورة^(٥١) ؛ فقد كانت العادة عند قبيلة «كبرى» Cimbrī أن يزحفوا على الثلج بأجسام عارية^(٥٢) ، ولما أشفق «دارون» على الفويحيين من عُرْيهم ، أعطى أحدهم قطعة من القماش الأحمر ليتقي بها البرد لكن الرجل مزقها أشرطة ، ووزعها على زملائه ، فاستعملوها للزينة ؛ فهم كما قال عنهم «كوك» إنهم منذ الأزل «قد رضوا لأنفسهم العُرى لكنهم ما زالوا يطمعون في الجمال»^(٥٣) ، وكذلك حدث أن مزق نساء أورينوكو ما أعطاهن إياه الآباء الجزويت من ثياب ، ولبسها أشرطة حول أعناقهن ، قائلات في غير تردد «إنهن يستحجن أن يلبسن الملابس»^(٥٤) ويصف كاتب قديم أهل البرازيل الأصليين بأنهم عراة الأجسام عادة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : «وبعضهم الآن يلبس الثياب ، لكنهم لا يقدرونها كثيراً حتى إنهم ليرتدونها على سبيل البدع أكثر مما يرتدونها التزاماً للاحتشام ، أو يلبسونها لأنهم مأمورون بذلك . . . وإنك لتشهد ذلك فيمن يخرجون أحياناً من ديارهم ، لا يرتدون من الثياب ما يغطي أجسامهم أبعد من سرّة البطن ، أو هم يضيفون إلى ذلك طاقية على رؤوسهم ، مخلقين سائر الثياب في دُورهم»^(٥٥) ؛ فلما زادت الثياب على كونها أداة للزينة ، أصبحت علامة تدل على أن المرأة متزوجة ومخلصة لزوجها ، أو استُخدمت لإبراز قوام المرأة وجمالها ؛ وفي معظم الحالات ، ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ما تتطلبه النساء في العصور التي تلت ، وهو ألا تكون الغاية تغطية العُرى ، بل أن تزيد من فتنة

أجسامهن أو توحى بها ؛ إن كل شئ في تغيير إلا المرأة والرجل .
وكلا الجنسين منذ البداية آثرا الزينة على الثياب ؛ فالتجارة البدائية قلما
تعنى بالضرورات ، إنما هي تحصر نفسها عادة في مواد الزينة واللعب^(٥٦) ؛
والأحجار الكريمة هي من أقدم عناصر المدينية ؛ فلقد وُجدت أصداف
القواقع والأسنان معقودة في عقود للزينة ، وُجدت في مقابر لبثت على
وجه الدهر عشرين ألف عام^(٥٧) ثم من البدايات الساذجة ، سرعان
ما تتطور أمثال هذه الحلى حتى تبلغ من ضخامة الحجم حدا بعيداً ، وتلعب
في الحياة دورا عظيما ؛ فبناء قبيلة « غالا » كن يلبس خواتم بلغ وزنها
سنة أرتال للمرأة الواحدة ، وبعض نساء « الدنكا » يحملن نصف قنطار
من الزينة ؛ وحدث لجميلة من جميلات أفريقيا أن لبست خواتم نحاسية
حميت في حرارة الشمس بحيث اضطرت أن تستخدم خادما خاصاً يظلها
أو يُروِّح عليها ؛ وكانت ملكة « الوابونيا » Wabunias على نهر الكونغو
تلبس حول عنقها إطارا نحاسيا يزن عشرين رطلا ؛ فكان لزاماً عليها أن
ترقد حيناً بعد حين لتستريح ؛ أما النساء الفقيرات اللاتي لم يسعهن الحظ
إلا بمقدار خفيف من المعادن الكريمة ، فقد كن يحاكين في دقة مشية
أولئك اللاتي يحملن من تلك الزينة البشعة حملا ثقيلا^(٥٨) .

إذن فأول مصادر الفن قريب الشبه بزهو الحيوان الذكر بألوانه وريشه
أيام التزاوج ؛ والدافع إليها هو الرغبة في تجميل الجسم وتزيينه ؛ وكما أن
حب الإنسان لنفسه وحبه لعشيرته من الجنس الآخر ؛ إذا فاض عن القدر
المطلوب ، صَبَّ فيضه من الحب على الطبيعة ، فكذلك الدوافع إلى
التجميل ينتقل من العالم الخاص إلى الدنيا الخارجية ؛ فنحاول النفس أن
تعبّر عن نفسها في أشياء موضوعية ؛ متخذة في ذلك وسيلتي اللون
والشكل ؛ ولذا فالفن يبدأ حقيقة حين يبدأ الناس في تجميل الأشياء ؛
ولعل أول ما تعلق به فن التجميل هو الخزف ، فعجلة الخزاف — مثل
الكتابة ومثل الدولة هي وليدة العصور التاريخية ؛ لكن البدائيين

- أو على الأصح النساء البدائيات - حتى قبل هذه العجلة التي يستعملها الخزّاف ، استطعن أن يرتفعن بهذه الصناعة القديمة إلى مرحلة الفن ، وأخرجن من الطين والماء وأصابعهن الماهرة صوراً لها اتساق يبعث على الدهشة ؛ وإن أردت شاهداً فانظر إلى الخزف الذي صنّعه قبيلة « بارونجا » Baronga في أفريقيا الجنوبية^(٥٩) أو الذي صنّعه قبيلة « بويبلو » من الهنود^(٦٠) Pueblo Indians .

والخزّاف حين يزخرف سطح الآنية التي صنعها بزخارف ملونة ، إنما هو بذلك يخلق فن التصوير ، فالتصوير في أيدي البدائين لم يكن بعد قد أصبح فناً مستقلاً ، بل كان وجوده متوقفاً على فن الخزف وصناعة التماثيل ؛ والفطريون إنما يصنعون ألوانهم من الطين ، وأهل « أندامان » Andamanes يصنعون الألوان بخلط المغرة (تراب حديدي) بالزيوت أو الشحوم^(٦١) ؛ واستخدموا مثل هذه الألوان في زخرفة الأسلحة والآلات والآنية والمباني ، وكثير من القبائل الصائدة في أفريقيا وأوقيانوسيا ، كانت تصوّر على جدران كهوفها أو على الصخور المجاورة لها ، تصاوير ناصعة لصنوف الحيوان التي أرادت صيدها^(٦٢) .

ويجوز كذلك أن يكون الخزف وصناعته أصل النحت كما كان أصل التصوير ؛ فنبين للخزّاف أنه لا يستطيع فقط أن يصنع الأواني النافعة ، بل في مقدوره كذلك أن يصور الأشخاص في تماثيل يستفاد منها تماماً للسحر ، ثم بعدئذ أراد أن يصنع هذه الأشياء لتكون جميلة في ذاتها ؛ لقد نحت الإسكيمو قرون الوعل وعاج فيلة البحر تماثيل صغيرة للحيوان والإنسان^(٦٣) ، وكذلك أراد البدائي أن يميز كونه بعلامة ، أو يميّز عمود الطوطم أو قبراً من القبور بتمثال صغير يدل على معبوده أو على ميّته ؛ فكان أول ما نحت من ذلك وجهاً على عمود ، ثم نحت رأساً ، ثم نحت العمود كله ؛ ومن هذا التميز لقبور الآباء بتماثيل تصور الموتى ، أصبح النحت فناً^(٦٤) ؛ وعلى هذا النحو أقام سكان جزيرة إيستر القدامى تماثيل هائلة على قبور موتاهم ، كل تماثل من حجر واحد ، ولقد وجدنا عشرات من هذه

التماثيل يبلغ كثير منها عشرين قدماً في ارتفاعه ، وبعضها تراه الآن سطیح الأرض مهشما ، كان ارتفاعه لا يقل عن تسعين قدماً .

لكن كيف بدأ فن العمارة ؟ إننا لا نكاد نستطيع إطلاق هذا الاسم الضخم على بناء الكوخ البدائي ، لأن العمارة ليست مجرد بناء ، لكنها بناء جميل ؛ وإنما بدأت العمارة فناً حين فكّر رجل أو فكّرت امرأة لأول مرة أن تقيم بناء للمظهر وللنفع معاً : وربما اتجه الإنسان بهذه الرغبة في خلق الجمال والفخامة على البناء ، إلى المقابر قبل أن يتّجه بها إلى الدُّور ؛ وبينما تطور العمود التذكاري الذي أقيم عند المقبرة إلى فن التماثيل ، فقد تطور القبر نفسه إلى المعبد ، ذلك لأن الموتى عند البدائيين كانوا أهم وأقوى من الأحياء ، هذا فضلاً عن أن الموتى مستقرون في مكان واحد ، بينما الأحياء يتجولون هنا وهناك بحيث لا تنفعهم الدُّور الدائمة .

ولقد وجد الإنسان لذة في الإيقاع منذ زمان بعيد ، وربما كان ذلك قبل أن يفكر في نحت الأشياء أو بناء المقابر بزمان طويل ؛ وأخذ يُطَوِّرُ صياح الحيوان وتغريده ؛ وقفزه ونقرّه ، حتى جعل منه غناء ورقصاً ؛ وربما أنشد - مثل الحيوان - قبل أن يتعلّم الكلام^(٥٦) ورقص حين أنشد الغناء ؛ والواقع أنك لن تجد فناً يميز البدائيين ويعبر عن نفوسهم كما يعزّهم الرقص ويعبّر ، ولقد طوّره من سداجة أولية إلى تركيب وتعقيد أين منهما رقص المتحضرين ؛ ونوّعه صوراً شتى تُعدُّ بالآلاف ؛ فالأعياد الكبرى عند القبائل ، كانت تحتفل أولاً بالرقص في صورتين : الجمعي والفردى ؛ وكذلك كانت الحروب الكبرى تبدأ بخطوات وأناشيد عسكرية ؛ والمحافل الكبرى في الدين كانت مزيجاً من غناء ومسرحية ورقص ؛ إن ما يبدو لنا ضرباً من اللعب ، قد كان على الأرجح أموراً جدية للإنسان الأول ؛ فهم حين كانوا يرقصون ، لم يريدوا بذلك أن يعبروا عن أنفسهم وكفى بل قصدوا إلى الإيحاء إلى الطبيعة وإلى الآلهة ، مثال ذلك استحثاث

الطبيعة على وفرة النسل كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذى ينتج عن الرقص ؛ ويرى « سبنسر » أن الرقص يرجع فى أصله إلى ترحيب ذى طقوس برئيس عاد من الحروب ظافراً ؛ أما « فرويد » فرأيه أن الرقص أصله التعبير الطبيعى عن الشهوة الحسية ، وفن الجماعة فى إثارة الرغبة الجنسية ؛ فلو كان لنا أن نقول - غير متجاوزين هذه الآراء من حيث ضيق النظر - بأن الرقص إنما نشأ من الطقوس المقدسة وألوان العريضة ، ثم جمعنا النظريات الثلاث التى أسلفنا ذكرها فى نظرية واحدة ؛ كان لنا بذلك فكرة عن أصل الرقص هى أدق ما يمكننا الوصول إليه اليوم .

ولنا أن نقول بأنه عن الرقص نشأ العزف الموسيقى على الآلات كما نشأت المسرحية ؛ فالعزف الموسيقى - فيما يبدو - قد نشأ عن رغبة الإنسان فى توقيع الرقص توقيعاً له فواصل تحدده ، وتصاحبه أصوات تقويه ؛ وعن رغبته كذلك فى زيادة التهيج اللازم للشعور الوطنى أو الجنسية بفعل صرخات أو نغمت موزونة ؛ وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء ، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر ؛ فقد بذل الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من نبوغ فى صناعة الأبواق بأنواعها والطبول والشعخاشينخ والمصفقات والنايات وغيرها من آلات الموسيقى ، صنعها من قرون الحيوان وجلودها وأصدافها وعاجها ، ومن النحاس والخيزران والخشب ؛ ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة ؛ ومن وتر القوس قديماً نشأت عشرات الآلات ، من القيثارة البدائية إلى الكمان والبيانو الحديثين ؛ ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون ، وتطور السُّلَّم الموسيقى من غموض وخفوت حتى أصبح على ما هو عليه الآن (٣٦) .

ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة ، خُلِقَ لنا « الهمجى » المسرحية والأوبرا ، ذلك لأن الرقص البدائى كان فى كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة ،

فقد كان يحاكي حركات الحيوان والإنسان ولا يجاوز هذه المرحلة ، ثم انتقل إلى أداء يحاكي به الأفعال والحوادث ؛ فمثلا بعض القبائل الاسترالية كانت تقوم برقصة جنسية حول فجوة في الأرض يوشّون حوافها بالشجيرات ليمثلوا بها فرج المرأة وبعد أن يحركوا أجسامهم حركات نشوانة غزلية ، يطعنون برماهم طعنات رمزية في الفجوة ؛ وقبائل استراليا الشمالية الغربية ، كانت تمثل مسرحية الموت والبعث لا تختلف إلا في درجة البساطة عن مسرحية اللغز في القرون الوسطى والمسرحية العاطفية في العصر الحديث ؛ فكنت ترى الراقصين يهبطون إلى الأرض في حركة بطيئة ، ثم يغطون وجوههم بغصون يحملونها ، تمثيلا للموت ؛ حتى إذا ما أشار لهم الرئيس ، نهضوا نهوضا مباغتاً وهم يرقصون ويغنون رقصا وغناء عنيفين يدلون بهما على فوزهم الذي أحرزوه ، ويعلنون بعث الروح (٧) وعلى هذا النحو أو ما يشبهه ، كانوا يقومون بمئات الأوضاع في التمثيل الصامت ، ليصفوها أهم الأحداث في تاريخ القبيلة ، أو أهم الأفعال في حياة الفرد ؛ فلما اختفى التوقيع من هذا التمثيل ، تحول الرقص إلى مسرحية ، وبهذا ولدت لنا صورة من أعظم صور الفنون .

بهذه الوسائل خَلَقَ لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة صور الحضارة وأسسها ؛ فإذا ما نظرنا إلى الوراء نستعرض هذا الوصف الموجز للثقافة البدائية ، وجدنا هناك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية وُضعت لنا أصولها في هذه المرحلة : الصيد والسَّماكَة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال ؛ وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبئت جذورها في هذه المرحلة : العشيرة والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة ؛ وكذلك ترى الحرية والنظام - هذان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنية كلها - قد تلاءما وتوافقا لأول مرة في هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة ؛ وقامت أسس الأخلاق :

تدريب الأطفال وتنظيم الجنسين : وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء ؛ وكذلك وضعت أسس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه في تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع ؛ وتطور الكلام إلى لغات معقدة ، وظهرت الجراحة وظهر الطب ، وبدت بوادر متواضعة للعلم والأدب والفن ؛ وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لعهد تم فيه إبداع عجيب ، فنظام يُخلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يُشَقُّ من حياة الحيوان لينتهي إلى الإنسان الحكيم ؛ فبغير هؤلاء «الهمج» وما أنفقوه من مائة ألف عام في تجريب وتحسس ، لما كُتِبَ للمدنيّة النهوض ؛ فنحن مَدِينُونَ لهم بكل شيء تقريباً - كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل كذلك إنه اليافع المتحلّل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدعة ، من أسلاف أميين ورثوه ما ورثوه بكدهم الطويل .

الباب السادس

بدايات المدنية فيما قبل التاريخ

الفضل الأول

ثقافة العصر الحجري القديم

الغاية من دراسة ما قبل التاريخ - فئة الدراسة الأثرية

إننا في حديثنا السابق ، لم نلتزم الدقة في الحديث ، فهذه الثقافات البدائية التي عرضناها كوسيلة لدراسة عناصر المدنية ، لم تكن بالضرورة الأصول التي تفرعت عنها مدنيّتنا ؛ فليس ما يمنع أن تكون بقايا منحلّة لثقافات أعلى تدهورت حين تحركت زعامة البشر في إثر الثلوج التي تنزاح عن صدر الأرض ، فانتقلت من المدارين إلى المنطقة الشالية المعتدلة ، ولقد حاولنا أن نفهم كيف تنشأ المدنية بصفة عامة وكيف يتم تشكيلها ؛ ولا يزال أمامنا أن نتعقب أصول مدنيّتنا الخاصة فيما قبل التاريخ(*) ، ونحب الآن أن نبحث بحثاً موجزاً - لأن مجال هذا البحث لا يمس أغراضنا إلا من هوامشها - فننتعقب الخطوات التي خطاها الإنسان قبل التاريخ ، ليمهد السبيل إلى المدنية التي عرفها التاريخ ؛ كيف أصبح إنسان الغابة أو إنسان الكهف هو المعمارى المصرى ، أو الفلكى البابلى ، أو النبى العبرى أو الحاكم الفارسى ، أو الشاعر اليونانى ،

(*) نستعمل هذه العبارة « فيما قبل التاريخ » لتدلّ بها على كل العصور السابقة للمدنيّات التاريخية .

أو المهندس ابروماني ، أو القديس الهندي ، أو الفنان الياباني ، أو الحكيم الصيني ؛ لا بد لنا أن نسلك سبيلنا من علم الأجناس البشرية - عن طريق علم الآثار - لننتهي إلى التاريخ .

إن الباحثين يملأون بطاح الأرض كلها قبونها بحثاً : طائفة تريد الذهب ، وطائفة تريد الفضة وثالثة تنشئ الحديد ، ورابعة تسعى وراء الفحم ، وكثيرون إلى جانب هؤلاء يطلبون المعرفة ؛ فيالها من مهمة عجيبة هذه التي يضطلع بها مَنْ يستخرجون آلات العصر الحجري من جوف الأرض عند ضفاف السوم ، ويدرسون بأعناق مشرّبة الصور الناصعة المرسومة على أسقف الكهوف من عهد ما قبل التاريخ ، ويخرجون بحاجم قديمة من مدافنها عند « تشوكوتين » Chou Kou Tien ويكشفون عن المدائن القديمة في « موهنجودارو » Mohengo-daro أو « يقطان » Yucaton ؛ وينقلون الانتقاض في سلال تحملها القوافل في مقابر المصريين التي استنزل أصحابها اللعنة على نابشها ، وينفضون التراب عن قصور « مينوس » و« پريام » ويزيلون الغطاء عن « پرسوپوليس » ، ويحفرون الأرض في إفريقيا حفراً ليجدوا بقية من قرطاجنة ، وينقذون من ثنايا الغابات معابد « أنجور » العظيمة ! لقد عثر في فرنسا « چاك بوشيه دى پرت » في سنة ١٨٣٩ على أول أثر من الصوّان مما خلفه العصر الحجري ؛ ولبت العالم يسخر منه تسعة أعوام كاملة ، لأنه كان في رأى العالم عندئذ مخدوعاً ؛ وفي سنة ١٨٧٢ أزال « سليمان » - بماله الخاص ، وبوشك أن يكون قد اعتمد على يديه دون غيرها في ذلك - أزال التراب عن أحداث مدائن طروادة وإنها لكثيرة ؛ لكن العالم كله ابتسم له ابتسامة المرتاب ؛ ولعل التاريخ لم يشهد من قرونه قرناً اهتم أهله بالتاريخ كالقرن الذى تلا رحلة شمپوليون الشاب في صحبة نابليون الشاب إلى مصر (عام ١٧٩٨) وعاد نابليون من رحلته خالى الوفاض ؛

أما شيمبوليون فقد عاد وفي قبضته مصر بأسراها ، ماضيها وحاضرها ؛ ومنذ ذلك الحين ، أخذ كل جيل يستكشف مدينيات جديدة وثقافات جديدة ، ويرجع خطوة وراء خطوة بحدود معرفة الإنسان بتطوره ؛ فلن تجد جوانب كثيرة من حياة هذا النوع البشرى السافك للدماء ، أجمل من هذا الشغف الشريف بالاستطلاع ، هذه الرغبة القلقة المغامرة في سبيل العلم .

الفصل الثاني

أهل العصر الحجري القديم

بطانة جيولوجية - الأنماط البشرية في ذلك العصر

كتب لنا الكتّابُ عدداً ضخماً من الكتب ليوسّعوا نطاق علمنا بالإنسان البدائي ، ويخفوا معالم جهلنا به ؛ ونحن نترك للعلوم الأخرى ذات الخيال المبدع مهمة وصف الناس في العصرين الحجريين القديم والحديث ، ونكتفي هنا بما نحن مَعْنِيُون به ، وهو تعقّب الإضافات التي أضافها الثقافات الحجرية بعصرها القديم والحديث ، إلى حياتنا المعاصرة .

إن الصورة التي ينبغي أن نكونها لأنفسنا ببطانةٍ للقصة التي نرويها ، هي صورة أرض تختلف اختلافاً بيننا عن الأرض التي تحملنا اليوم في حياتنا العابرة ؛ هي صورة أرض ربما كانت ترتجف بأنهار الثلج التي كانت تبتاحها حيناً بعد حين ، والتي جعلت من المنطقة المعتدلة اليوم منطقة منجمدة مدى آلاف السنين ، وكوَّمتْ جلاميد من الصخر مثل جبال الهملايا والألب والرانس ، في طريق هذا المحراث الثلجي الذي كان يشق الأرض في سيرة شقاً(*) .

فلو أخذنا بنظريات العلم المعاصر على سرعة تغييرها ، قلنا إن الكائن الذي أصبح فيما بعد إنساناً حين تعلّم الكلام ، كان أحد الأنواع القادرة على الملازمة بين نفسها وبين البيئة ، التي بقيت بعد هذه القرون المتجمدة بجليدها ؛ وبينما كان

(*) تحدد النظرية الجيولوجية القائمة الآن تاريخ عصر الجليد الأول بسنة ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الأولى التي توسّطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ٤٧٥,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر الجليد الثاني بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد . والمرحلة الثانية التي توسّطت عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدي الثالث بسنة ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الثالثة التي توسّطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ١٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدي الرابع (والأخير) بسنة تقع بين ٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد(٢) ونحن الآن في مرحلة أعقبت عصر جليدياً لم يحسب تاريخ نهايته حساباً دقيقاً .

الجليلد يتراجع في المراحل التي تتوسط العصور الجليدية ، (بل قبل ذلك بكثير فيما نعلم) استكشف هذا المخلوق العجيب النار ، وطَوَّرَ فنَّ نحت الصخر والعظم ليصنع أسلحة وآلات ، فهد السبيل بذلك لقدوم المدنية .

ولقد وجدت بقايا كثيرة ترجع إلى هذا الإنسان السابق للتاريخ - ولو أن هذه المعلومات أصابها كثير من التعديل فيما بعد - ففي سنة ١٩٢٩ كشف صيني شاب عالم بالحفريات الحيوانية والنباتية ، وهو « و . س . بي » W. C. Pei في كهف عند « تشو كوتين » - وهو يبعد عن « بينين Peiping نحو سبعة وثلاثين ميلا - عن جمجمة ، وقد قال عنها علماء خبراء مثل « الأب بريل » Abbé Breuil و « ج . إلـيـت سميـث » G. Eliot Smith إنها جمجمة بشرية ووجدت آثار من النار بالقرب من الجمجمة ؛ كما وجدت أحجار استخدمت آلات بغير شك ؛ لكنهم وجدوا كذلك عظام حيوان ممزوجة بتلك الآثار ، أجمع الرأي على أنها ترجع إلى عصر الـهـلـيـسـتوسين الأول وهو عصر تاريخه مليون سنة مضت^(٣) ؛ هذه الجمجمة التي وجدت عند « بينين » هي بإجماع الآراء أقدم ما نعرف من القواقع البشرية ، والآلات التي وجدت معها هي أقدم مصنوعات في التاريخ ؛ وكذلك وجد « دُوسُن » Dawson و « وُودْ وُورْد » Woodward عند « پـلـتـداون » في مقاطعة سـسـيـكـس بإنجلترا ، سنة ١٩١١ قطعاً من العظم يمكن أن تكون بشرية ، وهي التي تعرف اليوم باسم « إنسان پـلـتـداون » أو باسم « يوانثروپس » Eoanthropus (معناها إنسان الفجر) والتاريخ الذي يحدونه لها يتراوح على مسافة طويلة من الزمن ، من سنة مليون إلى ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ومثل هذه التخمينات يدور أيضاً حول عظم الجمجمة وعظام الفخذ التي وجدت جاوه سنة ١٨٩١ وعظمة الفك التي وجدت قرب هيدلبرج سنة ١٩٠٧ ؛ وأقدم القواقع التي لا شك في أنها بشرية وجدت في « نياندرتال » بالقرب من دسلدورف بألمانيا سنة ١٨٥٧ ، وتاريخها فيما يظهر هو سنة ٤٠٠٠٠

قبل الميلاد ، وهى تشبه البقايا البشرية التى كُشِف عنها فى بلجيكا وفرنسا واسبانيا بل وعلى شواطئ "بحر جاليلى" ؛ حتى لقد صَوَّر العلماء عصرآ بأسره من « إنسان النياندرتال » ساد أوروبا منذ حوالى أربعين ألف عام قبل عصرنا هذا ؛ وكان هؤلاء الناس قصاراً ، لكن لهم جماجم سعة الواحدة منها ١٦٠٠ سنتيمتر مكعب أى أنها أكبر من جمجمة الرجل فى هذا العصر بمائتى سنتيمتر مكعب^(٤)

ويظهر أن قد حل جنس "جديد" اسمه « كرو - مانيون » Cro-Mangon حول سنة ٢٠٠٠٠ قبل الميلاد محل هؤلاء السكان الأقدمين لأوروبا ، كما تدلنا الآثار التى كُشِف عنها (سنة ١٨٦٨) فى مغارة بهذا الاسم فى منطقة «دوردوني» فى فرنسا الجنوبية ؛ ولقد استخرجت بقايا كثيرة من هذا النقط ترجع إلى العصر نفسه ؛ من مواضع مختلفة فى فرنسا وسويسرا وألمانيا وويلز . وكلها تدل على قوم ذوى قوة عظيمة وقوام فارغ يتراوح طوله من خمس أقدام وعشر بوصات إلى ست أقدام وأربع بوصات ولهم جماجم سعة الواحدة منها تختلف من ١٥٩ إلى ١٧١٥ سم مكعب^(٥) ، وتعرف فصيلة « كرو - مانيون » كما تعرف فصيلة « نياندرتال » باسم « سكان الكهوف » ذلك لأن آثارهم وجدناها فى الكهوف ، لكن ليس هناك دليل واحد على أن الكهوف كانت كل ما لديهم من المساكن ؛ فقد يكون ذلك سخرية بنا من الزمن ، أعنى أن علماء الحفريات لم يجدوا من آثار هؤلاء الناس إلا آثار من سكنوا الكهوف ولاقوا فيها منايهم ؛ والنظرية العلمية اليوم تذهب إلى أن هذه الفصيلة العظيمة إنما جاءت من آسيا الوسطى مارة بإفريقية . حتى بلغت أوروبا ؛ وأنها شقت طريقها فوق جصور من الياپس يقال إنها كانت عندئذ تربط إفريقية بإيطاليا وأسبانيا^(٦) . وإن طريقة توزيع هذه القواقع البشرية ليميل بنا إلى الظن بأنهم لبثوا عشرات من السنين بل ربما لشوا قروناً طوالا يقاتلون فصيلة « نياندرتال » قتالا عنيفاً لانتزاع أوروبا من أيديهم . وهكذا ترى أن النزاع بين ألمانيا وفرنسا ضارب بجذوره فى القدم ؛ ومهما يكن من

أمر فقد زال إنسان « نياندرتال » عن ظهر الأرض حيث عمرها لإنسان « كرو - مانيون » الذى أصبح السلف الأساسى الذى عنه جاءت أوروبا الغربية الحديثة ، وهو الذى وضع أساس المدنية التى انتهت إلى أيدينا اليوم ، إن الآثار الثقافية لهذه الأنماط البشرية التى بقيت فى أوروبا من العصر الحجري القديم تقع فى سبعة أقسام رئيسية تختلف باختلاف المواضع التى وجدنا فيها أقدم الآثار أو أهمها فى فرنسا . وكلها جميعاً إنما يتميز باستخدام آلات غير مصقولة ؛ والأقسام الثلاثة الأولى منها قد تم لها التكوين فى الفترة المضطربة التى توسطت العصرين الجليديين الثالث والرابع .

١ - الثقافة (أو الصناعة) السابقة للعهد الشيلى Pre-Chellean وهو عصر يقع تاريخه حول سنة ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ومعظم الأحجار الصوانية التى وجدناها فى هذه الطبقة الوطيفة من طبقات الأرض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صاغوها بصناعتهم والظاهر أنهم قد استخدموها كما صادفوها فى الطبيعة [ذلك إن كانوا قد استخدموها إطلاقاً] لكن وجود أحجار كثيرة بينها لها مقبض يلائم قبضة اليد ، ولها حدة وطرَف (إلى حَدٍّ ما) يجعلنا نزع هذا الشرف للإنسان السابق للعهد الشيلى ، شرف صناعة أول آلة استخدمها الأوربيون ، وهى المديّة الحجرية .

٢ - الثقافة الشيلية ويقع تاريخها حول سنة ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد وقد تحسنت فيها هذه الآلة بإرهاف جانبيها لإرهافا على شىء من الغلظة وبثديتها بحيث تتخذ شكل اللوزة ، ثم تهينتها تهينة تكون أصلح لقبضة اليد البشرية .

٣ - الثقافة الأشولية Acheulean ويقع تاريخها حول ٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوروبا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وإفريقية والشرق الأدنى والهند والصين ؛ وهذه المرحلة لم تُصلح من المديّة الحجرية لإصلاحها يجعلها أكثر تناسقا وأحد طرفا فحسب ، بل أنتجت إلى جانب ذلك

النواعا كثيرة من الآلات الخاصة كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورءوس السهام وسان الرماح والمدى ، وفي هذه المرحلة تستطيع أن ترى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية .

٤ - الثقافة المoustérian ، وتوجد آثارها في القارات كلها ، مرتبطة ارتباطاً يسترعى النظر ببقايا إنسان النياندرتال ، وذلك في تاريخ يقع على نحو التقريب قبل الميلاد بأربعين ألفاً من السنين ؛ والمدينة الحجرية لأدارة نسبياً بين هذه الآثار ، كأنما أصبحت عندئذ شيئاً عفى عليه الزمان وحلَّ محله شيء جديد ؛ أما هذه الآلات الجديدة فقوم الواحدة منها رقيقة واحدة من الصخر ، أخف من المدينة السابقة وزناً وأرهف حَدّاً وأحسن شكلاً ، صنعتها أيدٌ طال بها العهد بقواعد الصناعة ؛ فإذا صعدت طبقة من الأرض في طبقات العهد الهليستوسيني في جنوب فرنسا وجدت بقاء الثقافة التالية ؛

٥ - الثقافة الأورجناسية Aurignacian وتقع حول عام ٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ، وهي أولى المراحل الصناعية بعد أعصر الجليد ، وأولى الثقافات المعروفة لإنسان « كرو - مانيون » ؛ وهانها في هذه المرحلة أضيفت إلى آلات الحجر آلات من العظم - مشابك وسندانات وصاقلات الخ - وظهر الفن في نقوش غليظة منحوتة على الصخر ، أو في رسوم ساذجة بارزة ، أغلبها رسوم لنساء عاريات (٧) ؛ ثم جاءت في مرحلة متقدمة من مراحل تطور إنسان « كرومانيون » ثقافة أخرى ، هي ؛

٦ - الثقافة « السولتريه » Solutrean التي ظهرت حول سنة ٢٠٠٠٠ قبل الميلاد في فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولنده ؛ وهنا أضيفت إلى أسلحة العهد الأورجناسي السالف وأدواته ، مُدَي وصفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ؛ وصُنِعَت كذلك إبرٌ دقيقة حادة من العظم ، وقُدَّتْ آلات كثيرة من قرن الوحل ؛ وترى قرون الوعل منقوشة أحياناً برسوم رسوم حيوانية أرق بكثير من

الفن في العصر الأورجناسي السابق ، وأخيرا عند ما بلغ إنسان كرومانيون ذروة تطوره ، ظهرت :

٧ - الثقافة المجدلية Magdalenian التي ظهرت في أرجاء أوروبا كلها حول سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهي تتميز في الصناعة بمجموعة كبيرة متنوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وهي تبلغ حدها الأقصى في مشابهة ولابر متواضعة لكنها تصل حد الكمال في الإلتقان ، وهذه المرحلة هي التي تميزت في الفن برسوم «التساميرا» Altamira وهي أدق وأرق ما صنعه إنسان كرومانيون .

وضع إنسان ما قبل التاريخ ، في هذه الثقافات التي شهدتها العصر الحجري القديم ، أسس الصناعات التي كُتِبَ لها أن تبقى جزءا من التراث الأوروبي حتى الثورة الصناعية ، وكان مما سَهَّلَ نقلها إلى المدينة الكلاسيكية والمدينة الحديثة انتشار صناعة العصر الحجري القديم ؛ والجمجمة وتساوير الكهوف التي وجدناها في روسيا سنة ١٩٢١ ، والأحجار الصوانية التي كشف عنها في مصر « دى مورجان » De morgan سنة ١٨٩٦ ، وآثار العصر الحجري القديم التي وجدناها « ستُنْ كار » Seton-Karr في الصومال ؛ ومستودعات العصر الحجري القديم في منخفض الفيوم (*) وثقافة جليج ستيل في جنوب أفريقيا ، كلها تدل على أن « القارة المظلمة » قد اجتازت نفس المراحل تقريبا التي أوجزناها فيما سلف عن أوروبا قبل التاريخ ، وذلك من حيث صناعة الرقائق الحجرية (٨) ؛ بل ربما كانت الآثار التي وجدناها في تونس والجزائر ، مما يشبه آثار العصر الأورجناسي ، يؤيد النظرية القائلة بأن أفريقيا هي الأصل في تلك الثقافة ، أو هي الحلد الذي وقف عنده إنسان « كرومانيون » ، وبالتالي الإنسان الأوروبي (٩) ولقد احتُفِرَت آلات من العصر الحجري القديم في سوريا والهند والصين وسبيريا وغيرها من أصقاع آسيا (١٠) كما

(*) واحدة إلى الغرب من النيل الأوسط .

حُر عليها « أندرو » وسابقوه من الجزويت في منغوليا^(١١) ؛ وكذلك احتُفِرَتْ هياكل لإنسان النياندرتال وأحجار صَوَّانية كثيرة من العهدين « الموستيرى » و « الأورجناسى » في فلسطين ، ولقد رأينا كيف كشف حديثا في « بيبين » عن أقدم ما نعرفه من بقايا الإنسان وأدواته ، ووجدت آلات من العظم في نبراسكا ، وأراد بعض العلماء الذين يتأثرون بالروح الوطنية أن يردّوها إلى عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ وكذلك وجدت رءوس سهام في « أوكلاهوما » وفي المكسيك الجديدة ويؤكد لنا واجدوها أنها صنعت عام ٣٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهكذا تراه جسرا عريضا ذلك الذى نقل عبْرَه إنسانٌ ما قبل التاريخ أسس المدنية إلى زميله الإنسان الذى يظهر فى عصور التاريخ .

الفصل الثالث

الفنون في العصر الحجري القديم

الآلات - النار - التصوير - النحت

لو أننا في هذا الموضع أو جزنا ذكر الآلات التي صنعها إنسان العصر الحجري القديم ، لصوّرنا لأنفسنا صورة عن حياته أوضح مما لو تركنا تخيلنا الجبل على الغارب ؛ وطبيعي أن يكون أول الآلات حجراً في قبضة الإنسان ، فكم من حيوان كان في مستطاعه أن يعلم الإنسان هذه الآلة ؛ وإذن فقد أصبحت المديّة الحجرية المُدبَّبةُ في أحد طرفيها ، والمستديرة في طرفيها الآخر لتلائم قبضة اليد ، أصبحت هذه المديّة الحجرية للإنسان البدائي مطرقة وفأساً ولزميلاً وكاشطة وسكيناً ومنشاراً ؛ إلى يومنا هذا تری الكلمة (الإنجليزية) التي نستعملها لتدل على المطرقة : (hammer) معناها حجر من حيث أصلها اللغوي^(٢) ثم حدث على مرّ الأيام أن تنوعت هذه الآلات في أشكالها حتى بَعُدَتْ عن أصلها المتجانس ، فتقبت الثقوب لتتركيب مقبض ، وأدّخلت الأسنان لتكون الآلة منشاراً ، وغرزت فروع في المديّة الحجرية لتصبح مغرازا أو سهماً أو حربة ؛ كما أصبح الحجر الكاشط الذي كان يتخذ شكل القوقعة ، مجرافاً أو معزاقاً ؛ وأما الحجر الخشن الملمس فقد جعلوه مِبْرَدًا ، وجعلوا حجر المقلاع أداة للقتال بقيت قائمة حتى اجتاز بها الإنسان عصر المديّة الكلاسيكية ذاتها ؛ ولما ظفر إنسان عصر الحجري القديم بالعظم والخشب والعاج إلى جانب الحجر ، صنع لنفسه مجموعة متنوعة من الأسلحة والآلات : صنع الصاقلات والمناوئ والقفّوس والصفائح والكاشطات والمثاقب والمصاييح والمدى والأزاميل والشواطير والحرايب والسندانات ، وحافرات المعادن والخناجر وأشخاص السمك وحرايب الصيد والخوابير والمغاريز والمشابك

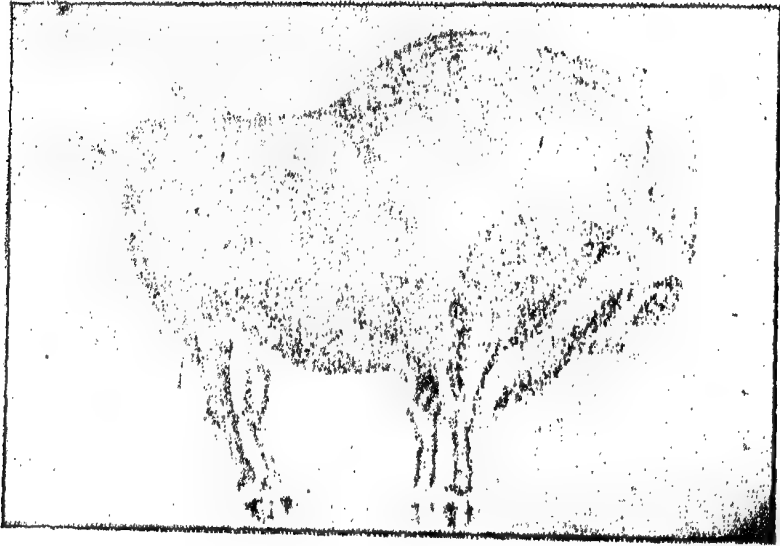
وكثيراً غير هذه بغير شك^(١٤) ؛ فكان يَعْشُرُ في كل يوم على عِلْمِهِ جديداً ، وكان له من قدرته العقلية أحياناً ما يُطَوَّرُ به مكتشفات المصادفة إلى مخترعات مقصودة .

لكن آيته العظمى هي النار ، وفي ذلك أشار « دارون » إلى أن حم البراكين الحار قد يكون هو الذي علّم الإنسان ما النار ؛ ويقول لنا « أسخيلوس »^(*) إن « برومئوس » صنع النار بإشعاله حطّبة في فوهة بركان مشتعل على جزيرة « لنوس »^(١٥) ؛ وبين آثار إنسان النياندرتال قِطْعٌ من الفحم وقطع من العظم المحترق وإذن فالنار التي صنعها الإنسان تذهب في التّديم إلى أربعين ألف عام مضت^(١٦) ؛ وقد أعدّ إنسان « كرو - مانيون » لنفسه آتية خاصة تمسك الشمع الذي كان يشعله ليستضيء بضوئه ، وإذن فالمصباح كذلك له من العمر هذا الزمن الطويل ، والراجح أن تكون النار هي التي مكّنت الإنسان من اتقاء البرد الناشئ عن الجليد الزاحف ؛ وهي التي أتاحت له النوم في الليل آمناً من الحيوان الذي ارتعد لهذه الأعجوبة ارتعاداً يَعدّل عبادة الإنسان البدائي إياها ؛ وهي التي قهرت الظلام فكانت أول عامل من العوامل التي حدّدت من الخوف ، والتقليل من خوف الإنسان أحد الخيوط الذهبية في نسيج التاريخ الذي ليست كل خيوطه ذهباً ، وهي التي خلقت فن الطهي القديم الشريف ، فوسعت بذلك من نطاق الأطعمة الصالحة بحيث صالحت آلاف منها للأكل ولم تكن صالحة له من قبل ، وهي التي أدّت أخيراً إلى صهر المعادن والتحام بعضها في بعض ، وهو الخطوة الوحيدة الحقيقية التي تتقدّمها الإنسان في فنون الصناعة من عهد إنسان « كرو - مانيون » إلى عصر الانقلاب الصناعي^(١٧)

وإننا نروى لك عجباً - وكأنما نرويه لنوضع قصيدة « جوتنيه »^(***) على

(*) أسخيلوس مسرحي يوناني قديم ، ومن أهم مسرحياته « برومئوس » الذي علم الإنسان سر النار . فطوبى لجميع لألهة ذلك ، إذ كان هذا السر من علم الآلهة وحدهم (المعبود)
(**) شاعر فرنسي عاش في القرن التاسع عشر ؛ والقصيدة المشار إليها عنوانها « النور »
وهي مترجمة إلى العربية في الجزء الثالث من قصة الأدب في العالم من ١٤٢ - ١٤٤ (الممرات)

الفن الجبار الذى يحيا بعد فناء الأباطرة وزوال الدول - إننا نروى لك
عجبا إذ نقول إن أوضح آثار خَلَفَها لنا لإنسان العصر الحجري القديم هي
قِطْعٌ من فنه ؛ فقد حدث منذ ستين عاما أن وقع « السنبور مارسيلينو دى
سوتولا » Marceleno de Soutuola على كهف واسع في مزرعته في
« أَلْتَامِيرا » في شمال إسبانيا ، وكان هذا الكهف قد لبث آلاف الأعوام
مقفّل الباب كأنه صومعة راهب ، أفلتته صخور سقطت عليه وأمدّتْها
الطبيعة بملاط من لدنها حين ربطت بعضها ببعض بأعمدة من رواسب ؛
ثم جاء الإنسان فضرب في هذا الموضع ضرباته لينشئ لنفسه جديدا ، فإذا
به يكشف بضرباته عن مدخل الكهف بطريق المصادفة ؛ ومرت بعدئذ
ثلاثة أعوام ثم جاء « سوتولا » ليستطلع الكهف فلحظ على جدران
علامات غريبة ؛ وذات يوم صحبته ابنته الصغيرة ، ولما لم تكن بذات طول
يُلْزِمُها الانحناء كما كانت الحال مع أبيها ، فقد صعدت بصرها نحو السقف
تشهد ما فيه ، فرأت تخطيطا غامضا لبيزُونٍ ضخم (البيزون هو ثور برّى)



صورة بيزون (ثور متوحش)
وجدت في كهف من العصر الحجري في « أَلْتَامِيرا » بإسبانيا

جميع الرسم ناصع الألوان ؛ فلما فُحص السقف وفُحصت الجدران فحُصا دقيقا وجدت صور أخرى كثيرة ، وفي عام ١٨٨٠ نشر « سوتولا » تقريراً عن مشاهداته ، فقابله علماء الآثار بريبة هي من خصائصهم دائماً ؛ وتفضل عليه بعض هؤلاء العلماء بزيارة يفحص فيها تلك الرسوم ، وينتهى بها إلى الإعلان بأن الرسوم زائفة خطتها يدٌ خادعة ؛ ودام هذا الشك — الذى ليس لأحد أن يعترض عليه مدى ثلاثين عاماً ؛ ثم اكتشفت رسوم أخرى فى كهوف يُجمع الرأى على أنها من عهد ما قبل التاريخ (مما فيها من آلات صَوْنِيَّة غير مصقولة وعظم وعاج مصقولين) فأيدت ما كان وصل إليه « سوتولا » من رأى ، لكن « سوتولا » عندئذ لم يكن على قيد الحياة ؛ وجاء اليجيولوجيون إلى « ألتاميرا » وأقروا بإجماع أدرك الحقيقة بعد أوانها ، أقروا بإجماع أن الرواسب التى كانت تغطى بعض الرسوم إنما ترجع إلى العصر الحجري الأول (١٨) ؛ والرأى السائد الآن هو أن رسوم « ألتاميرا » — والجزء الأكبر من بواقي الفن التى بقيت لنا من عهد ما قبل التاريخ — ترجع إلى الثقافة المجدلية ؛ أى إلى عهد يقع نحو سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد (١٩) ؛ وكذلك وُجدت رسومٌ أحدث تاريخاً من هذه بقليل ، لكنها ما زالت من بقايا العصر الحجري القديم ، فى كهوف كثيرة فى فرنسا (*) .

وتمثِّل الرسوم فى معظم الحالات صنوفاً من الحيوان — أوعالاً وماموث وحياداً وخنازير ودببة وغيرها ؛ وربما كانت هذه الصنوف عند إنسان ذلك العصر طعاماً شهيماً ، ولذلك كانت موضع عنايته فى صيده ؛ وأحياناً ترى صورة الحيوان مطعونا بالسهم ، ومن رأى « فريزر » و « ريناخ » Reinach أن أمثال هذه الصور قُصد بها أن تكون رسوماً سحرية تأتى بالحيوان فى قبضة الفنان أو الصائد ، وبالتالي تأتى به إلى معدته (٢٠) ومن الجائز أنها رسوم لم يقصد بها إلا

(*) مثل « كومبارل » و « ليزى يز » و « فون دى جون » وغيرهما .

إلى الفن الخالص . دفع إليها الإبداع الفنى وما يصاحبه من لذة فنية خالصة ؛ ذلك لأن أغلظ الرسوم كان يكفى لتحقيق غايات السحر ، على حين ترى هذه الصور فى كثير من الحالات قد بلغت من الرقة والقوة والمهارة حداً يوحى إليك بما يحزنك ، وهو أن الفن — فى هذا الميدان على أقل تقدير — لم يتقدم كثيراً فى شوط التاريخ الإنسانى الطويل ؛ فهائنا الحياة والحركة والفخامة قد عبّر عنها تعبيراً قوياً أحياناً بخط واحد جرىء أو خطّين ؛ وهائنا نخط واحد يصور حيواناً حياً مهاجماً (أم هل تكون سائر الخطوط قد محاها الزمن ؟) ترى هل تبقى صورة « العشاء الأخير » لـ « ليوناردو » Leonardo أو صورة الإدعاء للرسام « إلجريكو » El Greco كما بقيت رسوم « كرو — مانيون » فتظهر خطوطها وألوانها بعد عشرين ألف عام ؟

إن التصوير فن مُتَرَفٌّ ، لا يظهر إلا بعد قرون طوال تنقضى فى تطو عقلى وفنى ؛ ولو أخذنا بالنظرية السائدة اليوم (ومن الخطر دائماً أن تأخذ بالنظريات السائدة) فالتصوير قد تطور عن صناعة التماثيل ، التى بدأت بتماثيل كاملة ، ثم تطورت إلى تماثيل بارزة على لوحة منحوتة ، وعن هذه جاءت خطوة التصوير بالخطوط والألوان ؛ وإذن فالتصوير عبارة عن نحت نقص بُعْدٌ من أبعاده ؛ والخطوة الوسطى من فن ما قبل التاريخ تراها ممثلة خير تمثيل فى نحت بارز يدهشك بقوة وضوحه ، والنحت تمثال لرجل رامٍ بسهم (أو بحربة) وهو منقوش على الصخور الأورجناسية « بلوسيل » فى فرنسا ؛ وكشَفَ « لوى بيجوان » Louis Begouen فى كهف « بَارْبِيَج » فى فرنسا — بين آثار مجدلية أخرى عن كثير من المقابض المزخرفة صُنِعَتْ من قرون الأوعال ؛ وأحد هذه المقابض يدل على فن ناضج ممتاز ، كأنما كان الفن عندئذ قد اجتاز أجيالاً من التدريب والتطور ؛ وكذلك ترى فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط منذ عهد ما قبل التاريخ — فى مصر وكريت وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا — صوراً لا عدد لها للنساء سمينات

قصيرات تدل إما على عبادة هؤلاء الناس للأومة ، وإما على تصور الإفريقيين عندئذ للجمال ؛ واستُخرجت من الأرض في تشكوسلوفاكيا تماثيل حجرية لحصان وحشي ووعل وماموث ، وجدت بين آثار ترجع — على سبيل الشك — إلى سنة ٣٠.٠٠٠ قبل الميلاد^(٢٢) .

إن تفسيرنا لسيّر التاريخ على أنه سيّرٌ إلى الأمام ، لينهار من أساسه إذا شككنا في أن هذه التماثيل وهذه النقوش البازرة وهذه الصور — على كثرة عددها — قد لا تكرر إلا جزءاً صغيراً جداً من الفن الذي عبّر به الإنسان البدائي عن نفسه ، أو الذي زيّن به حياته ؛ إن ما بقي لنا كله في كهوف ، حيث عزّ على عوامل المناخ أن تتسلّل إليها فتفسدها ، ولكن ذلك لا يقتضي أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن فناً إلا حين سكن الكهوف ؛ فربما نحتوا في كل مكان كما يفعل اليابانيون ، وربما أكثروا صناعة التماثيل مثل اليونان ، وربما لم يقتصروا في تصويرهم على صخور الكهوف ، بل صوروا كذلك رسومهم على أقشه وخشب وعلى كل شيء آخر — غير مستثنين أجسامهم ؛ ربما أبدعوا في الفن آيات تفوق بكثير هذه القطع التي بقيت لنا ؛ ففي أحد الكهوف وجدنا أنبوبة مصنوعة من عظم الوعل وملائة بمادة ملوّنة لجلد الإنسان^(٢٣) ؛ وفي كهف آخر وجدنا لوحة مصورة فنان مما يوضع عليه الألوان عند التصوير ، وجدناها لا تزال تحمل على سطحها طلاء مغرة (تراب حديدي) أحمر ، على الرغم من مائتي قرن مضت عليه^(٢٤) ؛ فالظاهر أن الفنون بلغت درجة عالية من التطور ، واتسع نطاقها بين الناس منذ ثمانية عشرة ألف عام ؛ فيجوز أن قد كان بين أهل العصر الحجري القديم فنانون محترفون ، ويجوز أن قد كان بينهم كذلك همج متأخرون يتصورون جوعاً ويسكنون الكهوف الحقيرة ، حيث ينكرون الطبقات الغنية من التجار ، ويتآمرون على قتل الجامع العلمية ، ويصنعون بأيديهم أشياء وصلت إلينا فأصبحت تُحتقَر .

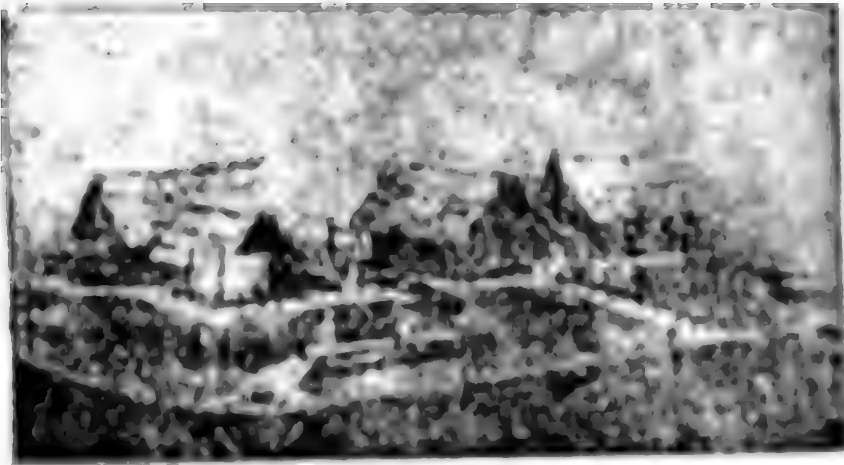
الفصل الرابع

ثقافة العصر الحجري الحديث

فضلات المطبخ - سكان البحيرة - ظهور الزراعة - استئناس الحيوان -
الأساليب الفنية - النسيج في العصر الحجري الحديث - صناعة الخزف -
البناء - النقل - الدين - العلم - موجز لما تم فيما قبل التاريخ من
تمهيد للمدنية

حدث في فترات مختلفة من القرن الأخير أن وُجِدَت أكداس هائلة مما يرجح أنه من فضلات ما قبل التاريخ ، وُجِدَت في فرنسا وساردينيا والبرتغال والبرازيل واليابان ومنشوريا ، ثم وُجِدَت فوق ذلك كله في الدانمرك حيث أطلق عليها هذا الاسم العجيب « فضلات المطبخ » الذي أصبحت تعرف به أمثال هذه الأكداس من آثار القديم ؛ وتتألف أكداس الفضلات هذه من قواقع ، خصوصا قواقع المحار وبلح البحر وحلزونات البحر ، ومن عظام كثير من الحيوانات البرية والبحرية ، ومن آلات وأسلحة صنعت من العظم والقرن والحجر غير المصقول ، ومن بقايا أرضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ؛ وهذه الآثار التي لا تأخذ العين بجمالها - دلائل واضحة على ثقافة تكونت في تاريخ يقع حول سنة ثمانية آلاف قبل الميلاد ؛ وهو تاريخ أحدث من العصر الحجري القديم بالمعنى الدقيق ، لكنه كذلك لا يبلغ من الحداثة أن يكون من العصر الحجري الحديث ، لأنه لم يكن قد وصل بعد إلى عصر استخدام الحجر المصقول ؛ ولا نكاد نعلم شيئا عَمَّنْ خَلَفُوا لنا هذه الآثار ، سوى أن ذوقهم كان أصيلا إلى حد ما ؛ ويمكن اعتبار « فضلات المطبخ » - بالإضافة إلى ثقافة « مادزيل » Mas d'azil في فرنسا ، وهي أقدم من الفضلات قليلا - بمثابة لعصر حجري وسيط ، هو بمثابة مرحلة انتقال بين العصرين الحجريين القديم والحديث ؛

وفي عام ١٨٥٤ حيث كان الشتاء من الجفاف بدرجة حارقة للمألوف ، هبط مستوى الماء في البحيرات السويسرية ، فكشف عن عصر آخر من عصور ما قبل التاريخ ؛ فوجدت أكوام فيما يقرب من مائتي موضع في هذه البحيرات ؛ ووجد أن هذه الأكوم ظلت مكانها تحت الماء زمنا يتراوح بين ثلاثين قرنا وسبعين ؛ ولقد كانت تلك الأكوام مصفوفة



صورة أكلها المصور بخياله المتنازل التي بقيت آثارها تحت ماء البحيرات السويسرية من عصور ما قبل التاريخ

على نحو يبين أن قد شيدت فوقها قُرَى صغيرة ، وربما شيدت هناك رغبة في العزلة أو في الدفاع ؛ وأن كل قرية كانت تتصل باليابس بجسر ضيق لم تزل أساس بعضها في أماكنها ؛ وكانت قوائم المنازل نفسها ما تزال باقية هنا وهناك ، لم تُزلْها الأمواه بفعلها الدموّب(*) وبين هذه الخرائب الباقية وجدت آلات من العظم والحجر المصقول الذي أصبح

(*) وجدت مساكن في البحيرات شبيهة بهذه الدور ، في فرنسا وإيطاليا وسكتلنده والروسيا وأمريكا الشمالية والهند وغيرها ؛ ولا تزال قرى كهذه موجودة في بورنيو وسومطره وغينا الجديدة وغيرها(٣٦) والذي أطلق على فنزويلا اسم « البندقية الصغيرة » هو « ألونسو دي أوجدا » الذي استكشفها من الأوربيين (سنة ١٤٩٩) فوجد أن أهلها يعيشون في مساكن على هيئة الأكوام في بحيرة ماراسيبو(٣٧)

في رأى علماء الآثار علامة مميزة للعصر الحجري الحديد الذى ازدهر حول سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد فى آسيا، وحول سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد فى أوروبا (٢٨): وشييه بهذه الآثار ما تركه الجنس البشرى العجيب الذى نسميه باسم «بناة الجبال» من بقايا هائلة ضخمة فى وديان المسسى وفروعه ؛ ولنا ندرى عن ذلك الجنس من أجناس البشر إلا أنه فى هذه الجبال التى بنوها وتركوها على هيئة مذابح القربان أو على أشكال هندسية مختلفة أو على هيئة حيوانات الطوطم ، وُجدت أشياء صنعوها من حجر وقوقع وعظم ومعدن مطروق ، مما يضع هؤلاء الناس المغزيين فى خاتمة العصر الحجري الحديد :

فلو حاولنا أن نلفق صورة من هذه الأشئاث الأثرية عن العصر الحجري الحديد ، لرأينا فى الصورة على الفور خطوة جديدة خطاها الإنسان ، تثير فيك الدهشة عند رؤيتها ، ألا وهى الزراعة ؛ إنك تستطيع أن تقول إن التاريخ الإنسانى كله — بمعنى من معانيه — يدور حول انقلابين : الانقلاب الذى حدث فى العصر الحجري الحديث فنقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة ، والانقلاب الذى حدث أخيرا فنقله من الزراعة إلى الصناعة ؛ ولن نجد فيما شهد الإنسان من ضروب الانقلاب ما هو حقيقى أساسى كهلذين الانقلابين ؛ فالآثار تدلنا على أن « سكان البحيرة » كانوا يأكلون القمح والذرة والجويدار والشعير والشوفان ، فضلا عن مائة وعشرين نوعا من أنواع الفاكهة ، وأنواع كثيرة من البندق (٢٩) ؛ ولم نجد فى هذه الآثار محراثا ، ويجوز أن تكون علة ذلك هى أن سنان المحارث كانت تصنع من خشب ، فيُدقّ جذع شجرة إلى فرع بمسار من حجر الصّوان ؛ لكن نقشا محفورا على الصخر من العصر الحجري الحديث يدل دلالة لا يأتها الشك على أنها صورة فلاح يسوق محراثا يشدّه ثوران (٣٠) وهذا يحدد لنا اختراعا جاء بمثابة بداية لعصر جديدة من عصور التاريخ ؛ إن الأرض قبل أن تدخلها الزراعة كان فى استطاعها أن تهيب أسباب العيش لما يقرب من عشرين مليوناً

الأنفس البشرية (في تقدير سير آرثر كيث غير الدقيق) ، وحياة هؤلاء الملايين العشرين كانت معرضة لموت سريع بسبب الصيد والحرب^(٣١) ، أما بعد الزراعة فقد بدأ تكاثر الناس تكاثراً أَيْدَ سيادة الإنسان على الأرض سيادة مكيّنة لا شك فيها .

وفي الوقت نفسه كان أهل العصر الحجري الحديث يقيمون أساساً آخر من أسس الحضارة ، وهو استئناس الحيوان وتربيته ؛ ولا شك أن قد استغرق هذا العمل حيناً طويلاً من الدهر ، قد تكون بدايته أسبق تاريخاً من العصر الحجري الحديث ؛ فحب الإنسان بغريزته للاجتماع بغيره ربما كان عاملاً مساعداً على اتصال الإنسان والحيوان ، كما لا تزال نرى علائق ذلك واضحة في فرحة البدائيين بتدريب الوحوش المفترسة ، وفي ملء أكوأخهم بالقرود والبيغاوات وأمثالها من سائر الزملاء^(٣٢) وأقدم العظام في آثار العصر الحجري الحديث (حوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد) هى عظام الكلب — الذى هو أقدم زملاء الجنس البشرى عهداً وأشرفها خلقاً ؛ ثم جاءت بعد ذلك (حوالى ٦٠٠٠ قبل الميلاد) الماعز والخروف والخنزير والثور^(٣٣) وأخيراً جاء الحصان الذى لم يكن عند أهل العصر الحجري القديم إلا حيواناً يصاد ، إذا حكمتنا . من الرسوم التى فى الكهوف ؛ أما فى هذا العصر الحجري الحديث فقد أخذ الناس إلى حيث يسكنون واستأنسوه وجعلوا منه عبداً محبباً إلى نفوسهم^(٣٤) إذ استخدموه على شتى الصور ليزيد من ثروة الإنسان وفراغه وقوته ؛ وهكذا أخذ هذا الإنسان الذى بسط سيادته على الأرض آخر الأمر ، فى الإكثار من موارد طعامه بتربية الحيوان إلى جباب صيده له ؛ وربما عرف الإنسان كذلك فى هذا العصر الحجري الحديث نفسه — كيف يستخدم لبن البقرة طعاماً .

وأخذ المخترعون فى العصر الحجري الجديد شيئاً فشيئاً يوسعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا ترى بين مختلفاتهم بكّرات ورافعات ومُرْهِفَات ومغارز

وملاقط وفوؤوساً ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل
ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج وإبرا ومشابك
صَدْر ودبابيس^(٣٥) ثم هاهنا فوق هذا كله ترى العجلة ، وهى مخترع
آخِر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورة متواضعة من ضرورات
الصناعة والمدنيّة ؛ فهى فى هذه المرحلة من العصر الحجري كانت قد تطورت
إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ؛ وكذلك استعملوا
كل صنوف الحجر فى هذه المرحلة - حتى العِصِيّ منها كالحجر الزجاجي
الأسود - فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتُفِرَت الصّوَانات على نطاق
واسع ؛ فوجدت فى أحد محافر العصر الحجري الحديث ، فى مدينة براندن
بإنجلترا ، ثمان حافرات من قرن الغزال ، ورويت على أسطحها المعفّرة بصمات
العمّال الذين وضعوها هناك منذ عشرة آلاف من السنين ؛ وفى هليجيكا
كشفت عن هيكل عظمى لعامل من عمال المناجم فى العصر الحجري
الحديث ، سقط عليه حجر فأرداه ، كُشِف عنه ولا تزال الحافرة فى
قبضة يده^(٣٦) فعلى الرغم من مائة قرن تفصلنا عنه ، نحسّ كأنه واحد منا
ونشاطه بخيالنا الضعيف قزَعته وآلامه ؛ فكم من آلاف السنين قضّاها
الإنسان وهو يمزق أحشاء الأرض يستخرج الأسس المعدنية التى قامت
عليها المدنيّة !

فلما أن صنع الإنسان الإبر والدبابيس ، بدأ ينسج ، أو إن شئت فقل إنه لما
بدأ ينسج حرّكتته الضرورة إلى صناعة الإبر والدبابيس ؛ ذلك أن الإنسان لم
يعد يرضيه أن يدثر نفسه بفراء الحيوان وجلوده ، فنسج صوف خرافه وألياف
النبات أردية كانت هى أساس الثوب الذى يلبسه الهندوسى ، والشّملة التى كان
يلبسها اليونانى ، والثوب الذى يغطى أسفل الجسم الذى كان يرتديه المصبرى ،
وسائر الصنوف الخلابة التى تراها فى الثياب عند الإنسان ، ثم اصطنع الناس
صبغة استخرجوها صنوفاً من أخلاط عصير النبات أو مستخرجات الأرض ،
وصبغوا بها الثياب لتكون علامة ترف ينفرد بها الملوك ؛ والظاهر أن الإنسان

أول ما نسج جعل يصفّر الخيوط على نحو ما يصفّر القشّ بأنه يجدل خيطاً مع خيط ؛ ثم انتقل بعد ذلك إلى نقّس جلود الحيوان وربطها من هذه الثقوب بألياف غليظة تتخللها ، كالمشدّات التي كان يستعملها النساء حديثاً ، وكالأحذية التي تلبسها اليوم ؛ ثم أخذت الألياف تهذب تدريجاً حتى أصبحت خيط ، . وعندئذ أصبحت الحياكة من أهم الفنون عند المرأة ؛ فالماغازل التي بين آثار العصر الحجري الحديث تكشف عن أصل من الأصول العظمى للصناعة الإنسانية بل إنك لتجد في هذه الآثار حتى المرايا (٣٧) ، وإذن فقد أصبح كل شيء مُعدّاً للمدينة .

ولم نجد آثاراً خزفية في قبور الجزء الأول من العصر الحجري العظيم ، وإنما ظهرت منه قطع قليلة في آثار الثقافة المجدلية في بايجيكا (٣٨) ؛ لكنه العصر الحجري الحديث الذي خكّف لنا « فضلات المطبخ » هو الذي نجد في آثاره خزفاً على شيء من التقدم في الصناعة ؛ ونحن بالطبع لا نعلم كيف نشأت هذه الصناعة ؛ فيجوز أن قد لاحظ الإنسان البدائي أن الفجوة التي تصنعها قدمه في الطين ، كانت تحتفظ في جوفها بالماء دون أن يتسرب (٣٩) ؛ ويجوز أن قد شاءت المصادفة أن تلتق قطعة من الطين إلى جانب نار موقدة فتجف ، فتوحى بجفافها هذا إلى الإنسان الأول بالفكرة التي أفرزت في النهاية هذا المخترع ، وكشفت له عما يمكنه استغلاله من هذه المادة التي توجد بكثرة ، والتي تطاوع يده في تشكيلها ، والتي يسهل تجفيفها في النار أو الشمس ؛ ولا شك في أن الإنسان قد لبث آلاف السنين يحفظ طعامه وشرابه في آنية طبيعية كهذه ، إلى جانب كؤوس القَرع وجوز الهند وقواقع البحر ؛ ثم صنع لنفسه أقداحاً ومغارف من الخشب أو الحجر ؛ كما صنع السلال والمقاطف من الخلفاء والقش ، وهاهو ذا قد صنع لنفسه كذلك آنية أدوم بقاء من الطين المجفف وبه ابتدع مخترعاً جديداً يُعدّ من أعظم الصناعات التي عرفها الإنسان ، لكن إنسان العصر الحجري

الحديد لم يعرف عجلة الخزاف ، فيما تدل الآثار الباقية لنا ؛ إنما صنع بيديه هذا الطين أشكالاً ذات جمال ونفع في آل معاً ؛ وزخرف الآنية برسوم ساذجة^(٤٠) وهكذا جعل صناعة الخزف منذ بدايتها تقريباً لا تقف عند حد كونها صناعة فحسب ، بل جعل منها فناً كذلك .

وهامنا كذلك نجد العلامات الأولى لصناعة أخرى من كبرى الصناعات الأولى : صناعة البناء ؛ فإنسان العصر الحجري القديم لم يخلّف لنا أثراً كائناً ما كان لمسكن غير الكهوف ؛ حتى إذا ما بلغنا العصر الحجري الحديث ، ألقينا بعض وسائل البناء مثل السلم الخشبيّ والبكرة والرافعة والمفصلة^(٤١) ؛ فقد كان « سكان البحيرة » نجارين مهرة يربطون أعمدة الخشب إلى أساس البناء بخوابير ثابتة من الخشب ؛ أو يصلونها وهي موضوعة رأساً لرأس ، أو يزيدها قوة بدقّ عوارض تتطلب معها على الجوانب ؛ وكانت أرضيّة الغرفة عندهم من الطين ، وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين ، والسقف من اللحاء والقش والخلفاء والغاب ؛ ثم بمعونة البكرة والعجلة استطاع الإنسان أن ينقل مواد البناء من مكان إلى مكان ، وبدأ في وضع أساس ضخمة من الحجر لقمره ؛ وكذلك أصبح النقل صناعة من الصناعات ، فصنعت الزوارق التي لا بد أن تكون قد ملأت البحيرات حركة ؛ وثُقِلت التجارة عبر الجبال وإلى القارات البعيدة^(٤٢) ، وأخذت أوروبا تستورد من البلاد النائية أحجاراً نادرة كالعنبر والبشّم والحجر الزجاجي الأسود^(٤٣) وإنك لتجد في أصقاع مختلفة من الأرض تشابهاً في كلمات أو حروف أو أساطير أو خزف أو رسوم ، مما يدلّك على ما كان بين جماعات البشر قبل التاريخ من اتصال ثقافي^(٤٤)

ولو استثنينا الخزف ، وجدت أن العصر الحجري الحديد لم يخلّف لنا فناً نستطيع بمقارنته إلى ما كان عند إنسان العصر الحجري القديم من تصوير وصناعة تماثيل ؛ فهنا وهناك بين مشاهد الحياة في هذا العصر الحجري الحديث ،

من إنجلترا إلى الصين ، ترى أكواما مستديرة من الحجر ، أو أعمدة قائمة أو آثاراً ضخمة من البناء لا نعرف الغاية من بنائها ، كالتى تراها في « ستونهيستج » أو « موربهان » ، والراجع أننا لن نعرف معنى هذه الآثار البنائية أو وظائفها ، وربما كانت بقايا مذابح للقرايين أو معابد^(٥٥) ذلك لأن لإنسان العصر الحجري الحديد لا بد أن قد كانت له ديانات وأساطير يصور بها ما يعثور الشمس كل يوم من مأساة ونصر ، وما تصيب التربة من موت وبعث ، كما يصور بها تأثير القمر تأثيراً عجيباً على الأرض ، إنه ليستحيل علينا أن نفهم عقائد الإنسان في عصور التاريخ بغير افتراض أصول كهذه تمتد إلى ما قبل التاريخ^(٥٦) ؛ ويجوز أن يكون ترتيب الأحجار في هذه الأبنية نتيجة لاعتبارات فلكية ، ويدل على معرفتهم بالتقويم — كما يظن « شنيدر » Shneider^(٥٧) ، وكان للناس في ذلك العصر أيضاً بعض المعرفة العلمية، لأن بعض الجاهل من العصر الحجري الحديد وجدت بها آثار ترتبته ، وبعض الهياكل العظيمة فيها أعضاء يظهر أنها كُسِرت ثم جُبِرت^(٥٨)

ليس في وسعنا أن نقدر ما أدّاه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديرأ تاماً ، لأننا من جهة لا ينبغي أن ننساق وراء الخيال في تصوير حياتهم بحيث نجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشك من جهة أخرى أن الدهر قد عمّا آثاراً لو بقيت لضيقت مسافة الحُدُف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث ، ومع ذلك فما قد بقي لنا من أدلة على خطوات التقدم التي خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفي وحده لتقديره : فحسبنا - ما تم في العصر الحجري القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقديم الفنون ، وحسبنا ما ظهر في العصر الحجري الحديث من زواعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب . وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعمد منازعاً فيها ، والتوسع في عمرانها بأبناء الجنس البشرى ؛ هكذا وُضعت للمدنية كل أساسها ؛ كل شيء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ؛ فهياً للإنسان سبيلاً لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنية .

الفصل الخامس

مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية

١ - ظهور المعادن -

النحاس - البرونز - الحديد

متى وكيف بدأ الإنسان استخدام المعادن؟ لسنا ندرى ، نقولها هنا مرة أخرى ، وكل ما نستطيعه هو أن نقول على سبيل الظن إنه بدأ بفعل المصادفة، ونفترض أن قد كانت بداية ذلك في نهاية العصر الحجري الحديث ، ويؤيدنا في ذلك عدم ظهوره فيما وجدناه من آثار العصور السابقة لذلك التاريخ ؛ فلو حددنا هذا التاريخ بسنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، أبصرنا أمامنا صورة لعصر المعادن (والكتابة والمدنية) لا تمتد إلى أكثر من ستة آلاف عام ، نراها بمثابة الدليل الصغير الذي أعقب عصراً حجرياً امتد على وجه الدهر أربعين ألف عام على أقل تقدير ، أو أعقب عمراً طويلاً عاشه الإنسان مداه ملبون عام(*) ؛ ألا ما أحدث العهد الذي يدونه لنا التاريخ .

كلان النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان فيما نعلم ؛ فنجدته في مسكن من « مساكن البحيرة » عند « روتهاوزن » في سويسره ، ويرجع ذلك إلى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً^(١)، ونجدته أيضاً في أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع إلى سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً ؛ ثم نجدته في مقابر البداري في مصر ، ويرجع عهده إلى ما يقرب من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجدته كذلك في آثار « أور » التي ترجع إلى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد .

(*) ذلك إذا وافقنا على أن « إنسان بكين » يرجع إلى بداية العصر البليستوسين .

تقريباً ، وفي آثار « بناء الجبال » في أمريكا الشمالية ، التي ترجع إلى عصر
لا نستطيع تحديده^(٥٠) وليست تقع بداية عصر المعادن عند تاريخ اكتشافها ،
بل يبدأ ذلك العصر بتحويل المعادن بواسطة النار والطرق بحيث تلائم غايات
الإنسان ؛ ويعتقد علماء المعادن أن أول استعداد للنحاس من مناجمه الحجرية
جاء بفعل المصادفة حين أذابت نارٌ أوقدها الناس لبستدفشوا ، نحاساً كان
لاصقاً بالأحجار التي أحاطوا بها النار ؛ ولقد لوحظت أمثال هذه المصادفة
مرارا في اجتماعات البدائيين حول نارهم في عصرنا هذا ؛ ومن الجائز أن
تكون هذه الحادثة العابرة هي التي أدت بالإنسان الأول في نهاية الأمر
— بعد تكرارها مرات كثيرة — ذلك الإنسان الذي لبث أمدا طويلا لا يساوره
القلق في استعمال الحجر الأصم الصليب ، أن يجعل من هذه المادة المرنة
عنصرا يتخذ منه آلاته وأسلحته ، لأنها أيسر من الحجر صياغة وأدوم
بقاء^(٥١) ؛ والأغلب أن يكون المعدن قد استعمل بادئ ذي بدء بالصورة
التي قدمته عليها يد الطبيعة ، وإنما لَبَسَتْ فيها سخاء وبها إهمال في آن واحد ؛
فكان نقيا حيناً ، مشوبا في معظم الأحيان ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل
— وربما كان ذلك حول سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد — في المنطقة التي تحيط
بالطرف الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، أن وقع الناس على فن صهر
المعادن واستخراجها من مناجمها ؛ ثم بدءوا في صبها نحو سنة ١٥٠٠ قبل
الميلاد (كما تدل على ذلك النقوش البارزة في مقبرة رخ — مارا في مصر) ؛
فكانوا يصيئون النحاس المصهور في إناء من الطين أو الرمل ، ثم يتركونه يبرد
على صورة يريدونها ، مثل رأس الرمح أو الفأس^(٥٢) ؛ فلما أن كشف الإنسان
عن هذه العملية في النحاس ، استخدمها في مجموعة منوعة من المعادن الأخرى ؛
وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبنى أعظم ما يعرف
من ضروب الصناعة ، وتبها له الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء ؛
ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس في شرق البحر الأبيض المتوسط

هى التى سببت قيام ثقافات جديدة قوية فى الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، فى « عيلام » و « ما بين النهرين » ومصر ، ثم امتدت من هاتيك الأصقاع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدلتها حالا بعد حال (٥٣) .

غير أن النحاس وحده ليس ، فهو على الرغم من شدة صلاحيته للتشكيل مما ينفع فى تحقيق طائفة من أغراضنا (ماذا كان يصنع عصرنا الكهربائى بغير نحاس ؟) إلا أنه أضعف من أن يحتمل مهام السلم والحرب التى تتطلب معدنا أقوى ؛ لهذا كان لابد من عنصر آخر يضاف إلى النحاس ليشد من صلابته ، ورغم أن الطبيعة قد أشارت إلى الإنسان بما عسى أن يضيفه إلى النحاس لهذه الغاية من مواد كثيرة الأنواع ، بل إن الطبيعة كثيراً ما قدمت له نحاسا تم بالفعل خلطه واشتدت صلابته بما فيه من قصدير وزنك ، مكوّنة بذلك برونزا طبيعيا أو نحاسا أصفر ، على رغم هذه المعونة من الطبيعة ، فقد لبث الإنسان — فيما نظن — قرونا قبل أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الصدد ؛ وأعنى بها خلط معدن بمعدن خلطا مدبّرا مقصودا للحصول على مركبات أصلح لأغراضه ؛ وعلى كل حال فهذا الكشف قد اهتدى إليه الإنسان منذ خمسة آلاف عام على أقل تقدير لأننا وجدنا البرونز بين الآثار الكريتية التى ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وفى الآثار المصرية التى ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، وفى ثاى مدن طرواده سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد (٥٤) ؛ فلم يعد — إذن — فى وسعنا أن نتحدث عن « عصر البرونز » بمعنى الكلمة الدقيق ، لأن هذا المعدن قد ظهر لشعوب مختلفة ، فى عصور مختلفة ، وإذن فعبارة « عصر البرونز » ليس لها معنى زمنى توكيدي (٥٥) أضف إلى ذلك أن بعض الثقافات الإنسانية قد عبّرت مرحلة البرونز لم يخطّها ، بل وثب رأسا من عصر الحجر إلى عصر الحديد ، كما هى الحال فى ثقافات فنلندة وشمال روسيا وپولنيزيا وأفريقيا الوسطى وجنوب الهند وشمال أمريكا وأستراليا واليابان (٥٦) ؛ بل إن الثقافات التى ظهرت فيها مرحلة البرونز ، لم يحتل فيها هذا

المعدن إلا مكانة ثانوية ، باعتباره ترفاً يتمتع به الكهنة وعِليّتهُ الناس والملوك ، على حين ظل غمار الشعب مرغماً على الوقوف عند مرحلة الحجر لا يجاوزها^(٥٧) وحتى عبارتنا « العصر الحجري القديم » و « العصر الحجري الحديث » فهما نسبيتان إلى حد كبير ، وتصفان صوراً من الحياة أكثر مما تحدّدان أزماناً وعصوراً فإلى يومنا هذا يعيش كثير من الشعوب البدائية في عصرنا الحجري (مثل الإسكيمو وسكان جزائر بولنيزيا) لا يعرفون الحديد في حياتهم إلا على أنه ترفٌ يخيّم به الرحالة المستكشفون من خارج ؛ فعندما أرسى « الكابتن كوك » سفنه في زيلنده الجديدة سنة ١٧٧٨ ، اشترى بضعة خنازير بمسار ثمنه ستة بنسات (قرشان ونصف قرش) ، ووصف رحالة آخر سكان « جزيرة الكلب » بأنهم « في حاجة نهيمّة للحديد ، حتى لتحديثهم أنفسهم أن ينزعوا المسامير من السفن »^(٥٨)

ولئن كان البرونز قوياً شديداً الاحتمال ، إلا أن النحاس والقصدير اللّازمين لصناعته لم يكونا من الكثرة في الكمية أو في أماكن وجودهما بحيث يجد الإنسان حاجته من أجوده صنفاً لشئون الصناعة والحرب ؛ فكان لابد للحديد أن يظهر عاجلاً أو آجلاً ؛ وإنه لمن متناقضات التاريخ ألا يظهر الحديد - على وفرة - إلا بعد أن ظهر النحاس والبرونز ؛ وربما بدأ الناس استخدام الحديد بصناعة الأسلحة من حديد الشهب ، كما قد صنع « بُناةُ الجبال » - فيما يظهر - وكما يفعل بعض البدائيين حتى يومنا هذا ؛ ويجوز أن يكون الناس قد عقّبوا على ذلك بإذابة المعدن من منجمه بواسطة النار ، ثم طرقوه إلى حديد مشغول ؛ ولقد وجدنا ما يشبه أن يكون حديداً شهابياً في المقابر المصرية قبل عهد الأسرات المملوكة ؛ وتذكر النقوشُ البابليةُ الحديدَ على أنه سلعة نادرة ثمينة في عاصمة حواري (٢١٠٠ قبل الميلاد) ؛ وكشفنا عن مسسبك للحديد قد يرجع عهده إلى أربعة آلاف عام ، في روديسيا الشمالية ، كما أن استنجام الحديد في جنوب أفريقيا

ليس وليد العصور الحديثة ؛ وأقدم حديد مشغول مما نعرف ، مجموعة من المَدَى وَجِدَتْ في « جيرار » في فلسطين ، حَدَدَ « پترى » تاريخها بسنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ؛ ثم ظهر الحديد بعد ذلك بقرن كامل في مصر ، في عهد الملك العظيم رمسيس الثاني ؛ وبعد ذلك بقرن آخر من الزمان ، ظهر في جزر بحر إيجة ؛ وأما في غرب أوروبا فقد ظهر في « هولستات » Holistatt بالنمسا حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، كما ظهر في صناعة مدينة « لاتين » La Tène في سويسرا حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وقد عرفت الهند حين أدخله فيها الإسكندر ، وعرفته أمريكا على يدى كولمبس ، كما عرفت أوشيانيا بفضل « كوك »^(٥٩) ؛ وهذه السرعة الوثيدة الخطى ، طفق الحديد ، قرناً بعد قرن ، يطوف بالعالم ليغزوه .

٢ — الكتابة

أصولها الخزفية الممكنة — « رموز البحر الأبيض المتوسط » — الكتابة الهيروغليفية — أحرف الهجاء

لكن أوسع خطوة خطاها الإنسان في انتقاله إلى المدنية هي الكتابة ؛ ففي قطع من الخزف هبطت إلينا من العصر الحجري الثاني ، خطوط مرسومة بالألوان فسّر لها كثير من الباحثين على أنها رموز^(٦٠) ؛ وقد يكون هذا موضعاً للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة — بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبّر عن أفكار — قد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو ليس ؛ بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تم صناعته خزفاً ؛ ففي أقدم كتابة هيروغليفية في « سومر » توحى صورة الطائر بأوجه شبه بينها وبين الزخارف الطائرية الموجودة على أقدم الآثار الخزفية عند « سوزا » في « عيلام » ، كذلك أقدم صورة للغلال مما استُخدم في الكتابة التصويرية ؛ نقلت رأساً من الزخارف الغلالية الهندسية الأشكال في « سوزا » و « سومر » ؛

والأحرف المستقيمة الخطوط التي ظهرت بادئ الأمر في « سومر » حول سنة ٣٦٠٠ ق . م إن هي — فيما يظهر — إلا صورة مختصرة من الرموز والرسوم المصورة أو المطبوعة على الخزف البدائي في الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين أو في « عيلام » (١٦٠) ؛ وإذن فالكتابة — شأنها شأن التصوير والنحت — قد تكون في نشأتها فناً خزفياً إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم ؛ وبذلك تكون الطينة نفسها التي استحالت في يد الخزاف آنية ، وفي يد النحات تماثيل ، وفي يد البناء أجراً ، قد هيأت للكاتب مادته التي يخطط عليها كتابته ؛ وطريق التطور من هذه البداية إلى الكتابة السامرية في بلاد ما بين النهرين ، منطقي المراحل مفهوم التدرج .

وأقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا هي تلك التي وجدها « فليندرز پتري » Flinders Petrie على قطع الفخار وآنيته وعلى قطع من الحجر ، مما كشف عنه في مقابر ما قبل التاريخ ، في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى ، ولقد حدد عمرها بسخائمه المعهود في تقدير الأعمار ، بسبعة آلاف عام ؛ وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ، معظمها متشابه في جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ولم تكن هذه الرموز صوراً ، بل كان معظمها علامات تجارية — علامات تدل على الملكية والكمية أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري ؛ فلئن كان هذا الأصل المتواضع مما يؤذى الطبقة الوسطى من الأغنياء ، فإن لهم ما يعزيهم في أن الأدب قد اشتق أصوله من « فواتير » الحساب ومن شحنات المراكب ؛ ولم تكن العلامات حروفاً ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية ؛ ويستنتج « پتري » من ذلك أن « مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى

قطز ... حتى كتب النصر لنحو ستة رموز ، فأصبحت مِلِكًا مشاعاً لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت في عزلتها شيئاً فشيئاً» (٦١) والنظرية القائلة بأن هذه العلامات الرمزية هي أصل الأحرف الهجائية ، جذيرة بالاهتمام ، وهي نظرية امتاز الأستاذ « پترى » بأنه يعتنقها دون سائر العلماء (٦٢).

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموزية التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنباً إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل ، ولا تزال صخور بالقرب من البحيرة العليا (بحيرة سويپرير) تحمل آثاراً من الصور الغليظة التي استخدمها هنود أمريكا في روايتهم لقصة عبورهم هذه البحيرة الجبارة رويها للخلف ، أو ربما رويها لزملائهم ، رواية يعبرون فيها عن زهوهم بما صنعوا (٦٣) ؛ كذلك يظهر أن تطوراً كهذا نتقل الرسم إلى كتابة في أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط عند نهاية العصر الحجري الحديث ؛ وقيناً أنه ما جاءت سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد — وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمان طويل — حتى كانت « عيلام » و « سومر » ومصر قد طوّرت مجموعة من الصور التي يعبرون بها عن أفكارهم ، وأطلقوا عليها اسم « الكتابة الهيروغليفية » لأن معظم من قام بها كان من الكهنة (٦٤) وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك ، في كريت حول سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التي تمثل كل صورة منها فكرة ، كيف استحالت بخطاً الاستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفي ، إلى مقاطع . أعني إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ؛ ثم كيف استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات . وبهذا أصبحت حروفاً ؛ وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد في التاريخ إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر ، وأما في كريت فقد ظهرت

حول سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد^(٦٥) ؛ إن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ، ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء ؛ فقد أخذوها - فيما نظن - من مصر وكريت^(٦٦) وأدخلوها جزءاً جزءاً في « صور » و « صيدا » و « بيلوس » Byblos ، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا سماسرة لأحرف الهجاء يأخذونها من أصحابها ليذيعوها ، ولم يكونوا مبدعيها حتى إذا ما كان عصر هومر ، كان اليونان يأخذون هذه الأحرف الفينيقية - أو قلّ الأحرف التي اتحد في خلقها الآراميون جميعاً - وكانوا يطلقون عليها الاسمين الساميين للحرفين الأولين (وهما : ألفا ، بيتا ؛ وبالعبرية أليف ، بيت)^(٦٧) .

فالظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهي إحدى وسائل التجارة المسهلة لأموها ، فها هنا أيضاً ترى الثقافة كم هي مدينة للتجارة ؛ ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتاً لتتعاونتا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ؛ نستطيع أن نقول إن تطور الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقاً ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعها جميعاً لدولة واحدة ؛ إن بداية ظهور الكتابة هي الحد الذي يُعيّن بداية التاريخ ، تلك البداية التي يتراجع عندها كل اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .

٣ - المديّنات المفقودة

پولينزيا - أطلانطس

ما دمنا الآن قد دنونا من تاريخ الأمم المتحضرة ، فلا بد لنا أن نلاحظ أننا سنكتفى من كل ثقافة نعرضها بجزء يسير نختاره منها ، وليس ذلك فحسب ، بل قد لا نتناول بوصفنا إلا عدداً قليلاً من المديّنات التي يجوز أن تكون قد قامت قوائمها يوماً على الأرض ؛ فلبس في وسعنا أن نُصمَّ آذاننا فلا نسمع هذه الأساطير التي لم تنقطع روايتها طوال عصور التاريخ ، عن مديّنات كانت ذات يوم عظيمة عالية الثقافة ، ثم حلت بها كارثة من كوارث الطبيعة أو الحرب فحطمها تحطياً لم يُبق منها ولم يُذكر ، فإن حفائرنا الحديثة في مديّنات كريت وسومر وبقطان تدل كلها على مدى احتمال الصدق في هذه الأساطير

ففي المحيط الهادى آثار مديّنة واحدة على الأقل من هذه المديّنات الضائعة ؛ فالتمائيل الضخمة في جزيرة « إستر » ، وما يرويه الرواة في پولينزيا عن أم قوية ومقاتلين أبطال كانوا ذات يوم يكتبون المجد لساموا وتاهيتي ؛ ثم ما لسكانها من قدرة في الفن وحساسية في الشعر ، كل ذلك يدل على مجد ذاهب ، يدل على شعب لا يبدأ اليوم نهوضه ليأخذ في الحضارة ، بل يتدهور من منزلة عالية كان ينزلها ، وفي قاع المحيط الأطلسي ، يمتد جزء مرتفع تحت الماء (*) من ايسلنده شمالاً إلى القطب الجنوبي ، فينهض دليلاً جديداً يؤيد هذه الأسطورة التي نقلها إلينا أفلاطون (٦٨) في صورة جذابة خلاصة الأسطورة التي تروى عن حضارة ازدهرت يوماً على قارة محاطة بالماء بين أوروبا وآسيا ، ثم ضاعت بين عشية وضحاها حين ارتجّت الأرض ارتجاجاً فابتلع اليم تلك القارة في جوفه ابتهالا ، ويعتقد « شليمان »

(*) هناك هضبة تحت سطح البحر بمسافة تراوح بين ألفين وثلاثة آلاف متر ، تمتد وسط المحيط الأطلسي من الشمال إلى الجنوب ، يحيط بها من الجانبين أعماق من الماء تراوح من خمسة آلاف إلى ستة آلاف متر

— الذى بعث طروادة بعد موت — أن قارة أطلنطس كانت بمثابة حلقة اتصال بين ثقافتى أوروبا ويقطان ، وأن مصر كانت قد استمدت حضارتها من أطلنطس هذه (٦٩) ولعل أمريكا نفسها أن تكون هى أطلنطس وأنها كانت ذات حضارة قديمة متصلة بحضارات أفريقيا وأوروبا فى العصر الحجري الحديث ؛ ويجوز أن كل كشف جديد يقع عليه الإنسان اليوم ، هو كشف للمرة الثانية ، سبقه فى العصر السالف كشف أول .

لا شك أنه من الجائز — كما ظن أرسطو — أن يكون العالم قد شهد مدنات كثيرة ، وصلت إلى كثير من المخترعات وأسباب الترف ثم أصابها الدمار وزالت من ذاكرات البشر ؛ ويقول « بيكن » عن التاريخ إنه حطام سفينة ، إذ ضاع من الماضى أكثر مما بقى ؛ وإننا لنجد العزاء عن هذا الضائع فى رأى القائل بأنه كما أن ذاكرة الفرد لا بد أن تنسى الجزء الأعظم مما يصادفه فى خبرته من حوادث ، لكى يحتفظ الفرد بقوته العاقلة ، فكذلك الجنس البشرى كله لم يحتفظ فى تراثه إلا بأنصع وأقوى ما مرّ به من تجارب ثقافية — أم هل استمد هذا المحفوظ نصوعه فى الذاكرة وقوته لأنه وحده ما أجادت الذاكرة الاحتفاظ به ؟ — ومهما يكن من أمر تراثنا الذى نعيه ، فحتى لو لم يكن إلا عشر ما مرّ بالإنسان من تجارب ، فليس فى وسع إنسان أن يلمّ به كله ؛ وسنجد قصة الإنسان رغم ذلك كله مليئة مترعة بما يكفى .

٤ — مهود المدنية

آسيا الوسطى — أثار — خطوط الانتشار

إنه من المناسب أن نفتح هذا الفصل الذى ملأناه بأسئلة لا يمكن الجواب عنها ، بهذا السؤال : « أين بدأت المدنية ؟ » — وهو كذلك سؤال يعزّ على الجواب ؛ فلو أخذنا بما يقوله الحيولوجيون الذين يعنون فى أبحاثهم عما قبل التاريخ بضباب أين منه شطحات الميتافيزيقا ؛ لو أخذنا بما يقولونه ، لكانت المناطق

القاحلة في آسيا الوسطى ذات ماضٍ فيه ماء وفيه اعتدال في حرارة الجو ، وفيه ما يُزهره من بحيرات عظيمة وأنهار كثيرة (٧٠) ، تراجعت عنها آخر الموجات الجليدية ، فجفنت شيئا فشيئا حتى لم يعد ما يسقط على ذلك الإقليم من مطر كافيا لقيام المدن والدول ؛ فأخذت المدائن تقفر من أهلها واحدة ، في إثر واحدة ، حين هرب الناس غربا وشرقا وشمالا وجنوبا سعيا وراء الماء ؛ ولا تزال ترى أنقاض مدن مثل « باكترا » Bactrai غائصة في الصحراء إلى نصفها — ولا بد أن تكون « باكترا » هذه قد ازدهت بسكانها في مساحتها التي يمتد قطر دائرتها اثنين وعشرين ميلا ؛ ولقد حدث في عهد جدّ حديث — سنة ١٨٦٨ — أن اضطر عدد من أهل تركستان الغربية يقرب من ثمانين ألف نسمة ، أن يهاجر لأن الرمال الزاحفة قد غمرت موضعه من الأرض (٧١) وكثيرون يذهبون إلى أن هذه الأصقاع التي تسير اليوم في طريقها إلى الفناء ، قد شهدت أول خطوة أساسية من خطوات التقدم ، في هذا المزيج المؤلف من نظام وطعام وعرف وأخلاق وترف وثقافة ، والذي منه تتكون المدنية (٧٢) .

ولقد كشف « بيمبلي » سنة ١٩٠٧ في « أناو » جنوبي التركستان ، عن خزف وآثار أخرى تدل على ثقافة قديمة أرجعها إلى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد ، وربما أسرف في تقديره هذا فزاد أربعة آلاف (٧٣) ؛ وها هنا نجد زراعة القمح والشعير والذرة ، واستخدام الناس واستئناس الحيوان ، وزخرفة الفخار بزخارف بينها من التشابه في قواعد الرسم ما يدل على أنهم كانوا قد جمعوا التقاليد ربطانة في الفنون لعدة قرون سلفت (٧٤) والظاهر أن ثقافة تركستان سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كانت قد قطعت من الزمن أشواطاً ؛ وربما كان بينهم إذ ذاك مؤرخون يضربون في أعماق ما ضيهم عبثاً للبحث عن أصول المدنية ، وفلاسفة أخذوا يندبون بعبارة فصيححة ما أصاب الجنس البشري إذ ذاك من تدهور كان يؤدي به إلى الموت .

ولوا هتدينا بالخيال حيث يعزُّ علينا العلم الصحيح ، لقلنا إنه من هذا المركز

هاجر الناس — يلودون فراراً مما أصاب أرضهم من جفاف في المطر وجفاف في تربة الأرض — فساروا في اتجاهات ثلاثة ، يحملون معهم ما لهم من فن ومدنية ؛ فبلغت فنونهم — إن لم يبلغوا بفصيلتهم — أرض الصين ومنشوريا وأمريكا الشمالية من جهة الشرق ؛ وبلغت شمال الهند في سيرها إلى الجنوب ؛ ثم أدركت في طريقها نحو الغرب بلاد « عيلام » و« سومر » ومصر ؛ بل إيطاليا وأسبانيا كذلك (٧٥) ؛ فقد وجدت في « سوزا » وهي في « عيلام » القديمة (فارس الحديثة) آثار تشبه في نمطها آثار « أناو » شهاً يكاد يبرر للخيال الذي يعيد قوته صورة الماضي ، أن يفترض أنه قد كان بين « سوزا » و« أناو » صلات ثقافية في فجر المدنية (أى حول سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد) (٧٦) وكذلك يوجد شبهة كهذا في الفنون والمنتجات القديمة يوحى بوجود علاقة كهذه بين بلاد ما بين النهرين ومصر فيما قبل التاريخ ، وبوجود ارتباط يدل على اتصال مجرى المدنية .

ويستحيل عينا أن نعلم علم اليقين أى هذه الثقافات جاء أولاً ، وليس ذلك بكبير الأهمية ، لأنها جميعاً كانت في جوهرها أفراد أسرة واحدة ونمط واحد ، فلو كان لنا أن نخالف الرأى الشائع الذى اكتسب احتراماً لقديمه ، بحيث نضع « عيلام » و« سومر » قبل مصر ، فلسنا نصدر في ذلك عن عبث يريد مخالفة المعروف لذاتها ، لكننا نعتمد على الحقيقة التى تدل على أن عمر هذه المدنات الآسيوية ، إذا قيس إلى مدنات أفريقيا وأوروبا ، يمتدّ طولاً كلما ازداد علمنا بتلك المدنات عمقا ؛ فمجاريف علماء الآثار بعد أن قضت قرناً كاملاً في بحثها المظفر على ضفاف النيل ، انتقلت في سيرها عبّر السويس إلى جزيرة العرب وإلى فلسطين وبين النهرين وفارس ، وهي كلما خطّت في طريقها هذا ، ازدادنا ترجيحاً مع تزايد المعرفة التى تعود علينا من أبحاثنا ، أن الدلتا الخصبة للأنهار التى تجرى في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) هى التى شهدت أول مناظر المسرحية التاريخية للمدينة الإنسانية ، فيما نعلم .

المراجع *

1. Supplement to *Essai sur les mœurs* ; quoted by Buckle, H. T., *History of Civilization*, i, 581.

الباب الأول

2. Robinson, J. H., art. Civilization, *Encyclopedia Britannica*, 14th ed.

الباب الثاني

- | | |
|---|---|
| <ol style="list-style-type: none"> 1. Spengler O., <i>The Decline of the West; The Hour of Decision</i>. 2. Hayes, <i>Sociology</i>, 494. 3. Lippert, J., <i>Evolution of Culture</i>, 38. 4. Spencer, H., <i>Principles of Sociology</i>, i, 60 5. Sumner and Keller, <i>Science of Society</i>, i, 51 ; Sumner, W. O., <i>Folkways</i>, 119-22 ; Renard, G., <i>Life and Work in Prehistoric Times</i>, 36 ; Mason O. T., <i>Origins of Invention</i>, 298. 6. Ibid., 316. 7. Sumner and Keller, i 182. 8. Roth, H. L., in Thomas, W. I., <i>Source Book for Social Origins</i>, 111. 9. Ibid.; Mason. O. T., 190 : Lippert, 165. 10. Renard, 123. 11. Briffault, <i>The Mothers</i>, ii, 460. 12. Renard, 35. 13. Sutherland, G.A., ed , <i>A System of Diet and Dietetics</i>, 45. 14. Ibid: 88-4 : Ratzel, F., <i>History of Mankind</i>, i, 90. 15. Sutherland, G.A., 43,45 , Müller Lyer, F., <i>History of Social Development</i>, 70. | <ol style="list-style-type: none"> 16. Ibid., 86. 17. Sumner, <i>Folkways</i>, 329 : Ratzel, 129 : Renard, 40-2 ; Westermarck, E., <i>Origin and Development of the Moral Ideas</i>, i, 558-62. 18. Sumner and Keller, ii, 1234. 19. Sumner, <i>Folkways</i>, 289. 20. Renard, 40-2 21. Sumner and Keller, ii, 1230. 22. Briffault, ii, 999. 23. Sumner and Keller, ii, 1234. 24. Cowan, A. R., <i>Master Clues in World History</i>, 10. 25. Renard, 39. 26. Mason, O.T., 23. 27. Briffault, i, 461-5. 28. Mason, O. T., 224 f. 29. Müller-Lyer <i>Social Development</i>, 102. 30. Ibid., 144-6. 30a. Ibid. 167 ; Ratzel 87. 31. Thomas, W. I., 113-7 Renard, 154-5, Müller, Lyer, 306 Sumner and Keller, i, 150-3. 32. Sumner, <i>Folkways</i>, 142. 33. Mason, O.T., 71. 34. Müller-Lyer, <i>Social Development</i>, 238-9, Renard, 158. 35. Sumner and Keller, i, 268-72. |
|---|---|

(*) سنثبت اسم الكتاب كاملاً عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً.

- 800, 320; Lubbock, Sir J., *Origin of Civilization* 373-5; Campbell, Bishop R., in *New York Times*, 1-11-33.
36. Bücher, K., *Industrial Evolution*, 57.
37. Kropotkin, Prince P., *Mutual Aid*, 90.
38. Mason, O. T., 27.
39. Sumner and Keller, i, 270-2.
40. Briffault, ii, 494-7.
41. Sumner and Keller, i 328 f.
42. Lippert, 39.
43. *A Naturalist's Voyage Around the World*, 242, in Briffault, ii, 494.
- 43a. Westermarck, *Moral Ideas in* 35-42.
44. Hobhouse, L. T., *Morals in Evaluation*, 244-5; Cowan, A. R., *Guide to World History*, 22; Sumner and Keller, i, 58.
45. Hobhouse, 272.

الباب الثالث

1. Sumner and Keller, i, 16, 418, 418, 461; Westermarck, *Moral Ideas*, i, 195-8.
2. Sumner and Keller, i, 461.
3. Rivers, W. H. R., *Social Organization*, 166.
4. Briffault, ii, 894, 494; Ratzel, 183; Sumner and Keller, 470-3.
5. Ibid., 463, 473.
6. Ibid., 370, 358.
7. Renard, 149 Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 886-9, Ratzel, 180, Hobhouse, 239, Sumner and Keller, i 18, 22, 366, 392, 394, 718.
8. Nietzsche, *Genealogy of Morals*, 107.
9. *American Journal of Sociology*, March, 1905.
10. Oppenheimer, Franz, *The State*, 16.
11. In Ross, F. A. *Social Control*, 50.
12. In Sumner and Keller, J, 704.
13. Ibid., 70^a.
14. Cowan. *Guide to World History*, 18 f.
15. Sumner and Keller, i, 486.
16. Spencer, *Sociology*, iii, 316.
17. Ibid., 66.
18. Melville, *Types*, 222, in Briffault, ii, 356.
19. Briffault, *ibid.*
20. Sumner and Keller, i, 687.
21. Lubbock, 330.
22. Hobhouse, 73-101, Kropotkin, *Mutual Aid*, 131; Thomas, W I., 301.
23. Sumner and Keller, i, 682-7.
24. For examples cf. Westermarck *Moral Ideas*, i, 14-5, 20.
25. Lubbock, 363-7; Sumner and Keller, i, 454, Briffault, ii, 499; Maine, Sir H., *Anthropology and Modern Life* 221.
26. Sutherland, A. *Origin and Growth of the Moral Instincts*, i, 4-5.
27. Sumner and Keller, iii, 1498, Lippert, 75, 659.
28. Sumner and Keller, iii, 1501.
29. Ibid., 1500, Renard, 198, Briffault, ii, 518, 434.
30. Vinogradoff, Sir P., *Outlines of*

- Historical Jurisprudence*, i, 212,
Briffault, i, 503, 513.
31. Sumner, *Folkways*, 364.
32. Briffault, i, 508-9, Sumner and Keller, 540, iii, 1949, Rivers, *Social Organization* 12.
33. Moret and Davy, *From Tribe to Empire*, 40, Briffault, i, 308 Müller-Lyer, *The Family*, i 24-7, Sumner and Keller, iii, 1949.
34. White, E. M., *Woman in World History*, 35, Briffault, i, 309, Lippert, 223, Sumner and Keller, iii, 1990.
35. Hobhouse, 170.
36. Müller-Lyer, *Family*, 118.
37. Ibid., 232.
38. Sumner and Keller, iii, 1733.
39. Lubbock, 5.
40. Müller-Lyer, *Evolution of Modern Marriage*, 112.
41. Briffault, i, 460, Reuad, 101.
42. Briffault, i, 466, 478, 484, 489.
43. Ellis, H., *Man and Woman*, 316 Sumner and Keller, i, 128.
44. Ibid., iii, 1763, 1843, Ratzel, 134, Westermarck, *Moral Ideas* i, 235
45. Lubbock, 67.
46. Lubbock in Thomas, W. I, 108.
47. Westermarck, *Moral Ideas*, ii 40, 629,
48. Crawley, E., *The Mystic Rose*, in Thomas, W. I, 515-7, 525
49. Westermarck *Moral Ideas*, ii, 638-45, Sumner and Keller, iii, 1737.
50. Ibid., 1753.
51. Vinogradoff, i, 197, Müller-Lyer *Social Development*, 508.

الباب الرابع

1. Darwin, C., *Descent of Man* 110.
2. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vi, 422.
3. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, i, 32, 35
5. Sumner and Keller, iii, 1547 f. Further examples of sexual communism may be found in Briffault, i, 645, ii, 2-13, Lubbock, 68-9.
- 6 Müller-Lyer, *Family*, 55.
- 6a. *Encyclopedia Britannica*, xiii, 206.
7. Sumner and Keller, iii, 1548.
8. Briffault, ii, 81.
9. Lubbock, 69.
- 10 Lippert, 67.
- 11, Polo, Marco, *Travels*, 10.
12. Letourneau, *Marriage*, in Sumner and Keller, iii, 1521.
13. Westermarck, *Short History of Human Marriage*, 265, Müller-Lyer, *Family*, 49, Sumner and Keller, iii, 1563, Briffault, i, 629 f.
14. Ibid., 649.
15. Sumner and Keller, iii, 1565.
16. Examples in Briffault, i, 767u, Sumner and Keller iii, 1901, Lippert 679.
17. Examples in Briffault, i, 641 f, 663, Vinogradoff, i, 171. Vinogradoff, i, 173.
18. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 387.
19. Briffault, ii, 315, Hobhouse, 140.
20. Müller-Lyer, *Modern Marriage* 35

21. Spencer, *Sociology*, i, 722 ; Westermarck, *Moral Ideas*, i, 388 ; Sumner *Folkways*, 265, 351, Sumner and Keller, i, 22, iii, 1863, Briffault, ii, 261, 267, 271.
22. Lowie, R.H., *Are We Civilized?*, 128.
23. Sumner and Keller, iii, 1534, 1540, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 399.
24. Gen., xxix. Similar customs existed in Africa, India and Australia, cf. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 129.
25. Sumner and Keller, iii, 1625-6, Vinogradoff, 209, further examples in Lubbock, 91, Müller-Lyer, *Family*, 86, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 435.
26. Briffault, i, 244f.
- 26a. Lippert, 295, Müller-Lyer, *Social Development*, 270.
27. Sumner and Keller, iii, 1631. Briffault interprets this wedding custom as a reminiscence of the transition from matrilineal to patriarchal marriage-i, 240-50.
28. Hobhouse, 158.
29. Sumner and Keller, iii, 1629.
30. Briffault, ii, 244.
31. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 125.
32. Hobhouse 151, Westermarck, *Moral Ideas*, 1650. i, 388, Sumner and Keller, 1650.
33. Ibid., 1648.
34. Ibid., 1619. Herodotus (I, 196) reported a similar custom in the fifth century B. C., and Burckhardt found it in Arabia in the nineteenth century (Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 127).
35. Briffault, i, 219-21.
36. Lowie, *Are We Civilized?*, 125. 8. Briffault, ii, 215.
38. Sumner and Keller, iii, 1658.
39. In Lubbock, 53.
40. Ibid., 45 7, Sumner and Keller, iii, 1508-8, Briffault, ii, 141-3.
41. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 51.
43. Briffault, ii, 70 f.
44. Briffault, ii, 2-13, 67, 70-2. Briffault has gathered into a ten-page footnote the evidence for the wide spread of premarital sexual freedom in the primitive world. Cf. also Lowie. *Are We Civilized?* 123, and Sumner and Keller, iii, 1553-7.
- 45 Ibid., 1556, Briffault, ii, 65, Westermarck, i, 441.
- 46 Lowie, 127.
47. Briffault, iii, 318, Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 32.
48. Briffault ii, 222-3, Westermarck, *Short History*, 13.
49. Sumner and Keller, iii 1682, Sumner, *Folkways*, 358.
50. Ibid., 361, Sumner and Keller, iii, 1674.
51. Ibid., 1554, Briffault, iii, 844.
52. S & K, iii, 1682.
- 52a. For examples cf. Westermarck. *Human Marriage*, i, 580-45, or Müller-Lyer *Modern Marriage*, 39-41.
53. Müller-Lyer, *Social Development*, 132-3, Sumner, *Folkways*, 439.
54. Briffault, iii, 260 f.
55. Ibid., 307, Ratzel, 93.

56. Sumner, *Folkways*, 450.
57. Reinach, *Orpheus*, 74.
58. cf. Briffault, ii, 112-7, Vinogradoff, 173.
59. S. & K., iii, 1528.
60. Ibid., 1771.
61. Ibid., 1677-8.
62. Ibid., 1831.
63. Quoted in Briffault, ii, 76.
64. Ibid., S & K, iii, 1831.
65. Müller-Lyer, *Family*, 102.
66. S & K, iii, 1890.
67. Ibid.; Sumner, *Folkways*, 314, Briffault, ii, 71, Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 413, E. A. Roët, "Sex Hygiene 'of the New Zealand Maori'" in *The Medical Journal and Record*, Nov. 17, 1926, *The Birth Control Review*, April, 1932, p. 112.
68. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 394-401.
69. Lowie, *Are We Civilized?* 188.
70. Müller-Lyer, *Family*, 104.
71. S & K, i, 54.
72. Briffault, ii, 391.
73. Renard, 135.
74. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 383.
75. Ibid., i, 290, Spencer, *Sociology*, i, 46.
76. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 88, S & K, i, 336.
77. Kropotkin, 90.
78. Lowie, *Are We Civilized?*, 141.
79. Instances in Thomas, W. I., 108, White, E. M., 40, Briffault, i, 453, Ratzel, 135.
80. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 422, 678.
81. Hobhouse, 79, Briffault, ii, 853.
82. Ibid., 185.
83. Thomas, W. I., 154.
84. Examples in S & K, i, 641-3.
85. Briffault, ii, 148-4.
86. Ibid., 500-1, Kropotkin, 101, 105; Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 539-40, Lowie, 141.
87. Hobhouse, 29; Spencer, *Sociology*, i, 69, Kropotkin, 90-1.
88. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 26; Briffault, i, 636.
89. Ibid., 740.
90. Müller-Lyer 31.
91. Lowie, 164.
92. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 150-1, Sumner, *Folkways*, 460.
93. Ibid., 454.
94. Ibid., 13 S & K, i, 358.
95. Kropotkin, 112-3, Briffault, ii, 357, 490, S & K, i, 659, Westermarck, ii, 556.
96. Strabo, *Geography*, 1, 2, 8.
- 96a. S & K, ii, 1419.
- 96b. Ibid.
- 96c. Briffault, ii, 510.
- 96d. Lippert, 6.
- 96e. Briffault, ii, 508.
97. Williams, H. S., *History of Science*, i, 15.
98. Briffault, ii, 645.
99. Ibid., 657.
100. S & K, ii, 859; Lippert 115.
101. *Bṛihadaranyaka Upaniṣad*, iv., 3: Davids, T. W. Rhys, *Buddhist India*, 252; Deussen, Paul, *The Philosophy of the Upaniṣads*, 302.
102. Carpenter, Edward, *Pagan and Christian Creeds*, 80.
103. Powys, John Cowper, *The Meaning of Culture*, 180.
104. Briffault, ii 577, 582-92, 682.

106. Ibid., 147 ; Carpenter, 48.
106. Jung, C. G., *Psychology of the Unconscious*, 173.
107. Allen, G., *Evaluation of the Ideas of God*, 237.
108. Briffault, II, 508-9.
109. Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, 1-v ed., 112, 115.
110. De Morgan, Jacques, *Prehistoric Man* 249.
111. Frazer, *Golden Bough*, 165-7.
112. Jung, 173.
113. Briffault, III, 117.
114. Ibid., II, 592.
115. Ibid., 481.
116. Reinach, 19.
117. Freud, S. *Totem and Taboo*. For a criticism of the theory cf. Goldenweiser, A. A., *History, Psychology and Culture*, 201-8.
118. Durkheim, É., *Elementary Forms of the Religious Life*.
119. Briffault, II, 468.
120. Reinach, *Orpheus*, 1909 ed., 76, 81; Trade, G., *Laws of Imitation* 273-5; Murray, G., *Aristophanes and the War Party*, 23, 37.
121. Spencer, *Sociology*, I, 406; Frazer, *Golden Bough* VII.
122. Reinach, 1909 ed., 80.
123. Ibid.
123. Allen, 30.
124. Examples in Lippert, 103.
125. Smith, W. Robertson, *The Religion of the Semites*, 42.
126. Hoernle, R. F. A., *Studies in Contemporary Metaphysics*, 181.
127. Reinach (1909), 111.
128. Frazer, *Golden Bough*, 13.
129. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris*, 356.
130. Briffault, III, 198.
131. Ibid., 199.
132. Frazer, *Golden Bough*, 337, 432; Allen, 246.
133. Georg. E., *The Adventure of Mankind*, 202.
134. S & K, II, 1259.
135. Ibid.
136. Sumner, *Folkways*, 836-9, 553-6.
- [137. Ibid., 887 ; Frazer, *Golden Bough*, 489.
138. Westermarck, *Moral Ideas*, 273, 376, 563
139. Ratzel, 45.
140. Reinach, 1930 ed., 23
141. Ratzel, 183.
142. 2 Sam. VI, 4-7.
143. Diodorus Siculus, *Library of History*, I, Ixxxiv.
144. Briffault, II, 366, 387.
145. Sumner, *Folkways*, 511.

الباب الخامس

1. Ratzel, 84 ; Müller-Lyer, *Social Development*, 50-3, 61.
2. Ibid., 46-9, 54; Renard, 57; Robinson, J. H., 735-740 ; France, A., *M. Bergeret a Paris*.
3. Lubbock, 227, 339, 342f.
4. Müller, Max, *Lectures on the Science of Language*, I, 260.
6. Tylor, E. B., *Anthropology*, 125,
6. Müller, *Science of Language* I, 265, 303n; II 39.
7. Venkateswara, S. V., *Indian Culture through the Ages*, Vol. I, *Education and the Propagation of Culture*, 6; Ratzel, 31.
8. White, J. A., *Michanisms of Character Formation*, 83.
9. Lubbock, 353-4

10. Briffault, i, 106.
11. Ibid., 107; Russell, B., *Marriage and Morals*, 243.
12. S & K i, 654.
13. Briffault, ii, 190.
14. Ibid., 192-3.
15. Lubbock, 35.
16. Maspero, G., *Dawn of Civilization*, quoted in Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 39.
17. Lubbock, 299.
18. Masson, W. A., ch. ii; Lubbock, 85.
19. Masson, W. A., 146-54.
20. Briffault, i, 18.
21. Speneer, *Sociology*, iii, 218-26.
22. Mason, W. A., 149; further Examples in Lowie, 202.
23. Spencer, *Sociology*, iii, 247 f.
24. Tylor, *Primitive Culture*, i, 243-8, 261, 266, Lubbock, 299.
25. Thoreau, H. D., *Walden*.
26. Briffault, ii, 601.
27. Mason, O. T., in Thomas, *Source Book*, 366.
28. Briffault, 485.
29. Examples in Lowie, *Are We Civilized?*, 260.
- 29a. Māli., viii., 28.
30. Lowie, 250, S & K, ii, 979, Spencer, *Sociology* iii, 194, Garrison, F. H., *History of Medicine*, 22, 33, Harding, T. Swann, *Fads, Frauds and Physicians*, 148.
31. Garrison, 26.
32. Marett, H. R., *Hibbert Journal*, Oct. 1918, Carpenter, *Pagan and Christian Creeds*, 167.
33. Lowie, 247.
34. In Garrison, 45.
35. Briffault, ii, 157-8, 162-3.
36. Darwin, *Descent of Man*, 660.
37. Briffault, ii, 176.
38. Spencer, i, 65, Ratzel, 96.
39. Grosse, E., *The Beginnings of Art*, 55-68, Pijoan, J., *History of Art*, i, 4.
40. Grosse, 58.
41. Renard, 91.
42. Lubbock, 45.
43. Ratzel, 105.
44. Lubbock, 51; Grosse, 80.
45. *Source Book*, 555.
46. Grosse, 70, Lubbock, 46-50.
47. Georg, 104.
48. Grosse, 81.
49. Briffault, ii, 161.
50. Grosse, 83.
51. Ratzel, 96.
52. Müller-Lyer, *Social Development*, 142.
53. Grosse, 83.
54. Ibid.
55. Briffault, ii, 297.
56. Ratzel in Thomas, *Source Book*, 557.
57. Lowie, 80.
58. Sumner *Folkways*, 187.
59. *Enc. Brit.*, xviii, 873.
60. Mason, O. T., 156, 164.
61. Ibid., 25.
62. Pijoan, i, 12.
63. Ibid., 8.
64. Spencer, iii, 294-304, Ratzel, 47.
65. Renard, 56.
66. Pratt, W. S., *The History of Music*, 26-31.
67. Grosse, E., in Thomas, *Source Book*, 556.

الباب السادس

2. Osborn H. F, *Men of the Old Stone Age*, 28.
3. N. Y. *Times*, July 31. and Nov. 5, 1931.
4. Lull, *The Evolution of Man*, 76.
5. Sollas, W. J., *Ancient Hunters*, 438-42.
6. Keith, Sir A., N.Y. *Times*, Oct. 12, 1930.
7. De Morgan, J., *Prehistoric Man*, 57-8.
8. Pittard, Eugene, *Race and History*, 70.
9. Keith, I. c.
10. Pittard, 311, Childe, V. G., *The Most Ancient East*, 26.
11. Andrews, R. C., *On the Trail of Ancient Man*, 309-12.
12. Skeat, W. M., *An Etymological Dictionary of the English Language*, 252, Lippert, 166.
14. Osborn, 270-1.
15. Lippert, 133.
16. Lowie, *Are We Civilized?*, 51.
17. Müller Lyer, *Social Development*, 99, Lippert, 130, S & K, i, 191.
18. Bulley, M., *Ancient and Medieval Art*, 14.
19. De Morgan, 197.
20. Spearing, H. G., *The childhood of Art*, 92, Bulley, 12.
21. Osborn fig 166
22. N. Y. *Times*, Jan. 22, 1934
23. Bulley, 17
24. Spearing, 45
26. Renard, 86
27. Rickard, T.A., *Man and Metals*, i, 67.
28. De Morgan, x.
29. Ibid., 169; Renard, 27.
30. De Morgan, 172, fig. 94.
31. Pitkin, W.B., *A Short Introduction to the History of Human Stupidity*, 53.
32. Carpenter, E., *Pagan and Christian Creeds*, 74; Lowie, 58, Ratzel in Thomas, *Source Book*, 93.
33. Lowie, 60.
34. Febure, L., *A Geographical Introduction to History*, 261.
35. Rickard, i, 81, Schneleer, H., *The History of World Civilization*, i, 20.
36. Breasted, J. H., *Ancient Times*, 29.
37. Renard, 102.
38. De Morgan, 187.
39. Mason, O. T., *Origins of Invention* 154.
40. E.g. De Morgan, 226, fig. 135.
41. Renard, 79]
42. Lowie, 114, De Morgan, 269.
43. Renard, 112, Rickard, i, 77.
44. Georg, 105.
45. De Morgan 235, 240, Renard, 27 Childe, V. O., *The Dawn of European Civilization*, 129-38, Georg, 89.
46. Schneider, H., i, 23-9.
47. Ibid., 30-1.
48. Garrison, *History of Medicine*, 28, Renard 190.
49. Ricard, i, 84.
50. Ibid., 109, 141.
51. Ibid., 114.
52. Ibid., 118.
53. Rostovtzeff, M., in Coomaras-

- wamy, A. K., *History of Indian Indonesian Art*, 3.
54. *Cambridge Ancient History*, i, 103.
55. De Morgan, 126.
56. Rickard, i, 169 - 70; De Morgan, 91.
57. Rickard, i, 85-6.
58. *Ibid.*, 86.
59. *Ibid.*, 141-7; Renard, 29-30.
60. Mason, W. A. *History of Writing*, 313.
- 60a. CAH *Cambridge Ancient History*) i, 876.
61. Petrie, Sir W. F., *The Formation of the Alphabet*, in Mason, W. A., 329.
62. *Encyc. Brit*, i, 680.
63. Tylor, *Anthropology*, 168.
64. De Morgan, 257.
65. Breasted, *Ancient Times*, 42, Mason, W. A., 210, 321.
66. *Ibid.*, 381.
67. *Encyc. Brit.*, i, 681.
68. Plato, *Timaeus*, 25, *Critias*, 113.
69. Georg, 223.
70. Childe *The most Ancient East*, 21-6.
71. Georg, 51.
72. Keith, Sir A., N. Y. *Times*, Oct. 19, 1930; Buxton, L. H. D., *The peoples of Asia*, 83.
73. CAH, i, 579.
74. *Ibid.*, 86, 96-1, 362.
75. Keith, I. e., Briffault, ii 507, CAH, i, 362, Comaraswamy, *History*, 3.
76. CAH, i, 85-6.

فهرس الأعلام

(١)

الألوت (قبيل) : ١٢٦
 ألفرد رسل وللاس : ٤٨
 الألوشيون (قبيلة) : ١٨ ، ٢٥
 ألونسوتى أوجدا : ١٧٠
 ألويت : ١٥٧
 أناتول فرانس : ٨٣
 أناطنة (جمع أنطون) : ٧
 أناقاريسس اليوناني : ٨٣
 أنا كسجوراس : ١٠٣
 أنتا فرنيز : ٥٨
 أنتجوننا : ٥٨
 أنجولا : ٧١
 أنجور : ١٥٤
 أندرو : ١٦١
 أندرو شمت (سير) : ١٤٣
 أنديمان (جزائر) : ١٤٨٠ ، ٨٠
 إنكا : ٧٣
 أوبنيمير : ٤٤
 أوتيل ديبه (مستشفى في باريس) : ١٣٩
 أوجيوا (هنود) : ١٠٦
 أور : ١٧١
 أورجناسي : (عصر حجري) : ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧
 أورانج : ٦٦
 أورانج ساكاي : ٦٨
 أورانوس : ١٠١
 أورونوكو (هنود) : ٧٥ ، ١٤٦
 أوقله : (شاعر روماني) : ١٠٨
 أوقيانوسيا : ٢٦
 أركلاهاما : ١٦٢
 أولفر وندل هولمز : (طبيب) : ١٣٩
 أوانان : ٦٩

إبراهيم : ١١٤
 إيسن : ١٠١
 أبوينا (قبيلة) : ١٠٤
 أبيقور : ٩٨
 أبيكرتا (قبيلة) : ١٤٥
 أديبون (قبيلة) : ٩٨ ، ٨٨
 أدينا
 أراكرا (قبيلة) : ٢٦ ، ٤٠ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ١٠٦ ، ١٣٨
 أراپاهو (قبيلة) : ١٢٤
 أرثر شيت (سير) : ١٧٢
 أرسطو : ٣٧
 أرسنج (في فرنسا) : ١٦٧
 أزاتقة : ١٧
 أسام : ٨٠ ، ٥٨
 استراليا : ١١ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥٨ ،
 ٧٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٢٥ ،
 ١٤٣ ، ١٥١
 اسخيلوس : ١٦٤
 اسكيمو : ١١ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٢ ، ٥٨ ،
 ٩١ ، ٩٥ ، ١٤٨
 اشتر (إله) : ١٠٥
 آشور : ١٠٦
 أشولي (عصر حجري) : ١٥٩
 اقجنيا (في أساطير اليونان) : ١١٤
 افروديت (إلهة) : ١٠٥
 البخريكو (فنانون) : ١٦٧
 البلونكن (قبيلة) : ٧٧ ، ١٣١
 الألاب (جبال) : ١٥٦
 التاميرا : ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦

ایجوروت (قبيلة في الفلبين) : ۸۰

ایستر (جزيرة) : ۱۳۱ ، ۱۳۳ ، ۱۴۸

(ب)

بابار (أرخبيل) : ۱۱۱

بابل : ۴ ، ۶ ، ۲۶ ، ۶۷ ، ۱۰۶ ، ۱۰۸

پاپوا (قبيلة) : ۵۸ ، ۷۶ ، ۸۵ ، ۸۷

پاجندا : ۴۶

پاخوین : ۱۱۲

پاخی : ۱۱۳

پارونجا (قبيلة) : ۱۴۸

پالوندا : ۸۲

پالی : ۸۳

پان (إله عند اليونان) : ۱۰۱

پانتو (قبيلة) : ۱۱۲ ، ۱۱۵

پانجراچ : ۸۸

پایلا (قبيلة) : ۶۸

پپین (في الصين) : ۱۵۷ ، ۱۶۲

پتری : ۱۸۱ ، ۱۸۲

البداری (في مصر) : ۱۷۷

البرازیل : ۱۳۴ ، ۱۴۶ ، ۱۶۹

البرانس (جبال) : ۱۵۶

البرتغال : ۱۶۹

برچریه (شخصية في قصة) : ۱۲۳

پرسوپولس : ۱۵۴

پرکلیر : ۶۰ ، ۱۴۴

پرفتن : ۱۸

پرومیسوس : ۱۶۴

پریام : ۱۵۴

بریطانیا الجديدة : ۲۶ ، ۹۹ ، ۱۴۳

پریفو (مؤلف) : ۷۴ ، ۱۴۳

پریل (الأب) : ۱۵۷

البطالسة : ۷۳۰

پنکین : ۶ ، ۱۵۷

پلهونیز : ۱۰۳

پلنداون (في إنجلترا) : ۱۵۷

پلجیکا : ۱۷۳ ، ۱۷۴

پلستوسین- (عصر حجري) : ۱۵۷ ، ۱۶۰

پلیو (جزيرة) : ۵۹

پندقیة : ۴

پندی (قبيلة) : ۸۸

پنجو (قبيلة) : ۱۴۴

بنوك (مؤلف) : ۱۴۳

بوئوكودو (قبيلة) : ۶۸ ، ۲۴۵

بورما : ۵۸ ، ۸۱

بورما العليا : ۸۰

بورنیو : ۱۶ ، ۳۱ ، ۶۶ ، ۶۷ ، ۱۷۰

برودو (قبيلة) : ۱۳۸

بوزیلون : ۱۰۱

البوشین : ۱۱ ، ۲۶ ، ۴۰ ، ۶۰ ، ۶۸ ، ۸۰

بولس (القديس) : ۳۷

بولیزیا : ۱۲ ، ۲۰ ، ۳۲ ، ۸۰ ، ۱۱۰

۱۱۸ ، ۱۳۱ ، ۱۳۲ ، ۱۳۶ ، ۱۷۹

البوئیون (قبيلة) : ۱۱۳

بومارشیه : ۷۹

بویلو (هنود) : ۱۴۸

پی (عالم آثري) : ۱۵۷

پیوجت (خلیج) : ۴

پیری (رحالة) : ۱۱

پیرو : ۶ ، ۳۱ ، ۷۵ ، ۱۳۸

پیبرلوقی (کاتب فرنیسی) : ۲۰

(ت)

تابو (التحریم) : ۱۱۸

تاراهیومارا (قبيلة) : ۱۲

تاهیتی : ۱۲ ، ۲۰ ، ۵۸ ، ۶۸ ، ۸۰

جواياكيل (هنود) : ١١٣

جواراني (قبيلة) : ١٣٤

جورجيا الجديدة ٨٠٠

حوتيه (شاعر فرنسي) : ١٤٥ ، ١٦٤

جى (إله الأرض عند اليونان) : ١٠١

جيرار (في فلسطين) : ١٨١

جيورج (مؤلف) : ١٤٥

(ح)

حورابي : ٥١ ، ٥٣

(خ)

خنزير جادارين (قصة) : ١٣٧

(د)

دارا : ٥٨

دارون : ٣٣ ، ١٠٦ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٤

١٦٤

داماترا : ٦٨

دامارا (قبيلة) : ١٣٥

درافيد (قبيلة) : ١٠٦

الدروديون (قبيلة) : ١٠٤

دسلدورف : ١٥٧

دلاوير : ٤٠

دلى : ١٣٢

دلى : ٦٠

دميتر (إله) : ١٠٥

الدنكا (قبيلة) : ١٠٣

دوردوني : ١٥٨

دوسن* (عالم أثري) : ١٥٧

دياك (قبيلة) : ٢٩ ، ٤١ ، ٩٢ ، ٩٥

١١١

دييون : ١٢٣

تايس : ١٤٠

التيت : ٦٨ ، ٧٠

تخوت (إله مصرى) : ١٢٩

تروبرياند (جزيرة) : ٥٧ ، ٩٣

تسافيا ٢٦٠ ، ٤٠ ، ١٢٥ ، ١٣٤

تشيوا (قبيلة) : ٦١

تشروكى : ٨٦

تشكتو (هنود) : ١٢٥

تشوكتين (في الصين) : ١٥٤ ، ١٥٧

تشيتا جونج ٣١٠

تشيني (هنود) : ٨٧

تكونا (قبيلة) : ١٢٤

تلنجت (قبيلة) : ١٢

تمبكتو : ٦

لنيجيون (قبيلة) : ٤٠

توارج (قبيلة) : ٨١ ، ٨٣

لتوجو (قبيلة) : ٧٥

لودا (قبيلة) : ٧٠

لورس (خليج) : ١٤٥

(ث)

ثورو : ١٣٥

ثيوى (الأب) : ٢٥

(ج)

جارنر : ١٢٣

جارك بوشيه ١٥٤٠

جاليل : ١٥٧

جيسلندة : ١٤٥

جرينلندة : ٩٥

الجزويت : ١٤٦ ، ١٦١

جلوكوپس : ١٠٨

جبلوئش : ٤٤

چرانج (قبيلة) : ١٦

جوايكورور (قبيلة) : ٨٧

سبیل (إله) : ۱۰۵۰
 سترابو : ۹۷
 سبل (خلیج) : ۱۶۱۰
 سین* کار (عالم انری) : ۱۶۱
 ستوسج : ۱۷۶۰
 سکولکرافت : ۸۵
 سکیب (مؤلف) : ۱۲۵
 سلیمان (جزر) : ۶۲
 سئین (إله عند اليونان) : ۱۰۱
 سینر : ۳۳ ، ۴۴
 السغال : ۷۷
 سنکا (حنود) : ۵۹
 سوزا : ۱۸۱
 سوفت : ۲۱
 سولاری (عصر حجری) : ۱۶۰۰
 سومر : ۱۸۱
 سومطره : ۱۷۰ ، ۱۱۱ ، ۴۰
 السویوت (قبیلة) : ۷۹
 سیلان : ۲۶ ، ۴۰ ، ۸۱ ، ۹۸

(ش)

شایمان : ۱۵۴
 شمبولیون : ۱۵۵ ، ۱۵۴
 شنیدر : ۱۷۶
 شیلی (عصر حجری) : ۱۵۹

(ص)

الصومال : ۷۵ ، ۱۳۳ ، ۱۴۳ ، ۱۶۱
 الصين : ۷۵ ، ۱۰۴ ، ۱۰۹ ، ۱۳۱
 ۱۵۹ ، ۱۶۱ ، ۱۷۶

(ط)

طوطم : ۴۰ ، ۹۸ ، ۱۰۶ ، ۱۰۷
 ۱۱۸ ، ۱۳۱

دیودورس : ۱۱۸
 دی مورجان : ۱۶۱
 دی کرسینی : ۶۶
 دیومدیز : ۲۹

(ر)

راتسنهور : ۴۴
 راشیل : ۷۴
 رافا : ۶
 رتارد (رحالة) : ۱۴۲۰
 رخ - مارا : ۱۷۸۰
 رفرز (أستاذ) : ۳۱۰
 روتهاورن (فی سویسرا) : ۱۷۷
 رودبشیا : ۱۱۴
 الروسیا : ۶۷ ، ۴۸
 رولی (مؤلف) : ۱۱۲
 روما : ۶
 ریکیه (کلب متفلسف فی قصة) : ۱۲۳
 ریباخ : ۱۶۶
 رینان : ۱۲۴

(ز)

الزولو (قبیلة) : ۸۵ ، ۹۹ ، ۱۱۱
 زیلنڈة الجددہ : ۵۳ ، ۱۴۴
 زیوس : ۱۰۴

(س)

ساردینیا : ۱۶۹
 سافدیج (الدکتور) : ۶۶
 ساکرامنتو (نهر) : ۱۶
 ساموا (قبیلة) : ۳۱ ، ۳۲ ، ۴۱ ، ۸۶ ، ۱۰۵
 الساموریون : ۵۸
 سبتسر : ۴۷ ، ۱۳۴ ، ۱۵۰

(ق)

قرطاجنة : ٤ ، ١١٤ ، ١٥٤
قيصر : ٦٩

(ك)

كايتول : ١٥
الكاربيون (قبيلة) : ٩٥
كارتييه (مؤلف) : ١٣٨
كارفر (كاتب) : ٣٢
كارولينا (جزيرة) : ١١٤ ، ١٣١
كالدونيا الجديدة : ٦٣ ، ١٣٢ ، ١٤٣
كاليفورنيا : ٨٥ ، ٥٠
كامبل ديمولان : ٤٤
كامبيتانا (إله عند أهل بريطانيا الجديدة) : ١٠٠
الكامرون : ٩٨ ، ١٨٢
كاشادال : ٨٠ ، ٨٨
كاييه : ٧٧
كبلر : ١٠٣
كرو (قبيلة) : ٧٥
كرو - مانيون : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧
كريج (مؤلف) : ١١٣
كريت : ١٦٧
كريسوسم (قديس) : ٣٣
الكفير (قبيلة) : ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ،
٩٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٧
كبرى (قبيلة) : ١٤٦
كنغو : ١١٢ ، ١٤٧
الكوبيون : ٤٠
كورفوثا (إله عند أهل بريطانيا) : ١٠٠
كوك (كاتب) : ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٨١
كوليس : ٧٥ ، ١٨١
كولومبيا : ٢٩

(ع)

عزى : ١١٨
عيلام : ١٧٩ ، ١٨٢

(غ)

غافة الجديدة : ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٥
١٧٠ ، ١٤٣ ، ٧٦
غالا (قبيلة) : ١٠٧ ، ١٤٧

(ف)

فاجز : ١٠١
الفال (قبيلة) : ١٠٤
فرانسز جولتن (سير) : ٦٨
الفراغة : ٧٣
فرانكلين : ٢٣
فربيا (إلهة) : ١٠٥
فرويد : ١٠٧ ، ١٥٠
فريرز : ١١٦ ، ١٦٦
فضلات المطبخ : ١٦٩ ، ١٧٤
الفلاته (قبيلة) : ١٤٤
فلسطين : ١٦٢
فلورنسة : ٤ ، ٦
فنزويلا : ١٧٠
فنلندة : ١٧٩
فوتونا : ٦٧ ، ٩٢
فولتير : ١
الفويجيون (قبيلة) : ١٨ ، ٢٠ ، ٣٣ ،
٤٠ ، ٥١ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٣٢ ،
١٤٦
فيجي : ٦٢ ، ٦٣
الفيداويون (قبيلة) : ٢٦ ، ٤٠ ، ٩٨

ماورى (قبيلة) : ٨٧ ، ٧٥
مايلتا (مميد) : ٩٧
مجدلى (عصر حجرى) : ١٦١ ، ١٧٤
مجلس السبعة (عند هنود أو ماها) : ٤١
مدغشقر : ١٦ ، ٨٨
مرى (جزائر) : ٨٠
مرى (شهر) : ٦٥
مصر القديمة : ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٧
المكسيك : ١٧
مليار : ٨٠
مسلخ : ١١٤
ملفا : ٦٨ ، ١٠٤
مفيس : ٦
منحوپارك (رحالة) : ١٤٢
منشوريا : ١٦٩
المنغوليون : ١٠٤ ، ١٦١
الموت الأسود : ٧
موربهان : ١٧٦
موسى : ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤
موسولوى : ١١٨
موسيرى (عصر حجرى) : ١٦٠ ، ١٦١
مولتيينى : ٢١
موهنجو دارو : ١٥٤
ميلا فيزيا : ٢٠ ، ٣٢ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ١٤٢
مينوس : ١٥٤
ميكرونيزيا : ٥٨

(ن)

نابليون : ١١٨ ، ١٥٤
نبرا كا : ١٦٢
نياندرتال : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٢ ، ١٦١
نيقشه : ٤٤
نيحريا : ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٤٣
نينوى : ٢٦ ، ٤٤

كولين : ٩١
كوكى (قبيلة) : ١١٥
كوروان (الكتابة الصيفية) : ١٣١
كونكوستادورس : ١٧

(ل)

لائين (فى سويسرا) : ١٨١
لاندر : ٧٦
لاوتسى : ١٣١
لپير : ٧٤
لرنو : ٦٩
لستر وورد : ٤٤
لفنجستون : ٨٢
لنوس (جزيرة) : ١٦٤
اللينجوا (قبيلة) : ٨٨
لويو : ٦٧
لوسكيل (رحالة) : ٣٣
لوسل (فى فرنسا) : ١٦٧
لوكر يشس : ٩٩
لوى بجوان (عالم أثرى) : ١٦٧
لويس مورجان : ١٢٤
ليريا : ٣٢

(م)

مادزيل (فى فرنسا) : ١٦٩
ماراسيبو (بحيرة) : ١٧٠
مارسلينودى سنولا : ١٦٥
ماركاس : ٤٨
ماسون : ١٣١
ماركوبولو : ٦٩
مافوى (إله) : ١٠٥
الماكوزى (قبيلة) : ١١٩
مالينوفسكى : ٥٧
مانا (فى أساسير بولينزيا) : ١١٠

نيويورك : ١٩٦٦

(أ)

هانوفر الجديدة : ١٤٣

هيردينز الجديدة : ٦٢

هرمان ملقيل : ٤٨

الحملايا : ١٥٦

الهند : ٦٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٢٠٤ ، ١٠٦

٢٥٩ ، ١٦١

الهند الأمريكيون : ٤ ، ١١ ، ١٧ ،

١٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٦٣ ،

٧٩ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ،

١٢٤ ، ١٤٣

هوائ : ٦٧

الموتفتبون : ١١ ، ٣٢ ، ٧٧ ، ٩١ ،

١١٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥

هولستات (في النمسا) : ١٨١

هوسر : ١٠٨

هيدلبرج : ١٥٧

هيروغليي : ١٣١ ، ١٣٢

هيري (آلهة) : ١٠٨

(و)

وابونيا (قبيلة) : ١٤٧

وتمن (كاتب أمريكي) : ١٢٣

وودوورد (عالم أثري) : ١٥٧

ويلز الجديدة : ٢٦

(ي)

يابان : ٦ ، ٧٥ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،

١٣١ ، ١٦٨ ، ١٦٩

باريبا : ٧٦

ياقوت (قبيلة في سيبيريا) : ٦٨ ، ٩١ ،

١٧٩

يعقوب : ٧٤

يوانتروپس : ١٥٧

يويانشاد : ١٠٠

يوغندا : ٨٠

يوقطان : ٦ ، ١٥٤

فهرست

صفحة

الباب الأول : عوامل الحضارة	٣
الباب الثاني : العناصر الاقتصادية في الحضارة	٩
الفصل الأول : من الصيد إلى الحرث	١١
الفصل الثاني : أسس الصناعة	٢٢
الفصل الثالث : التنظيم الاقتصادي	٣١
الباب الثالث : العناصر السياسية في الحضارة	٣٩
الفصل الأول : أصول الحكومة	٣٩
الفصل الثاني : الدولة	٤٤
الفصل الثالث : القانون	٤٨
الفصل الرابع : الأسرة	٥٥
الباب الرابع : العناصر الخلقية في المدنية	٦٥
الفصل الأول : الزواج	٦٦
الفصل الثاني : أخلاق الجنس	٧٩
الفصل الثالث : الأخلاق الاجتماعية	٩٠
الفصل الرابع : الدين	٩٨
١ - مصادر الدين	٩٩
٢ - المعبودات الدينية	١٠٢
٣ - طرائق الدين	١١٠
الباب الخامس : العناصر العقلية في المدنية	١٢٢
الفصل الأول : الآداب	١٢٢
الفصل الثاني : العلم	١٣٤
الفصل الثالث : الفن	١٤٠

صفحة

الباب السادس : بدايات المدنية فيما قبل التاريخ

الفصل الأول : ثقافته العصر الحجري القديم ١٥٣
الفصل الثاني : أهل العصر الحجري القديم ١٥٦
الفصل الثالث : الفنون في العصر الحجري القديم ١٦٣
الفصل الرابع : ثقافة العصر الحجري الحديث ١٦٩
الفصل الخامس : مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية ١٧٧
١ - ظهور المعادن ١٧٧
٢ - الكتابة ١٨١
٣ - المدنيات المفقودة ١٨٥
٤ - مهود المدنية ١٨٦
المراجع ١٨٩
فهرس الأعلام ١٩٨

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شؤون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كررنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

